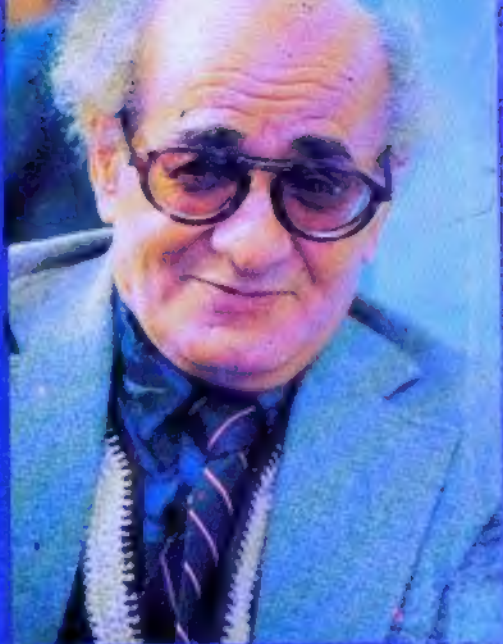


الأعمال الخاطلة:

خيري شلبي



Amly

الأم علي

— وثائقي الكومي

لأبي علي حسن : ولد علي
سيرة ذاتية شعبية في ثلاث أجزاء

الهيئة المصرية العامة للكتاب



سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى

أيام الأسبوع سبعة:

الأول - هلت ليالى القمر

تجعت أمى ذات ليلة فى أن تتصيدنى فى حالة راقية، إذ أن الأمر الذى وُت أن تحدثنى فيه قد يسعدنى فأطير فى الهواء فرحاً، وقد يصمتنى فأشكها فى وجهها بقبضة يدي، لكنها أمى يا بوى ولا كل الأمهات، حويطة أشد من حوط الشير ولد أبو عامر يا بوى، تصيدت روقان مزاجى وضحكى على القاضية والمليانة فصارلت ثمكى ثوابر وأخبارا ونكتا مثل خلالها أدوار الهملاوات والأطفال والفنثين وسباح الليل - أى الكلاب - حتى ضحككت وصفت الدم كله، وقلت: «كفاك يا أم لقد أوجعت يطنى من الضحك»، فسرعان ما أمرت إخوتى البنات بأن يلفسضنها سيرة ويقمن لتتصيق (اليلة) وتبييت الفراخ والتقميم على الأرانب وسد هواء الباب الكبير وخروم المشة حتى لا تجد العرسه مظفا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعمان الساكن بجوار المشة فى أماكن لا يؤذى إلا من حاول إيذاه، إلى أن يائز الله باستقدام أحد الرقاعية القبيض عليه يدًا بيد فى صنعة لطافة.

دخلنى الاطمئنان يا بوى وحديث بقلبي «نغمشة» مفرجة لى انتظار لخير طيب، وقبل أن أنهيا لاستماعه يا خال كانت أمى قد

رمت به في جملة واحدة كأنها لا تزال تحكي النوال والخابر والنكت. التهيت برهة ثم انتهت فجلة فصمت فيها: «ماذا قلت يا أم؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى فلم تسمح: «قلت: أحب أن أؤكد، قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمحل، مشوكة: دي... ده... قلت: إن خرابية يدور على أختك سعدية!..»

رجعت بهما في إلى الورا يا بوى، اعتدلت في قعدتي حدة مرات، شوك في كل موضع صار يشكني في قلبي، صارت كل الدماء في عروقي أسنان شوك تسمى في عروقي تشعل النار في حلق في رأسي في عيني، ربنا ما يوقك في خيفة كهذه يا خال، تحلف الهمين إنها ولا خيفة القير!..

«خرابية؟» «خرابية بذات نفسه يا بوى؟» يدور على أختي «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذي يستطيع بإشارة أصبع أن يخطفها ويستعملها كخليفة، كجارية دون أن يجري على اعتراض طريقه ثقل واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخنين للجميع فيها. أما أنا فلست سوى قشة، ريشة إذا تمطع ونفخها طيرها الريح يبدد. الحكومة بجلالة قدرها لم تجر على اعتراضه يا بوى ولم تطلع في الإسلاك به يا بوى، فهل أقرر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟ هته والله محنة جديدة منيت بها يا حسن يا ولد أبي ضب فهل لم تجد للمن في الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟ فولا تأكدي من حب أمي لو تلت أنها دعت على بالاً يعبرني الله ويجعلني أبد الدهر في قلق ووجع دماغ!..

- ٦ -

هي برهة واحدة يا بوى، سرهان ما رأيت نقسي بعدما قد تصنعت وصرت في آخر روقان، اختلست البصر نحو أمي فوجدتها مطرقة إلى الأرض وجهها ملفوف برداء أحمر وليس أسود كالعادة - توهي لي به أنه من علامات الفرح والموافقة عندها، فقلت لنفسى ولاندا لا توافق يا ولد أبي ضب؟ لقد كان بإمكان «خرابية» أن يفعل ما يشاء له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقارا فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مفاريد يسمون الجيل يتسلطون عليه. قل يا بوى: إننى شعرت بالحرمة مقدما، انتفضت في قعدتي وأنتويت الحديث في المهمات على أرض الموافقة، لكن خاطرا مفعونا جرى كحشرة اليرص في زكن من دماغى، فالشعر جسدى من نعومته وزلقته واختراقه نفاعى: كيف تأتى لخرابية أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذى لا ينزل القبله قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال وفي لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرموسين على امتداد الطريق الذى سيرتقيه رائحا غاديا من

الجيل إلى داره ومن داره إلى الجيل والبنادق والمدافع الرشاشة مخبأة في أعشاشها داخل الثياب كالسجاج الرافد على بيض يتكسر، والقذائف العمياء على أهبة الانتلاق بدون تقاض مع الصدور أو الاكتاف أو الأدمغة أو القلوب فإن نفذ الرصاص فالخناجر والسكاكين والسيوف مبروعة على السيقان والزنود والسواعد غير بائنة، هكذا هو كلما نوى رؤية أولاده في يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة وهكذا زوجته في الأخرى كلما نوت أن تأتيه في مريضه السري بالجيل تحت نفس الحراسة المشددة...

في «خرابة» يا خال مطرود منذ ما يربو على عشرين عاماً، ومحكوم عليه بمائة وخمسة وسبعين عاماً من السجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة مع أن عمره كله لم يبلغ الأربعين بعد، حيث إنه قتل أرواحاً لا حصر لها، في معارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نهج خلالها في ترحيل أبناء عمومته إلى بلدة أخرى، مكلفين شربه بالبعاد، ونجحت الحكومة في أن تسكنه الجيل إلى الأبد كبديل عن السجن، لكنها - لؤناخة مخها، لم تقطن إلى أنها عينته إمبراطوراً على الجيل وعلى البلدة كلها، فمن يتحكم في الجيل يتحكم في البلدة. على الدوام: حاكم الجيل هو حاكم البلدة، وإن كان لها عمدة وخبراء يسندهم عسكر ومأمير وحكمادريون ومناقب لا حصر لهم، البلدة، والبلاد المجاورة كلها تصب «خرابة» لأنه حماها من لصومس ومن عائلات متجبرة كثيرة كبيرة قطارد

الصوصم حتى محاسنهم، واستبقى أرجلهم، قلوبهم وضميرهم أرجلهم، فصاروا من خلسائه، أما العائلات المتجبرة فكسر أنفها، يفرض عليها القفرضة تنفعها عن يد وهي صاغرة: تقول سبحان لله والحمد لله. اسمه «خرابة»، لكنه سخي جواد على رجاله يخطب لهم أجمل الفتيات وأغنى الستائير يكلف لهم ولهن أعراساً نارية حافلة يرقص فيها الخيل ويرتج القوم على المزمار والطبل اللبدى ليالي بطولها حتى الصباح، لهذا تمشي كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يا بوى، ولو جئت للحقيقة لقلت إن شبان البلدة كلها بالفعل من رجاله، يخدمون تحت امرته أو إمرة زوجته، أولاده صعلابه، حتى من يشاع عنهم أنهم من رجاله، لهم في صدور الناس مراتع وفي قلوبهم مدافئ وفي رحابهم خيرات. ويل المرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة» وينسق معه كل شيء، على المرشح أن يتنكر حتى في زى امرأة ظبوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة» ليسد نفسه بين يوم أو أكثر قد التقي بامرأة مثله أو كهلاً طيب القلب أو شحاذاً غلباناً أو برويشاً أبله يتكلم معه باسم «خرابة» كلاماً لا ترد فيه سيرة «خرابة» على الإطلاق ولا شربه يتطرق باسمه. إنما هو كلام من الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عصوم الناس في كل مكان دون أن يثيروا شبهة ولا قبلة، ولكن المرشح يعرف بعد لحظة الانفضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا «خرابة» بذات نفسه، والمرشح مهما كان شريفاً أن يكون غيباً أبداً فيبلغ عسكر الشرطة والمباحث ليقبضوا كميناً للقبض على «خرابة» لأنه لو فقد عقله، ففعل ذلك، فإن مذبحه

سيملو أوارها في الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تشتم ريحتها في المحيط الجبلي كله. ولذا يفعل المرشح ذلك وهو يبنى نفسه برضاء «خرابة» ليفوز بالقزكية، فلو فاز - ولابد أن يفوز ما في ذلك ريب - فآء ثم آء على التعميم الذي يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة، الثالث يتعهد بيته وبين نفسه بالمعهد الذي قطعه على نفسه تلميحا أو تصريرا مع «خرابة» بأن يظل يحمي أهل الدائرة، فكيف يحميها يا بوي؟ يعني أن يظل يهاجى عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقاط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتفولت المدن يظل كل مركز شرطة يحتوى على مجموعة كبيرة من البلاد يحار في حكمها الفرس والروم يا بوي، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثير من المتلاميذين المتفلسفين جلايى المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطليه المرشح لكي تبقى دائرته مجرد ضيقة يملك ثلاثة أرباعها على الأقل. لمعظم الناس هنه إنن أجراء. وكان «خرابة» يعرف بلفظنا أن المرشح يخدمه بطلاء الفول فكان يلف عليه من وراء لوراء ويطلب ومساعدته لإسفال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شيان كثيرين في الدائرة يدينون له «خرابة» بفضل إلحاحهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية في المستشفيات وكتبه في التفاتيش وملاحى أنفار في النوسايا، هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطايرد آخرين عتلات من حكاهم الجبل؟!..

«خرابة» هذا كله يا بوي، جاء يقطب أختى «سعدية» فيا لها من أمة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمين عرف «خرابة» أن لي أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجته أم أولاده المجدع التي لم تفرط في عرشه قط، ولم تكن أقل شهامة منه! دعنا من هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التي ربما كانت ثقبنا غائرا يا بوي: كيف تعرّف «خرابة» على أختى؟!..

وهنا غاضت الدماء في وجهي وارتفع دق الطبول في قلبي، لكن أمي كانت أسرع من بقات قلبي، إذ قالت: «كان خرابا نازلا في العيد القلائت في نغيشة الفجر مستنكرا في زى درويش عبيط، فوآءا خارجة من الدار إلى القترصة تملأ البلاص وهي تتدلع في اللبس على راحتها فلما منها أن الطريق خالية، فوآءا، لمسمرته، فسال عنها، فقلوه، فبعث يقطب منا عنوانك في مصر ليفاتحك في أمرها، فاستمهلناه بعض الوقت زاهمين أنك هاند في القريب العاجل».

الصدق كان واضحا في نبرة الولاية يا بوي، فلم أشأ أن أصديقها أو أكتبها، لكنني قلت على سبيل الاختبار وإطالة مهلة التفكير: «وهل توافقين يا أم على أن تزوجي ابنتك على ضرة» . شوحت بيدها قائلة: «يا خويه! النبي عليه الصلاة والسلام أتزوج أربعة، ولعنا في نيك الساعة! لما تبقى من عيلة خرابا! وفي عزوته» وجدت نفسي أقول لها: «على بركة الله يا أم مادمت

تريدين هذا فلا يحق لي أن أمانع! مبروك على سعادته هذا العريس
القشيش! ولكنني يا أمّ لن أكون من رجاله في يوم من الأيام! فما
أظن أن لي لقمة عيش في الجيل بعد أن شفت بعيني حلاوة الدنيا
في البندرة. قالت الولية بقروغ يال أفزعني والله يا بوى: «يا عالم!
يا ترى من يعيش!» لكنني صحت من ورائها في ورع «على وأبك!
يا ترى من يعيش!» والله كنت في قرارة نفسي قد بدأت بهذا
النفس الثخين.

الثانية - عرس القصر

تحلف اليمين يا بوى أن مخي يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة»
سيصبح زوجا لأختي «سعدية». الخوف كان يجري في مفاصله،
فهذا رجل من عشاة المطاير، فكيف ينتهي له أن يقيم نكاحا لنفسه
كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم، أنا طبعاً
لست أقبل أن يدخل على أختي بدون فرح حتى لو وافقت الولية،
بخول المروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبي والغتصاب
وعار. ستكون القضية بهلاجل وشغائل، ستقول السنة السوء
إن في الأمر سراً آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويثلمسون
الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم في نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم، لا،
لا، لا، يا خال، كل شيء في بلدنا مقبول ويمكن تبريره إلا العرس
بدون فرح تلطع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء
بالنقر ودوائر الأتفاظ..

لكنه «خرابة» يا بوى والأجر على الله، فالرجل الذي دوح
الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له. صدق أو لا
تصدق يا بوى أن عرس «خرابة» على أختي «سعدية» لم يكن له

ضريب في النير كله، لقد رأيت من الأعراس كثيرا، فلم أجد لهذا العرس أخصا. إذ خرجت الوفود من لدن «خرابة» في المسر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته وإتاوته، فأبلغهم خبر الزفاف وموعده بالساعة والبقية: ولم يكن من بين كافة المدعوين وغيرهم من يجزؤ - أو يقلل - أن يبين الحكومة حتى يبقى العرس في نظر رائيه مجرد عرس كبير والسلام..

يوم العرس اصطحب رجال «خرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الاسورة للمعصم وأحيط دوار العمدة وداره من غير أن يشعر هو بشيء، ولقطعت أسلاك التليفون على الطرقات ليصبح التليفون في دوار العمدة جثة هامدة لا تلع فيها، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات، كل هذا حدث في أول النهار فما كاد العصر ينطق حتى وأفانا أهل المزمار والطبل البلدي، ثم أهل الفراشة، فنصبوا السرايق الكبيرة المهيول، وأقاموا منصة لرقص الخوازي بعيدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العصر فوجئوا بزيطة وزمبليطة في الوسعاية أمام دار «خرابة» وأمام دارنا، لتطبل يمدح والمزمار يزار والغنيول الأصيلة ترقص تحت الرجال تغزل الأعاجيب. أما دارنا فقد امتلأت لثمعتها بالنساء، وكانت الماشطة قد جفت أخفى «سعدية» وجعلت منها عروسا بحق وحقيق، زادتها جمالا حتى خيل لي أنها :

آخرى قابضة من القيندر، ولحظتناك استخسرتها في «خرابة». ثم عدت فقلت لنفسى: إنه رجل وهى تستأمله..

راحت طلقات الرصاص تدوى محلقة في سماء البلدة كاسراب للعصافير الضميمة، وكان العريس ذاهيا يستمع في دار خاله قبلى البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، فنطلق سوكب الزفة من دلم الخال فلف البلدة كلها ساير دابر، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» في قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع ياس ورأسه كراس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة في عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين حثريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير يقبل كيز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديري، فالشاة ذات الأكمام، والمطر يفوح من صدره، فإذا رفع يده بالتمية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير تكاد لا تبين في فراغ كمه الواسع، تنسدل ثيابه حتى الأرض فتغشى قدميه الصغيرتين..

كأنت هذه ثانية مرة أرى فيها «خرابة»، أما الأولى فكانت قبل ملك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا ليل كي يخطب «سعدية» منى ومن أولاد أعمامى الفقهاء، ويقبضنا مهرها: مائة وخمسين جنيتها أخضر من أهيف القد معشوق القوام. وفوق ذلك، يأمر واحدا من رجاله بتشغيلي حارسا لواحد من معارفه القبط في

بأداة دأبو حجره، فنقذ أمره ثاني يوم، ولستمت للشتل والعريون، فكان ذلك شيئاً جميلاً من «خرابة»، جعلني أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول وليست أجساداً وأموالاً..

خرجت «سعدية» من دارنا في زفة كبيرة تتقدمها الدريكة والمغنية، وهذه تتقدمها الزغاريد مناسفة لعلعة طلائع الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التي ابتناها خصيصاً في بضعة أيام، أجلسنا العروس في الحوش فوق كرسي عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التي بدت أخطر منها، وبجوارها، من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «سوفية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض. والمغنية شغالة والنقوت يرف عنيها من كل امرأة وصبي. في نصف الليل وصل العريس فنسل على عروسه والمزج شغال في السرادق رقصاً ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمى والبنات يلقون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالحرمة البيضاء. وقد ثبقت بدم الشرف العالي، صار أولاد عمى الأشقياء يلقون ساخرين «إن كنت غشيم اطلع بره» فما كادوا يتحون غنوة استحيائه، حتى دوت صرخة سريعة مفاجئة مقطومة، دوت في أحقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة الحرمة بين يديها كالعلم، هاتبري النسوة يغنين: قولوا لابيها لقم بلّ الفرشة! قولوا لابيها يروح بقي يتعشى!.. بعدها خرج العريس لنحية المعازيم وحصر

النقوت، وكان القادمون من صلاة الفجر العائدون من العرس فيسلمون على بعضهم البعض في فرح.

عنت الليلة على خير يا بوى، وفي اليوم التالي وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شهراً كاملاً يا بوى و «خرابة» مختلف في داره الجديد يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيقتها، وكلما ارتفع صياح في أي مكان في البلدة، جرينا نستطلع الخير، وفي يقيننا أن الحكومة وصلت وقبضت على «خرابة» من حضن عروسه فلما أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالمادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل. فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا في ستر الله.

الثالثة - زمن الولاد

جرى القرش في يميني يا خال وطابت لي الحياة في الصعيد حيث الرجل الذي أخدمه يكرمني أشد الكرم. ولست أعرف إن كان إكرامه لي أنيسا على أم خوفا من «خرابة». لكنني مشيت في البلدة مرفوع الرأس متفوق الصدر يا خال الناس يشيرون نهوي من طرف خلفي قائلين: هذا صهر «خرابة».. فيعتدل السامعون في الحال يسيرون نظرتهم لي، يختلف تعاملهم معي، سعى إلى مصاحبتني خلق كثير، أصبحت أعزّم على اللقاء، والمشاء، والأفراح كل يوم في كل مكان، لا أبخل إلا بعد صلاة الفجر..

من بين من صاحبتني على حس «خرابة» ولد مسجد اسمه «مليل» وأبوه سلاح من نوى الأملاك يدعى «يوسف النجار» حلز التقاطيع كابنه مسمم للامح، عثرى اللسان رقيق الكلام. الولد كاتبه، ولا خلاف بين الإثنين حتى في مظهر الصغر إذ أنّ الأب يبدو في سن أبته مع أنّ الولد في العشرين من عمره باليوم والساعة والدقيقة - كلاهما يرتدي ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سواء في الصوت أو في الشكل أو في طريقة الكلام.

الوالد يضع يده على مساحات كبيرة من أراضي طرح النهر في أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولد إلا الصعي في بيع الحاصل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفي المواشي الصغيرة السن نتاج زربية كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد: ولا كل ولدان يأبوي، كريم، سخي، جواد، يكسب كثيرا مع أنّه زاهد في الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذ يصرف بلا حساب، وهو في غاية الاستمتاع لرؤية الصعاب مسرورين بسببه، كأنّ مؤمنا يؤذي القرش بفرضه، يفكر في طلوع الحجاز غير أنّه يؤجل السفر إليه حتى يشون الأولن. كما يقول: والأوان في نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يؤق في أنّه قادر على احتمال مسؤولية الحج، التي هي ليست لعبة يشتريها كل من معه المال: ثلعت الصلاة تقليدا له لا خوفا من الله، وراظبت طيها حبا في أن يربطني الناس بصاحبي «مليل» حين يستدعونه، وما أكثر ما يطعلون.. فكانوا يروفتي معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معي كلما ذهبت للسهر في مكان بعيد أشرب فيه المشيش، غير أنّه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستمر في الدماغ..

يفضله - مليل يا بوي - انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تعمل سفونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشي: نذخر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلات. قل يا بوي إن مسموبيتي له

وهليل، ولد «يوسف النجار» صارث حديث الناس كلهم. وصلت
على حبر رواج محرابية من أختي «سعيدة»

من طيبة قلبي يا بوي لم أفهم إلا مؤخرًا، كنت كالأطرش في
الزقة أدهش من اندفاس الناس فهذه الصعوبية إذ كانوا يقتنون
عما يكون ووردها من غرض، أما أنا فأسحر من رماية معهم.
وأقول في كل مناسبة إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لأخر
هو في حد ذاته شيء يقوم في النفس من غير أن تعرف النفس
ماذا قام.

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوي، إذ فوجئت
بصاحبي «هليل» يعرف نفسه - وأباه - على الفشاء عندنا في يوم
أختاره أنا قلت متدفعًا بكل حماسة «ولماذا لا يكون ذلك الآن يا بوي
العم؟ تظن أننا نعطي نفسك مهلة نستعد فيها لضيافتك؟» واه
ياخال! طلاق بالثلاثة من ذراعي لتجيش اليوم أنت وأبوك وكل من
تهواه مرافقا من العائلة، قال «انتظرونا ليلة الخميس القادم بعد
يومين». قلت: «وماله؟ يا تلتصيت مرحبًا» أبات لولية أمي بالحبر
لما شترت جدي صغيرًا نحرته وشوته. واشترت ففصًا من الفاكهة
من سبط البنائين، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا،
ودخل صاحبي «هليل» صاحبًا أباه «يوسف النجار» خففه، فلم
نعرف من فيهم الأب ومن الابن. كنا قد فرشنا وسط الدار كله
بالحصير والمساند، فجلستا جميعًا نتحدث في أمور الدنيا
وأحوالها. جاءت الطليعة فتوسطتنا، من فوقها للصبيبة المحاسية
الكبيرة - صبيبة العشاء - وتوالت أطباق الشورية، واثريده

وأكرام اللحوم المسلوقة والشوية والمقلية في السم، فاكلت حتى
بشمتنا من النعمة. وجاء بالمطبخ والإبريق، اللذين استماتتهما
أمي من دار عمي الشيخ الكبير من آخر الحارة، قاعتسلنا وحمدنا
الله. وقبلنا أبيينا ظهرًا لبطن شكرًا لله على نعمته، وجاء بالوابور
وبعده فشاء، وجعلنا نفرغ السجائر، وشرب الشاي، ونقول
التكث والتواتر مصحك على العارغة والملافة، ومحبوبك، يلهو
وفي الباطن لا حد لاشغالي وقلقي من سر هذه الريبة في
الظاهر وكانت الولبة أمي، لذكائها، تروح وتجيء من بعيد لبيد،
تنسقط الأحبار، تتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وفتت وتكلمت
بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصوب، وحسن التربية ففهمت
أن أمي فقتت القولة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار»
جاء بولده «هليل» للحديث في أمر ترفع له الزغاريد مبنوية. عندئذ،
بدأ الموضوع يور في دماغي يا بوي، قلت بنفسي أقطع ذراعي
إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يحطب أختي «هندية» لأبيه
الوحيد «هليل» صاحبني العزيز، وتذكرت أمي في حضور سابق
للصعيد رجوت اثنين من إحوتي بعبء واحدة، رغروبة في ذيل
رغروبة، فتبقى قلبني في الحال أن هذه الفرحة ستكرر اليوم
أيضًا، وأنتى في هذه الحضرة سأستمع إلى الرغروبة الرابعة في
حوش دارنا، ولن يبقى في الانتظار لأي سوي رغروبة لي بعد
وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والصميب يابوي.

رقم قلبي والله من الفرح لأنني رأيت الوند والبيعة لاثقين
على معضمهما آخر تمام، ثم زعلت بيني وبين نفسي يا حال الولد

إن كان يصاحبي من أجل هندية، وليس حباً في شخصي،
كاد الغضب يعصف برأسي، فجاءني خاطر حديث يدور على
رفض طلبه - إن طلب - احتجاجاً على عدم اعتباره لي، حيث كان
يجب أن يكلمني من الأول ليخبر رأيي قبل المجيء ليخطب. غير
أنني لم أقدر يا بوي، فأننا أحب الولد، وما حدثت أن عثرت على
صاحب مثله يحزني ويودني ولا يبخل على شيء.

- وأخيراً تكلم يا بوي فإذا به صامت من قرط الحجل

واعتمد في قاعدته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدت عليه
الصبرة الكبيرة، وفي كل مرة يشرع في الكلام، ثم يسكت
ويهتلق موضوعاً آخر يهرب إليه فلم أطلق صبراً يا بوي، وإذا بي
أباده قائلاً مع ابتسامة مرثشة: «نفسك في كلام تود قوله»،
فإذا به يرفع رأسه صامداً، ومع والده: «عندي كلام معهم جئت من
أجله».

صمت فيه يدورى، فله يا بو العم ولا فطعت مراوتي، فاعتمد
قائلاً في خجل: «أهلاً! صراحة! أنا مكسوف»، وقص قلبى من
الفرح، والشفق. فشروحت قائلاً: «إن دج والدك يتكلم ميادة عنك يا بو
العم، فإذا جئت به إذن! ليس ليتكلم نيابة عنك يا بو العم».

إذا بالولد «هليل» يتكلم ضحكة في صدره، وإذا سامي ينفخ عليه
الحجل كالفتاة، قال صاحبي: «شف يا أبو علي يا صاحبي! الآن
تتمكن الآية أنهم قولوا! يعني أنا الذي جئت لآتكلم بالنيابة عن
أبي، تعجرت الابتسامة على شفتي، وشف وبقى، قلت: «كيف يا

خال»، قال صاحبي بشجاعة سريعة «صراحة! يا بو العم! أهلاً
الحكمة! إن أبي يطلب القرب منك في أخذك هندية»، ثم تسكت قائلاً
«أهلاً وسهلاً! يا مرحب بيه» توديهما لحد الدار!، فانتفض الرجل يا
بوي كللسوع من عتوبه، كاد يتسط كالأطفال، يملأ الدنيا رثيلاً،
ثم قال: «إذن أسمعونا لفتاة».

قلت: «هنا قليلاً! فالمرس نفسه ليس فرحاً هكذا مثلك»، فإذا
بالرجل يجهد حيله في الحال ويتنفس من سلامته، وإذا
بصاحبي «هليل» يشوح في وجهي بحديث كبيرة، «أعني يا
صاحبي! إن المرس هو أبي».

تخشب قلبي يا بوي، قلت «أبوك بدأت نفسه! إذن! هو الذي
يريد أن يتزوج من أختي هندية»، رد بكل مساطة وقد ازداد جراً:
«ومانا فيها؟ سيدفع للنهر الذي تطلبون بدون مسدودة»، أهدت،
والله، أنظر فيهما معاً، نظرة عليه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أمير
فرقا بين الوجهين، كلهم إلا بعض تجاميد بسيطة لا يراها إلا من
يصدق في وجه الأب، فصبرت من شدة اللوعة والهرج أضحك
يصوت راعق، فلما رأيتهما يظفران لي في كثير من الغضب، قلت
أن أحسر صاحبي، فصرت أردد «وماله» نحنا يريدنا شرفاً من
إدكم حسنة.

تعدت ناحلاً على أمي المتقرصة خلف باب القاعة تسمع
الحديث فلما انفردت بها، لتخبر أضحك في عبي، حتى كادت
روحى تخرج من الضحك، فرغضني الويبة، وقالت بصيح عاصب.

وبخضعت على إيه يا ولد؟». قلت: «إني لم أعرفني الأحمر يا أم». قالت مشوكة «عرفت كل شيء وسمعت كل شيء» مصنعت دموع الصبح وقلت «فما رأيك إني يا أم». تحلف اليمين يا بوى أن الوليدة كانت تطير برجا من دماغي، إذا بها تقول بكل بساطة: «حير وبركة! هل نظرت يا ولد؟ رجل عسى ومله هبومه كهنا لا درهسي به؟» فمن درهسي إني؟ «عكرت قليلا وقلت: «يا ولية إنه كبير في السن، وبه رجل كبير» قالت الوليدة «الذي محمد عليه الصلاة والسلام نروج سقنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو في بحر المسحس» هذا الرجل لن يريد عى الحامسة والثلاثين! لقد نروج وهو صغير فأنجب وهو صغير إنه الآن في عز شبابه ورجولته تعرف يا ولدا! لو كان الذى سمعته أبنتى هو صاحبك هليلك ما فرحت كما فرحت الآن بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما على وحام! قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فصاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيسعها فى عبيه ولن يتزوج عليها أبدا! افهم كلامى ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور خاطر»

طب ما رأيك يا حال أمي قليت كلامها فى دماغي بسرعة فوجدته حكيما مورونا مقنعا؟ أى والله يا بوى، هذا ما شعرت به فى كلام الوليدة، فقلت لها «صدقت والله يا أم». وطلعت على الضيوف ابنتهم بعدق هذه اثرة قائلا «مبروك عليك يا عم! عشنا وشغنا الأولاد محطوبين لأنهم»، وصمرت حدى معو صاحبى راميا إليه نظرة عذارة ملكرة وقلت «أنت إذن كنت تصاحبنى من

أجل هذا الغرض يا بوى العم! تشكر على كل حال! ميبنتى لكى يبط ليوك على ظهري فيدخل دارنا يتزوج أعر باتنا! طب يا أمى كنت تعال دوعرى من الأول! ما كان هناك ناع لار تلف عى وتصاحبى فأتوهم فى نفسى أننى وأحد جدير بالصعوبة، فهرب صاحبي من نظري وغرق فى بحار من الحجل، والعرق، والأحمرار صارت الابتسامة المحجونة ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التكفيريين على أيامكم هذه حين يحميها الرعاش، وصار يقول «أبدا، والله، يا بوى العم! أنت أهر صاحب لى العكس ما حصل، والله، يا حوى! أبى هو الذى ميلس يبط فوق ظهري من لحظة ما علم أننى صاحبتك صار يشجعنى ويفربنى ويمدح لى فيك وفى أعمالك الفقهاء الكبار حتى صورك بي ملاكا دارلا من السماء فاهيبك كل هذا أذهب يا حسى! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيدا» فانبسط قلبى من هذا الكلام يا خال، وافتتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهم ياكيا، إذ إسى لم أكن صدقت فى حياتى من يصبى لله مثل هذا الولد. ولما شعرت بسعومة الدمع فتعذر على حدى مسمتها بكم جلبابى ميتسما أقول: «هلاص يا عم! براءة! براءة براءة» انبسط الرجل هو الآخر آمر ابسط، صار ابتسامة كبيرة تيك الدم وقال: «أترك وافقت إكراما لى أم للولد الذى جاء معى!!».

أعشقتنى أمى من الرذ، إذ بانست فاشقة «من أهلك طبعا يا زين الرجال! يا أميل! يا سيد الناس! أسرع الرجل قائلا كأننا

يخشى أن يرجع في كلامنا: «اسمعونا الفاتحة من أجل النبي»..
 فرأعنا أكفنا جميعا، واندمجنا في قراءة الفاتحة بفرحة صادقة.
 صدق الله العظيم. حيث شد مال «يوسف النجار» بموي هامسا:
 «شف يا وادي سادف مبرا ضعف ما دفعه خرابة مرتين! أفهم
 كلامي لست أتعدى خرابة فهو حبيبي! إنما أنا أحب العروس
 وأعرف قدرها». قلت مع أمي في نفس واحد: «يكفيكنا شحمك يا
 رجل، معن لا نتأخر بيناتنا»..

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوي،
 حضره كل من يمشي على الطريق. وبقي هذا الزواج حديث اليلة
 شهورا طويلة يا بوي، وحياتك جاءت أعتى «سعدية» لتضمر
 عرس شقيقتها «هندية» كانت حاملا وبطنها كبيرة. وحينما ذهبت
 أختي «هندية» لتضمر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا
 وبطنها كبيرة. أما أنا فقد بت أمشي في سبيلك بكامل حريتي،
 أضرب عصاي، وأجرى وراءها، شاعرا بأنني أحيرا قد تنفست
 من جبل من الهشوم كال يتكم أنفاسي، وبأنني قد أن لي أوان
 التميم.

الرابعة-يوم الهول

قلت إنني لن أكون من رجال «خرابة» ذات يوم، وقد شهد الله
 على قولي يا بوي، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يا بوي،
 وأتسلها كالصاير تنعشق البرح، قدوب في هواء، أما غير
 «خرابة» يا بوي «خرابة»، في الأحص، يعشق الجبل عشق. ومنذ
 كان طفلا صغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجبل، في «جبل يحد
 متسعا لضاجة النساء والفتيات الساقطات وزحفاء المسروقات
 وكل شيء. كل يهدم الطاريد خدمات كبيرة، فهكون لهم مراسلا
 إلى سائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحوسين في دوار العدة،
 يشترى لهم الطلياب فلا يطلب أجرا عن أي خدمة، فأحبوه
 وبشروا عليه حمايتهم. قل إن «خرابة» بشا وتربي في الجبل، فلما
 كتب عليه الحظ الأغير أن يكون منفي مطرودا من الحكومة في
 الجبل لم يكن في ذلك أي عقاب له، بل إنه لو سجن لهرب من
 السجن إلى الجبل، بل لو تركوه حرا في البلاد يهرب من الحرية
 وجاء يسكن الجبل، معن يا بوي، فالجبل غرامه الأوحده، وهو
 يعرف كل شعر فيه. يعرف كيف يتحل من هذا، يهزج من هناك،
 بوي لن يذري أحد من المراقبين، يعرف كيف يتوه مطرديه توهاما

لا سرقان منه ولا اعتداء إلى الأبد. بعض مطاريه من المخبرين السريين وضباط المباحث المغامرين ظل يخبرهم بمطاردته، سهلاً بهم أمر القبض عليه بعد خطوات قليلة حتى دخلهم إلى عمق سحيق في الجبل يبدو كأنه المغارة وهو مجرد طريق إليها طوله أمددة وتتخلله صخور كثيرة من كل حجم وأتربة، مصفوفة لأبد من صعودها، وكومة أتربة لأبد من خوضها وصخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذاً كالبرج لا يعبه إلا من كان جسمه كجسم العرسة لكن «حرابة» يسلك فيها كفتح البصر، أما مطاريوه فقد اختارهم الصرع والصرخ والحمى والصرع فرجعوا ينحيطون شهوراً، يتحدبون في السراييب، حتى ماتوا، وتمصقت جثثهم، وأكلتها دئاب الجبل وظهوره الجارحة.

دعة ودين يابري، لقد ماتت الحكومة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرمت ارتكابها لهذه الفعلة الضميمة مرة ثانية كل هذا و «حرابة» أيامها مجرد شاب صغير السن لم يلق في الإعدام بعد، كان لا يزال مجرد واحد يعيش حياة الجبل بين المطاريدين الذين يطعمونه ويأسرون قلبه بشجاعتهم وتعديهم للحكومة وللعائلات الكبيرة العظيمة لم يكن محتاجاً يابري. وهذا هو العجب دعة ودين يابري، أن أهله بأس مسرطنين كل الانسلاط، والعمدة كان منهم ذات يوم العمدة كان عمه لرم، وكان «حرابة» مرشحاً للعمودية إذا مات عمه تشاء الصدق أن يموت الغم ميتة رياضية و «حرابة» سارح في الجبل لا يعلم، قلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لحة العمودية قد طبعت في المديرية لتأكلها عائلة شيخ البلد الكبيرة

لأعداد والأتان والدواب. قما كان من «حرابة» إلا أن ركب حصانه الذي يسميه الأدهم - على اسم حصان وعتر بن شداء - وتضيق سيقه وتجنحه ويندقيته التي هي في العادة من آخر طرار وصل إلى الجيش انصصري. إذ أن سعاصرة السلاح وجلايه لا يبدأ لهم نشاط ما «ق» هي للجيش دقع من المجندين أديهم قريسة من محارب الأسلحة مز «حرابة»، يوماً من الجبل يتحدر فوق ظهر الأدهم، وحلقه أربعة رجال شباب على أربعة أمراس شداء، كل رجل مفرس جاء من طرف أحد المطاريدين الكبار مجامعة «لحرابة» ومساعدة له على استرداد حقه في العمدة - كان قد سبقهم ولد من الأشقياء. قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد الوقت بعد صلاة العشاء، وقد كمن الناس في دورهم مكششين في الدفء وكان العمدة الجديد - شيخ البدة سابقاً - قد نقل التليفون الأم من دوار عم «حرابة» إلى دواره وجلس بين رطل من أصصابه وأنداء عموصته يشربون الشاي ويتحدثون في أمر جوهري مالمسبه لهم كمائة. إذ إنهم عائلة ثقية الدم يا بوي، لو جس واحد منهم على جبل لثقت عيشه وبكالا، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم حق المتفرقة يا بوي، وهم أول من يدركون أن حق الله، كلهم يشنون روالهم من اليهود غير أنهم لا يسيرون منك، ولهذا كل حديثهم تلك اللحيلة يصب على هذه النقطة وحدها، بوصور العمدة الجديد بل يستقوي ويجعد قلبه وإلا هزات البدة به وبهم وصاعت منهم العمدة هدراً وكان العمدة الجديد يدب .

في تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد. إلا وهنيل الأفراس
يجلبج في الحلاء أمام الدوار، فسرعزت القعدة وتكرمت فوق
بعضها تشماور، وقصر منها من يرى الخير ثم عاد، وقال إنه
«حرابة» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له. فلما سمع العمدة
ذلك استقام عوده من جديد، ومشى الدم في عروقه، فبهس وألفا
مظهراً علامات الترحيب والسعادة، وبهس من حلقه بقية الرجال
ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب
الشارع حيث يقف «حرابة» ورجالها يفراسهم وأكبيج. ريك والحق
ابستاء العمدة وانكروا في نفسه من أن «حرابة» لا يهزل عن
الحصان في مواجهته لكنه ابتلع غصته وقال «أهلاً وسهلاً انتضل
يا رجب وانسرب الشاي أو تناول المشاء» فقال «حرابة» «أما
الأكل والشرب فقد صلت به بطفك في غيبتي» وطلعت أن الطيبة
في المديرية وشرفها الحكسار بتحريط لبيصل وغسل اللحم
وحصر الضماطم يمكن أن يجهز الأكلة شهية، أو أن يبعيك الله من
صاحب الحق الذي أكلت لحمه! لكنني - وحق سكنائي في الجبل، لن
أدلك تهضم هذه الأكلة الدسمة، فاما البقية لأجبة من اللصة التي
أكلتها اليوم مطبوخة، ولو لم تكن غرا لعفوت منك وباركت لك
حقاً! لكنك أثبت غدرك ولزمت فلم تصبر على حشة عني حتى
تترطب من سحوبة الموت في قبرها» فنقلت التليفون إلى دارك،
وهو الآن جثة هامدة! وسمى لأعرف أنك تعرف أبي رجل ولا كل
الرجال. فكيف إنز تجرأت على حيانة الميت وتجرأ على حياتني
وأنا حي؟! »

ومع العمدة من طوله يا جال، صار ينظر حواليه يستجد بأي
واحد. لرتقع صوت يرطمة وهلصمة وصوت رقيق وتهليل من
لحلل الدار، ورأى «حرابة» شيخ بندقية ترتقع ماسورتها من
مطلة عظيمة في حوش الدار تستمد لتتشبين عليه بعد بركة
قصيرة فسحب في الحال مدفعه الرشاش وشر على ماسورة
البندقية بطلقة طيرتها في الهواء بدنا، وطيرت حلقها صرعا هائلا،
ثم حول وجهة المدفع نحو صدر العمدة فأفرغ فيه، وإلى حشور
الذين حوله فأفرغ فيهم صارت الجاث تتساقط وهو يتفوض
بفرسه فوق الجميع رائثاً غادياً ويدفع الرشاش يصب النار في
كل اتجاه، ومن حلقه الفرسان الأربعة يصولون ويهرون في كل
من يأتي من عائلة العمدة فلب نقد منهم الرصاص، جردوا
سيفوقهم، وأنهاروا فوق الرقاب تقطعها وتفرقها كانوا يلففون ذلك
وهم يلون أضيائي الأفراس لتمضي بهم في اتجاه الجبل، حتى إذا
ما تملكو الحلاء، انفرجت أرجل الأفراس من آخرها تسابق الريح
طائرة، حتى انحقت تماماً في الجبل، ولما تلك الليلة حصرت عائلة
العمدة حسانها فكل عند الموتى عشرة رجال أشداء من بينهم
اثنان من أولاده وثلاثة من أولاد أحميه والباقى من مؤيديه
وحفرائه، أما الجرحى وفالقو الأطراف وذوو العاهات والمستديمة
فكثير عددهم. وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلد سابقاً

حكاً مالك، «حرابة» كان يعلم ويشق أن البلدة كلها ستكون في
مخه كرها في هذه المائلة وحب في شجاعته وهبة أهل عائلته
وكان وثاقاً لذلك أن شيئاً لن يحدث له في هذه المعركة

هذه عندك أياما وأصبحت الجثث منكومة تتخبط مجيء النياحة والحكومة بعد دهر الجثث والتحقيق مع بعض الحلق ممن شهدوا الواقعة انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها الجب ترعى بشدة وتتسلق صحور الجبل كالفقطة المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهي تصوح في أحشائها فنصتني من سموحه وتظهر ثامة على صحوره ومحيطاته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون ملل. فيحضرها عاد إلى البدة لاهثا وبعضها لم يجد مهائيا وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست هربات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فمع بعد منها سوى أربع وبقيت الحكومة شهوفاً تطلق عصبات من الرأجلين والراكيبين والكلاب الضخامة تلف الجبل تدخله شق شقا وفي النهاية عادت كلها مفسرا كبرر مبيير مؤكدة - ويا سمعج - أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوي؟ حقيقة الأمر يا بوي أنهم حكموا على الجبل من منظره الجردى أقصد من طرقاته السالكة الراضعة أما سطوحه وشعبه وبحاره الجافة وشقوقه ومفارقه السحرية وفلاجه المدهونة فيه من أيام المراعين فليس يعلم أحد إلى مراقبه وإن فطر بالصدفة فليس يجزئ على الاقتراب منها. وإذا كان معهم كلاب ضخمة ففي أعناق الصحور المنكومة كلاب أيوها دشب لا تعرف ربا. أما إذا هيا لهم جوبهم إطلاق الرصاص فسيبهال عليهم وأن من كثيران من أماكن خفية في قلب الصحور

دعة ودين ما خال أن العربات الجب التي لم تعد من الجبل يومئذ بحثت عنها عصابت الأهالي المتصلين بحياة الجبل ففرغوا أن المطاريذ قد اعترضوها وأسروها وخبئوها في أماكن سرية ليستخدموها في أغراضهم الخاصة تنفع في جلب المصدرات وتوصيل الطليات والحرب مع الحكومة.

قل إن الأوضاع استمرت على ذلك حوالي الصور يا بوي. وكانت عمدة القادة قد انتقلت إلى «هردي» ود عم العمدة القليل، فهنا يسايس الناس، يأخذهم بالثبير، يقضى بهم مصالحهم، بدون مقابل، لكن أهل البدة، مع ذلك، كانوا يتحسبون للندانة المتأصلة في سلة، فلا يصدقونه، ولا يقتنعون به. ولقد ذهب الرسائل إلى مغربها، في الجبل جلى العمدة الشباب يسايس الناس في الظاهر، ويدعي الأمانة أما في الباطن فإنه لشر متاعص فيه ينوي الإيقاع بالبلد كلها في قبضة الحكومة، يجعل الحكومة هي اليد التي ينتقم بها، إذ هو يستقبل كل يوم ضيفا أفديا يقوم هو بإطلاقه على الناس مثكلها كلاما غاسضا عن «الحال» و«كوس» و«السمجرة» و«الجهادية»، وعن أشياء تنوى الحكومة أن تطرفها وتبنيها، أو تشقها، ويلزمها، ثعبا لذلك، أعداد وفيرة من الرجال، ومبالغ طائلة من الأموال. فيرتعد الخلق وينفرون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم، ودرا لثهم غامضة قد يتعرضون لها. والعمدة الشاب - حامل ابتدائية الأهر - فرح بهذه المناظر تحدث أمام مؤامره ومناظر الحلق يتصون من طولهم أمامه رعبا وزهبا، يتحولون إلى عبيد، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرفقة من هذه

الطرايش المعروجة على ناحية والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين في الزنارين يا حال.

لم تضي ثلاثة أيام على وصول هذا الترسل إلى «حرابة» في الجبل، حتى تهباً مندول في ظيوم الراح، فعلاً جيوه كلها بالطلقات البارية، وحمل مدلأى السيف سيمين وجنجرين وربط كل ملك في ثيابه للحكمة حول جسده رباطاً وثيقاً لكل شيء جرابه المحصور، ومنته فعل الفرسان الأربعة الذين باتوا من رجائه بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهنية منهم له «حرابة»، الذي سبق له أن خدمهم جميعاً خدمات كبيرة يا بوى، وبعد لصالحهم عمليات لم يكن سواء يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته نفياً «حرابة» بقبضه الجاهل كانه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة الفرسان الأربعة أحبوا «حرابة» حياً شبيهاً وسهروا على حياته وملذاته بإحلاص، ودرّبوا له همترات من الوثائق لا حمر لهم جبر، بهم يبيعول مسروقة فور ولايتها ورياسة على الفالي في استبلات الجبل العريضة بلا حدود، أما هو فقد اسكن الولدان في دور في البنية وفي قصور مبهوة في الجبل حسب درجاتهم في القوة وفي الصفاء والإخلاص المتين، بفضلهم كان «حرابة» يتعالى النور أحبداً إلى البلدة كل سوق ليمشى راكباً فرسه الأدهم معتزلاً جمهور الباعة في صلاة وكبرياء لا يهيه أن يهوى الفرس في سوبة بائع نعمة أو يدفع لكسيا متطلوساً فيرميه على الأرض معلقساً، ولو قام وشم فليس عشترات من أولاد الخلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصمعة لطافة إلى الدوامى الجطرين الساتريس خلف «خرلة» على الدوام على

شكل باعة سريره وناس عابدين طيبين لكن آه نو احتكوا بك أو احتككت بهم يا بوى قهرنتهم والقبر والعمياء باله يا حال - بفصلهم كذلك يا بوى كان يذهب مسافراً إلى مصدر نعروسة في مولد الحسين بن على سيد الشهداء وإلى طنطا في مولد البوى شيء لثه يلجو عرب وإلى دسوق في مولد الدسوقي شيء لثه يا أبا العيين. يمكث في أولاد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدرايش قصاصين لا يساورك الشك في مظهر وجهه البريء المشع ودقنه النظيفه والمسبحة المتبالية بين يديه كاسلاك الاتصال بينه وبين أوقات العلية. شيخ ومن حوله دراويشه يرتضون في معيته، رجل هو - أحبنا - من المشايخ السابحين في الملكوت لا بأس. إن للطاير لا تنقصهم الحيل يا بوى، وحيلهم كلها حاضرة، ولهم في تجمد قلوبهم وبرود أعصابهم بلاط ثابت يمشون فوقه بعزم شديد، دون أن يظرف لهم جفن يا حال، أسألتني أنا منهم يا بوى.

كان «حرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسته شخصية مثيرة بن شهاد، فأخذ يصيح ويحمر ويتحسب الحصار فيبرطع في المدى المتاح من الجبل ثم يرتد عائد وشمط بخصه كلاعب الكرة يمشى قبل مولده للسحب. أه الفرسان الأربعة فقد ركبوا هم الآخرين وأمدوا يصيرون في الولدان الذين سيمشون في الطليعة وأجلين أن يسرعوا فالوقت قد حار، وللشمس عطلت كائنات تكث في محاولة لاستدراج قوسها الأحمر الواقع بين سمامين متجاورين على ظهر الجبل متعاليين متعدين والقوس يصرخ بأعلى ألسنة اللهب، والافق برمته يكاد يتفحم بالسحب

السوداء، ومع ذلك فشرخة الهلال كانت كأصبع الموز واقفة على مبعدة قليلة في بطن الأفق البعيد وكان يتحرك فيبدو مثل الكنكروت يمزع شيئاً فشيئاً وقطر البيضة كمثل من السحب البيضاء المظيرة المتكررة. لحقتها صاح «حراية» قائلاً «قدامي يا رجال» فهبط فريق من الولدان المسلحين بالمطايير والسنج والقضبان الحديدية مهمتهم فتح الطريق واستكشاف غوامضه وأسارته فلمصارعة بإبلاغ القادمين وراهم ليسرعوا يدورهم في الارتداد، هؤلاء الولدان مدبرون على اكتشاف المؤامرات والكشاش والحسابات يا بوي، ولد رومى يابوي أجارك الله منهم، يقتربون هي التصرف النهائي عند اللزوم، إنهاء حياة رجل أو رجلين مصدر شك أهوى عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

إن هي إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكبي الحمير والبالغ الحموية والحيول السريعة العدو مهمتهم حمل الدجيرة الاحتياطية وحمل الرسائل الفورية عند تلقاها في منتصف الطريق من الرجلين المتقدمين فيكون سهلاً على التحصيل أن ترتد مسرعة لكي تعطل «حراية» عن التزول تهبط به تسريه من مكان خفي إلى مكان أخفى، دقائق معدودة وهبط «حراية» يحوطه الفرسان الأربعة، اثنين على يمينه ويساره، وواحد أمامه والآخر خلفه مباشرة يتلقى عنه أي غدر محتمل دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الحيلة بالكرايج الحفية أما الطريق من مهم الجبل إلى المكان المقصود فمحموف بالعرس المسلح في مظهر خفي وحمل «حراية» إلى دور العمدة فوجدته قاعداً بين بعض الطرابيش

المعوجة على ناحية ويسهم ثلاثة من الفلاحين، لم يكن «حراية» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحصر الشائع للمحكمة جاء يهجر على أحد الفلاحين وهاءً لضريبة أو أطها غرامة من عرامات الحكومة التي لا تفرح على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تهرمهم سممة الدنيا يا حال أما الطربوش الثاني فإنه مهين للذي جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات ومخبة على أرامس الحكومة وأما الطربوش الثالث فإنه بواحد مجهول من عباد الله تعرف به الحضر على مقرب من مجاور للمحكمة في المدينة فاستطعمه في هذا المشوار الرسمي، إذ إن وجود أفندي آخر معه يقوى موقعه في نظر الناس ويهمل السرطيل مضاعف لشتمته على أشياء، بالاعتصار جاء به الحضر لينصب به على الناس لكن سوء الحظ جمع بينهم في تلك اللحظة من أجل إقترافهم.

بوار العمدة كانت شبابيك مفتوحة على البحري، لذا فقد كان «حراية» وهو «جبل» يحرم يمشي إلى رجوهم ورقابهم، وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توارعوا على الشبابيك بسرعة، ومن خلل فصاصها «مديدة» بالمشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة حسب أرواح البنادق على أرواح الجالسين في رقباتهم وسطفت «مديرة» التدرية مثالية متضاعفة كالطر يهبط سيراناً متلاحقة كبحر الرعد المهيبة فسقطوا جميعاً جثثاً مائدة العمدة والثلاثة الطربوش وحفيران وثلى على طيات وتفر أجبر، قبل أن تغيب سماء البلدة من دوى الانعجارات النارية كانت الخيول ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتزم الطريق شيئاً فشيئاً فيتدفق فيه

على الملاية والساكين وأبناء السويل، هي هكذا ديارنا منذ عهد
أبم وخواء. حاميها حراميها.

عائلة العمدة يئست من العمدية كرهتها حيث لم يعد في رجالها
من يصلح لحماية العمدية طلبة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا بجيل،
قيادة بهم يتقاءسون عن السعسى وراء العمدية ففقرت عائلة
«حراية» فاستقرت بها بعض جهود من «حراية» بذلها في اختيار
واحد من عائلة أحواله في بلدة «دير الحبالدة» وهي عائلة عنية
مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال في حالها دائما ولا تتدخل في
شئون أحد، اختار «حراية» حالة «عبدالكريم أبو هميلة» وضغط
عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه في البرلمان عن دائرة البلدة
وكان الشيخ «عبدالكريم أبو هميلة» مستقيما وورعا وفيه تقوى
حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم في حياته ولم يدهس الأهرار
ولم قرأ القرآن وحط في المسجد مثل فاضل الشيوخ والفقهاء،
وكان الرجل بأنس في نفسه الفخرة على النجاح في الانتخبات
فحس سمعته وجانب عائلته للرهوب لكنه كان عذرا عن الدهر في
مشارك من أي نوع، ويعمل حسدا لوصية تركها جدهم القديم - الذي
قبل إنه كان من ممالك السلطان الغوري - يوصيهم فيها بأن يتعدوا
عن سوق السياسة فلا يبرأوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد
الكريم أبو هميلة» تحت ضغط «حراية» المتواصل قرر ترشيح نفسه
بالفعل، بالفعل فاز بالمقابلة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال
«حراية» وصبياته برسائل شفوية لرهوس العائلات، وكل رأس من
هذه الرهوس يعلم علم اليقين أنه معرض للتعطيل ذات يوم، وبذلك
الحرمة حتى يدفع القدية، ولذا ما إن تلقى رسالة «حراية» حتى

العوام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم
البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا
يذومون في الحريق، بدأ الطريق يصفو من عكازاتهم وتاهت عائلة
العمدة للعلم الحدود والصراخ وإرسال الرسائل هنا وهناك.

ملحعا حدث في القتل الأولى حدث هذه المرة حضر طاقم من
العربيات الجيب والخيول والرجال والكلاب طافوا بأطراف فجيجل
وبعض أحشائه لمناجاة للعمران شهورا طويلة دون أن يكشفوا
عن شيء دون أن يطرأ على حيالهم أي في قلب الجبل سوقا
شعبية كاملة كبيرة وثابتة تباح فيها جميع السلع والمطلوب من
لأكل والمشرب والملابس والساعات فلإنها سوق السوي
والمتع وكل ما لا يوجد في أي سوق في أي بلد من بلاد القطر يا
خال. إسمع ما أقوله لك وسدقي بذوي كلام! أصدر أن تنبس
بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تسمع نفسك من النهشة من
النهشة حتى لا يصيبك الحبل. أعلم يا بوي أمسي رأيت كل ذلك
بعيني رأسي وأسته بيدي وجنبي وبطنى وظهري ودماعي وكل
هرق في والله على ما أقول شهيد.

الله وكين يا بوي، لم يعد من هذه القرعة المهاجمة سوى نفر
قليل، بعدها كفت الحكومة ومعدت، وجاءت الأحبار بأحكام
بالإشغال الشاقة المؤبدة والإعدام فمقيت مجرد حبر على ورق
سوء تأكله الميراث حقا في دواليب الحكومة في السدرونت
الرسمية التي تندفد فيها يعوي ديك كل لقولتين التي تصدر في
مصر للعروسة، نعم يا بوي، فليس يسرى القانون في ميلونا إلا

يلتقيه العرع واستنق في نفس الوقت إذ إنه سيكون سعيدا عنه
السعادة يتلقى رجاء «حرابة» وسكون أكثر سعادة بتقديده

الخامسة - يوم الفرع الأكبر

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هيلة» دائما عن
الدائرة وارتدت العمدة تحت أقدام «حرابة» فشاطها بدمه إلى أعلى
كالكرة ثم تلقفها بدمه وسلمها لأجر عنه من حفل كبير، ما حصر
بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدة، والدهم يا بوي
هذا الحفل شرعه بالجمهور طرابيش تشبه من طرابيش الحكومة
مع بعض أحد منهم - أو لعله لم يعلم أصلا - بأن هذا الولد المجدع
الجالس بينهم من هدمه وقعدته رعم حمايته هو «حرابة» - أحب
أكبر صيت بين مطاريد الجبل. ولم يكن أحد منهم - عملا عن ذلك
يابوي - يعرف أو يحذر على جاله أن «حرابة» هذا الولد المجدع من
هو الذي سيدير العمدة والدائرة الانتصابية من الجبل واسوم
يصل صوته إلى الجبال وربما إلى مأوى عند الماصره نفسه فهكذا
الحكام دائما يا بوي يحاربون اللصوص الكثرة المجرية فكهم في
ناحيتهم في ذوات أنفسهم يحيونهم ويمنون أن يصيروا من
رجالهم، ألم تسمع بذلك النص الظريف الذي أحبه السلطان وحاربه
فلما لم يقم على هريسته أتى به وعينه رئيس شرطته «جاء
السلطان بلص يحارب به اللصوص. وأسلطان يحسبها لنفسه
فتلا ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة حصر من آلاف
الساقيين، وعاية الأمر يابوي أن كل سلطان يريد أن يؤم ظهره
بقوة وهو من يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا بعد عنة اللصوص
والجرمين من يقدرين على سفك الدم دون أن يطرب لهم جرح
يابوي. هذه هي الحقيقة يابوي فدعك من أي كلام آخر

ما هو لنا «حرابة» قد صار من عمر مجده يا بوي، وفي مقدوره
أن يتزوج ابنة أحد الياضوات المصاهبين لخاله «عبد الكريم أبو
هيلة» لكنه - وبالعجب - تقدم ليطلب شقيقتي «سعدية» ولقد
اتصح لي وللعجب أيضا - أنه خطبها إكراما لنفس أعمام
الفقهاء أولا، ولجمالها الفريد ثانيا. حيث إنها كانت ذات بشرته
على وجهها يابوي فتمت بشرتها العمرة القمصية بشرة أخرى
حمراء كلوي الورود تضيح على البشرة القمصية على الفواق، وقال
لما «حرابة» بالعرف الواحد يوم الخطوبة إنه خطب «سعدية» لأنها
تجمع بين كرم الأصل وجمال الطلقة وحسن الخلق، والسلوك
والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لسلة القادم

ويلافل يا خاله أكرم الله شقيقتي «سعدية» فأنجبت له ولدا
ومنا حميلين تشارك الحلاق فيما خلق كك أكرم شقيقتي «هدية»
فأنجبت لروحها ولذا فرح به صاحبني «هليل» كأنه أنه هو

وقد بات من الواضح لنا وللبادة كلها في حال أن الحياة في
حضر شقيقتي «سعدية» قد طابت لـ «حرابة»، فركب إليها

واستحلالها إلى آخر الحدود، قيات لا يفادر حضمها إلا هي أوقات معينة تستلزم وجوده في الجبل، أو حين يبلغه للمريد أن هي الجمر عيمة

إلى أن كان يوم لا رده الله ولا أرائنا وجهه ثانية أبدا.

كنا في ساحة القبالة و مغاربة، راقد في حصن روجه القديمة مذخرا النيل كالعادة لثقتن روجه «صعيدية»، إذ جاءه البريد بأن أقدام عربية وحلات أرض النده متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهمس عائلة أخرى بعيدة. فلما لم يتوجهوا لبنت الحمدة* الأمر إن في سر غامض وعلى «حراية» أن يتجدد كامل احتياطاته لما كان من «حراية» إلا أن سحب نفسه من حصن روجه وانعزل بسرعه وليس ثيابه وأرسل في الحال نفرا من الحفراء النظاميين يتسقط الأخبار حلسة من دوار شيخ البلد فماد رسولهم لاهنا يبلغ «حراية» أن حبر استقراره في البلدة قد وصل إلى الحكومة وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح أنهم جاءوا للقبض عليه بوليل وصول عرمة سوداء محملة بالجمود اندجيين بالسلاح!

كان «حراية» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه ورثه باب العوش ومن حو به الفرسان الأربعة راكبين، فلما إلى سمح الحبر حتى أراح الباب وعمد الجسمان فامفلت منه خارجا وانفلقت وراءه حيول مرافقيه فتملكوا الطريق المتحه إلى خارج البلدة

و. ه. يا خال! واه.

أدركته عربة الشرطة السويلة يا خال، التي اتصح أنها غير اللواقفة عند دوار شيخ البلد ونهب كانت كامنة في مكانها جدا تمسبا لحروجه الجيود كانوا حائقين فاطلقوا على الخيول وابلأ من الرصاص، فسقطت بعض الحيول على الأرض ومن بينها الأدهم حصار «حراية»، منزل «حراية» على الأرض يجري مذهليا من حلاوة الروح، فظل يجري وبعض الجنود وراءه وهو يضلهم ويدور منهم في الحواري الضيقة وبين النخيل حتى وجد أمامه قسيمة مبنية حششا وطوابق الطوب لا تزال حاضرة لم تشتت تحتها الميران بعد.

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحرف مستترا بهذه القسيمة، فلما لاحقوه. وجدوا ثلاث قناش متجاذرة، تلصص بينها طرق ضيقة، لا تقصع لمرور شخص بينها وكان من الصعب عليهم أن يعرفوا أي طريق سلك، فسلاد إنس أن يكون قد ذاب في الهواء، أو ليتلته الأرض هكذا صاروا يقولون يابوي، وهم يصفقون كف على كف.

انضفلوا به فلم يتمكنوا من القبض على أحد من مصابه إذ هربوا جميعا يا بوي، لكن أمر «حراية» كل مشيرا لنفيظ يا بوي وكانوا جميعا كأنهم حيكوا من الحلف، فصاروا نسوان، وهكذا انتشرت فرقي من العسكر راحت تفتش القنات والترع وجذوع النخيل، ويقف على كل قسيمة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور القبلة كلها دارا دارا وحشا حشا ومسدوقا مسدوقا حتى غطيان الحلال المقلوبة على الأرض رفعوها وسفروا تحتها ممتشين

عن «خرابة»، أي والده يابوي للحكومة حين تخيب تصحيح أعم من الضواجة «يتي»، الذي جاء يوما لينجس الماء للصمليانة في زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد للآخرين في الشوارع من ضربهم. كانت مجررة والده يابوي، ضرب في ضرب في ضربة بدباشك البنادق وبالكراييج والسائق والجزم للمريء صوب غبي أعمى لا يرحم عجوزا ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع كل ضربة: حربة نبي يا واد؟ والجواب أيضا يتكرر: ما لعرفش! ما لعرفش! ما لعرفش! انضربت الليلة كلها ضربا مبرحا لم ينج منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال...

عند ثمانين الطوب أمسك للمسكر بأحد أصابعها وقلوا بضربونه وهو يقول: ما لعرفش، حتى نعبوا من الضرب فكثروا وأبهلوا جميعا عليه حتى لفظ أنفاسه، فلنقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القماش وأبهلوا عليه بالكراييج السوناني وهو يقول: ما لعرفش، فلما أوشك بلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم صدره قائلا للضارب: «أتركه أبي وأنا أركه مكان خرابية». فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال: «ها لمسار للمسكر يظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هي مجرد بناء مسود بالطين من كل ناحية، فمجيء من إشارة الطفل. وظنوه محتالا صغيرا يسرح بقولهم شطط فيه الخندي متعطب بالأحرمة «نبي يا واد؟». فأشار الطفل مرتعشا إلى خنفة صغيرة مسدودة بالطين وقال: «هنا». أخذ الضابط يتحسس البطافة فوجد عليها طرية ففشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا

الطين، فتقدم نفر من المسكر ونحروه فانفتح في القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة»، وثمين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجرى لحق به الرجل ثلثت لأمسكه وسرب جسده كالغضب من الخلف فإذا هو في سرناب طويل معد لمعطب البيران التي ستشتغل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل أنثيت أطلق عليه بالطين في لح البصر تاركا ثقبيا خفية ينقل منها الهواء.

نظروا جميعا في ثقب السرداب فرأوا جسدا «خرابة» ممددا كالشعير، فجروه حتى أخرجوه، وفي الحال كثفوه، وهم يرددون كالنساء: في مقابل صراخ متعطب يرتفع أواره في سماء البلدة - شحموه في عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذي كان منذ شهر قليلة قد مجع في أن يركب لنفسه تليفونا خاصا من حر ماله - البلدة كلها من حلف العربى تلطم الصدود وتصرخ وتكذف المسكر بالطوب والمجبرة وأقراص الجلة الطرية والشتائم الملقدة، والمسكر يهددوهم بإطلاق الرصاص في أنفوله فيرفد روع الناس ويبهلون عنهم بالطوب حتى نعدت صغيرة المسكر لاستعملوا المعصى للخليطة والكراييج.

في دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودي يروح ويجرى في فرح شديد وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه اللقيقتين شارب تركى غشيم، المسكر وضعوا «خرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فإذا صغير الحجم مشكل لم يتوقفه أحد، بدا حسيا صغيرا غرا نظر إليه الحكمدار بغية قائلا في سرورية: «كنت بقي خرابية؟» إيت؟ «فرد عليه «خرابة» قائلا: «ولسه خرابية»

الجموع أصاب الناس كلهم يا خال، قائدفعوا صارحين
مولدلين، ولندفع شيخ اللفة هأمسك بالثيفون وصاح في كل
نعر «يامديرية! أنا قبضت على الشقى المعروف حرابة ولكن
سيادة الحكمدار قتله الآن بست رصاصات! إلحقى بي يا مديرية
قبل أن تقوم للبيعة» فففر الحكمدار وانزع منه السماعة وصار
يجعر فيها: «أنا الحكمدار! أنقبوا حبالا! أرسلوا لنا قوة كبيرة!
ليبلدة كلها هاتجة علينا! تصوب فينا بالرصاص حتى اسمعو!»
وصار يضرب الرصاص مسدسه في الهواء.

هاج الناس يا بوى ههجانا كبير! وكابوا يلتمون أمام الدوار في
قوة مترابطة من بين هذا الثوران والثورون لفظت الجموع من بيتها
رجلا رفيع القوام ملثما يضع يده في فتحة سيالته، اقتحم حجرة
الدوار وقزع من جنبه من تحت ثيابه مدبعا رشاشا صوبه بسرعة
مذهلة في صدر الحكمدار وصوب عليه النار فأرداه قتيلًا في الحال
يتحيط في دمائه، ثم اندفع بجري داخل الدار ليوهم أنه سيحظى
في قاعاتها اللطيفة وهو في حقيقة الأمر سيهرب من بابها
الخلفي الخال على جرد موصول بالمقول البعيدة المشاهدة لنجليل.

العسكر ملجوا وماجوا وتدفقوا جميعا على الصبرة ينظرون
في أمر حكمدارهم ورايل من الرصاص ينهال عليهم من كل فتحة
في الحائط حتى تكومت جثثهم فوق معصها بما فيهم شيخ البلد
الخائف. أما نحن أهل «حرابة» ونسبه فقد جريتا هنا وهناك بحث
عن ذلك الرجل العظيم الرفيع القوام المثلث الذي أوقع بحكمدار
الحكومة وشيخ بلدها وبعض الضباط والعسكر في مقابل
«حرابة». لضعنا حول الدار، معوجتنا معارس يمتلئ شهر جوانه

وسابقي حرابة». فما كان من الحكمدار إلا أن بصق في وجهه
يابوى، وقال يغيظ «ماتودش على يالوطى يا ليل القسية!» فإذا به
«حرابة» يرد عليه البصقة بأشد منها حتى ملأت وجه الحكمدار
وقال «اللوطنى هو أنت والقصة هي أمك!» الحكمدار صار ينتفضر
كالجنى المدبوح يقول في شعور بالحروف «تشتمنى وتبصق في
وجهى يالوطى!» - رد «حرابة» على الفور «مالوطى إلا أنت».

ثمة غير نظامى كان يقف بجوار «حرابة» حاملا بندقيته ذاهلا
لا يعرف ماذا يفعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا «أفرغ فيه
الرصاص ياخفير!» فوقف الخفير ذاهلا يابوى، فتح فمه مردداً
«كألايه ده!»، في حين ينتفض الحكمدار مواصلا الصراخ فيه
«إسى أمرك! أن تفرغ فيه الرصاص» تنجلج الخفير المسكين، ماذا
يفعل يابوى؟ صار كالغار في الصينة يلتفت حوالاه يستغيث بالله
في صمته. وأخيرا خلع الهندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار
قائلا

«لا أفدر بإسعادنة البية! هذه بندقيتك، خذوها! وهذه لبنتكم
أيضا. فخذوها!» ووضعها على الترابيزة ومضى، فصار الحكمدار
يضرب في «حرابة» ببوز حياته قائلا «تشتمنى يا كتب!» و
«حرابة» يرد عليه قائلا «ماكلب إلا أنت وأبوك» طلش صواب
الحكمدار يا خال، نزع مسدسه من حاصرته، وأفرغ في قلب
«حرابة» ست رصاصات كومت على الأرض قتيلًا

واه يابوى على منظره يا حرابة وأنت تنتفض في قبيحك
كالنسيمة من حلاوة الروح والدم يبرق منك على الأرض.

نقف قرب الساب كأنه ينتظر أحدا ثم خرجت بعد مرحة - وبا
 نأجيب - امرأة تخرج من الباب الحلقى منكوشة الشعر مصفرة
 الوجه تكاد من مرحة الاضطراب تنكس على الأرض با يوى، بل
 فيها انكفات مالفعل وبهتت بسرعة مجرى نحو الفارس قوافف
 بعيدا يعضاه شئ إلهي جديبي إليها يا حال، هجرت ممرها
 كشعبا وجهه فإذا هي أحتى «سعدية» واه يابوى، أحتى
 «سعدية» كانت هي الرجب اللثم الذي أوقع بالحكملة، واه يابوى
 كيف أصدى هذا «أميك هذه الشجاعة كلها وهذه المرحلية كلها يا
 سعدية؟ الله يحرب علك يابنت؟ هل ورثت ذلك من أعلنا أم أن
 حراية همر فيك رجولته من حق؟

لعلت بها يا حال وأما من شدة إعجابي بها وشدة خفقان قلبي
 حوفا عليها أكاد أقبل الأرض التي تجري عليها حين وصلت إليها
 عند الحصان استصغرت نفسي جنبها والله بنا يوى ووجدتني
 أتلعج ولا أعرب كيف أتكلم معها وحق التي أشرف خليفة الله
 لقد عاب صوتي كما يغيب لحظة أتكلم مع رجل واعر كبير المقام.
 وكانت هي - شأن كبار المقام - قد أسلمت يديها للفارس الذي
 أركبها حنقه وقد ظهر لي أنها مستياعلمى وتخصي غير عابئة بي،
 فصبرحت بكل عزمي «سعدية رايحه هير»، قالت، والصيل
 ياروحى لم يعد لي مكان سواه، سوف أحمل مكان خرابية حتى
 أهد بثاره كاملا ممن وشوا به لا تفشوا على من شئ فلنا رجل
 كما تعرف والآن صرت أرجل مما تعرفون»، ثم هزت ساقيها
 تستحث الحصان على المشي فحركه الفارس غانطق يسبق للريح
 في اتجاه الجبل

السادسة - يوم الطوفان

كالسوار هرولت جرجا مولولا أشق الثيب أصوصو من
 الشوارع للنبوة كلها بطق الله، المدهش الصارخ امولول، فما
 يبرى أحد علام يصرخ جاره وعلى من يولول، تقول قامت القيامة
 يا بوى وتحلق قول عمى المقيته، إذ ابدهت كل مريضع عما
 أرصعت. أطفال صفار يرحفون على الأرض يصرحون لله ما
 يفتهم يا حال، أقدام الذاهبين تدوسهم تعجبهم وتخصي مستعثره
 فيصيح صراخ فلهم المدهوس في صراخ همومي آت من هموم
 النواحي فيه النواح والمساوات والعراك والحرب والرصاص خلق
 كثيرين يروحون ويحيون في كل مكان من كل مكان إلى كل
 مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تعني الأقدار لو
 رايتمهم تلتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم في واد يصطدم
 بأخيه بالصافط بالسائر يفرس فوق ابنه وفراخه وهو لا يبرى
 ماذا يفعل، من حين لحين يذب فيهم دعر مفاجئ وكبير فإذا هم
 طوب يجرى يتقاذف يتصادم إذا مغربات الكمبيون والكالورى
 تدخل البلدة مشحونة بالمسكر المسمين بالمصى والدروع
 والقنابل والبنادق وحيث أت ذاهل في طريقك ياسيب ماذا أت

وماذا كنت فسدتهك وقرف العربى وتقاتل العسكر منها كالقروء المتوحشة تتجمع في سرعة الطيور تهجم عليك صفًا واحدًا بالمعصى والقنايل والرحاص، كل واحد من الحلق وحده يا حال، منهم من مات برحاصه، ومن لم يمت بحشر رحاصاته، ومن مات برعدة يوكس في الجنب، ومن مات من الحصة

هاجت النساء يابوى وأزدهعت السماء بالاصوات يا بوى، يدوى الزلازل يا بوى، نبحت الكلاب في عواء صارخ يا بوى، اندعر الحمام واليمام والغربان والحجرات، لعلت طلقات المدافع الرشاشة تحلف اليمى يا بوى أمها صبغت السماء بلون جهنم وارتفعت السنة الذهب في كل الأركان القبائنة من خيمة السماء وكانت أسراب الحمام المئات - بنفس البهالة المعروفة عنه يابوى - تتكفل بنقل جريد الذهب على جناحيه إلى أحمال الفش والخطب - وأفراس البهة فوق أسطح الدور، وفي الأجران، وعلى شواطئ النخيل الجاف، والأشجار اليابسة - وكان صوت طقطقة النيران يهتج كثافة الأصوات يعزل البلدة من رحمة السماء حتى صرنا ندخل كرة من النيران الصمراء فننظر وصول مجرة إلهية يا حال، والواحد منا ماشى يطوح وجهه يمينا وشمالا كالفضية عندما يقرأ تعاليفا لألسنة النار الصغيرة التي كانت تتطاير في الهواء بسرعة مذهلة كالريش الملون كحلى عرل البسات إلى تصاديتها بوجهك علق يفتانك التي تلبسها يابوى.

الله وكيل يابوى، الحلق أفاقت مرة واحدة، كيف يابوى؟ أشهد يابوى والله وكبير، أمسى ما كنت أراهم يفتقون إلا حبيما يتمكن

واحد من حياق عسكرى، راه يا بوى مما يجرى لحظتها تقول كلمه اسك بقطعة عظم وقبض عليها فسارت هي وعمره سواء؟ هذ وحق الله ما رأيته يخال، كل الذاهنين ما إن يروا عسكرى في قبضة الأهل حتى يفتقوا مجاة ويرتموا فوقه نهشا وتمريقا، يظهر يا حال أن الأهل حين ذاقوا طعم لحم الحكمة وجدوه لتينا فاصابهم السعار وركبهم جنون العوقا أو قل لوقا الجمون وتالت ألبابهم مات يا حكومة لحكم الطرى المفلوف من دمنا لماكته وتمرمشه، مات لصك يا حكومة مات فجما أولى بلعم ثوره.

تحلف اليمى يا حال، أن جميع ما كان في أيدي العسكر من سلاح خفلت الأهل - أما جثث العسكر فراه عليها وعلى ما جرى لها، يعز على الفئات أن يرى جثة يتيلب صفراء دون أن يعرفها، ولم يعد يميز جثث الأهل من جثث الحكمة سوى الجرمة الميرى في الأزبل، فكل من وجد الأهل في قدميه جرمة ميرى حملوه وألقوا بجثته في الحرائق التي صارت متجددة مبدعة لا أمل في مقاومتها

الله وكيل يا بوى، لو كنت مكاني في قلب هذا الآتون لأيقنت أن البلدة فانية حيث الكل في عيبوية ياتسة ولابد أن ملانكة من السماء اختزلت حيمة الجعيم ومرت بغراميم المياه والباليس حتى أطفأت النيران كلها، لكننا عدنا من تشرىدا الملون في البلاد وللقيطان للجاورة لنسحت تحت أنقاضنا عن بقايا متاع، فلا يجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

دمي وأكوي رجلا يسطح الوقوف أمام الحرائق والأحيار
المؤسفة كت أجرى نحو النار والطريق بلحيطي ويلحيط
للحيطان فأعود إلى قوراء فالتحيط أكثر فأعود ثاسا لأجل حدة
يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا.

مكثت على ذلك من الصبح حتى أذان العصر أحيط من البدة
تفسيراً يوم أن أغتر لحارباً على أثر منظر البدة قد تغير يا
خال إذ أن دوراً احترقت نكائماً على الجاسين وعيرت وجه
الشارع، ودوراً انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حواري اسدت
من ناحية وتم فتحها من مواح أخرى فنشأت حارات جديدة لم
نكن نعرفها حواري أخرى كان بيده وبهج بعضهم مسافات كبيرة
مشياً في تلك ساعة أصبحت باحثة في بعضها التقاضي صاحبى
وهلكنه اجر خلقتني معفراً دافلاً وكان هو يجر بعض الجمال
الحملة بالطوب فتركها تمضى إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوى
ياحمنى بالحصى يقول «دوختنا ياو ايم إلأهى ربنا يدوختك»
يوماً وتمس مسال عنك في كل مكان خفنا أن تكون طمعت في
الميرلي مع الدين التهمتهم الحرائق! أو دفعت تحت الهديم! ولنا
لعده هرب مع الذين هربوا من مدافع المسكر وتنازلهم إلى بلاد
بعيدة»

قلت وأنا أنكى من كل عين حفار. «تمضى على الصريق إذن
يوماً يا حوى». قال «سلامة عقلت» مضى يومان وأيلتار! تعال،
تعال! قلت ذللاً وأنا لمضى معه كطفل عثر على أميه في غربة

السابعة - يوم الطلوع من الهيم

الناس اصبحوا يحثرون على ذوبهم بالصفدة والله يا بوى
يتصادف أن يكون العجور ملبثاً في دهوله مند بضعة أيام، لا
يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه فإذا ما به أو أحد أقاربه يلتقيه
على الطريق في بلدة بعيدة فيأتي به، أما أنا فحيماً ألفت ولصحت
من رأسى ومن عيسى حيمة الجصيم الحمراء المنيرة بدخان أسود،
وبدا الهاتف يهينى ويقول لى إسمى لى دار وأهل يجب أن أسأل
عهم (أعرف لصير الذي أتوا إليه. كنت لملتئها كمشائنا في
حضر الجبل الأسفل بين حشرات من العرايا والجروحى الظليلة
أجسادهم بالقروح والتهاليب وكنت أتذكر أنى شاركت في إطفاء
الحرائق التي لا بد أنها نشبت في دارنا في الأخرى، رعلت من
نفسى آخر رجل والله يا بوى، جاءنى وأرخ يورمى على قتل نفسى
في التو واللحظة قبل أن أعرف أى حبر، تذكرت لى للمسكر حوى
طارونا جريت مع الداهلين حتى وصلنا إلى أطراف البدة فقطعت
علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية، فطردت هذا الهاتف وقلت
لنفسى إذا كانت أخفى «سعيدة» هجمت بمقردها على الحكومة
وجنلت حكسارها بدمع رشاش فلانى يجب أن أحتشى على

موحشة. «ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا هليل يا خوي؟» ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضع جدران تكف وحدها عريانة وقال. «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! حطى عوضك على الله! لا بد أنه سيحوضك! فكى صانق الإنسان ولا تحرر على ما حدث». وقعت من طولي يا خال، رميت نفسي على الأرض، صرت أرمع رأسي في القتراب وأصرخ بعزم ما في من ألم «أمي! أمي! أمي! أمي» قبض «هليل» على كتفي ورمصني صائحاً. «امسك نفسك يا جدع فألك مخير وأخوك أيضاً بخير وهما عندنا الآن في دارنا! كان أبي عند المريق قرب دار حملاته لبحور ليشتقي من النيران! فلما شبكت الميران في داركم كثر هو أكبر الطفطين وكنت وحدي أطفئ النار التي شبكت في دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعني سوى الطكمة في حوش النار! عنبة بالمشوش والعلار! في ظرف ساعات تكنتا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيرال التي لم تلحقها النيران! ولولا أنا هيمما الجدران فوق الحشب والحطب المشتق ما سجوننا! ولقد عاد أبي بمحاته وأخيه إلى دارنا! وأما الآن داهب بهذا الطوب لزميم الجدران المهذمة ترميها مؤقتاً».

تلفف قلبي هذه الكلمات يا بوي، كما تتلفف الأرض الشراقي قطرات الفث، فاستكن قلبي في صدري قليلاً، لكنني بقيت أراول وأشد خلفاتي أكاد أرقى ما على فيها، لكنني «هليل» فأنثلاً «لانا» نيكى يا جدع مادل الله جاك وبجى لك وأحوتك» قلت

باكياً: «الدار يا هليل! كيف أبنيها من جديد بعدما ابهد حملنا». قال «هليل» بكل بساطة «مثلمنا بيتيموها في الأول تبنيها ثانية بآنس الله». جهرت من جوف بطني «كيف يا هليل كيف من يده في الماء ليس كمن يده في النار» قال «هليل» وهو يغمري في كتلي. «الحكومة سوف تساعد اللق يا جدع أنتن أنها تتركهم هكذا بعد أن يهلقهم كل هذه البهذلة! الحكومة يجب أن تدفع المئات عشرين» شجعت في وجهه بغيظ «حكومة سادا يابو العم! الحكومة التي تصرفنا لا تساعدنا على القيام ثانية». قال. «الحكومة لم تحرقنا يا جدع! أقصد أقول لك أن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذي أحرقتنا بحق وحقيقي هم أهل المشير» تصرعت في الأرض مرتعشاً يا حال! أهنك مشيراً خيره» ووضع يده على كتلي يستحثني على المسير قبل أن تتلرق الجمال وتضيع من النظر.

لكنني - تحلف اليممين يا بوي - تصرعت في الأرض وشعوت أن شواكيش عليفة تلبق فوق رأسي شريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغشى رأسي كلها في الأرض كالسمار في الخشب. قلت لصاحبي بفسيح مرتعش ينكتس بالخوف والذعر «ما دخل أهل المشير في هذه المسألة يابو العم! هل داست لهم بلدتنا على طرف!» قال صاحبي. «اتضع يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربي متينة به! ولهذا كل الحكمدار متفوخاً وفعل ما فعل في حراية وغيا».

يوه يوه يوه! المسألة هكنا إذن يابوي! قلت وقد اقشعر بدني من الرعب «مسألة ماذا مت هكنا فإسأ بعون الله مقمسي علينا قل علينا يا رحمر يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يابوي! إذ مأمورا في مركز يستطيع أن ينمنا من القرب لو أراد ويحمنا العافية! فإين لروح من المشير يا بوي ومع أهله الذين ظلموا من المنها وضمروا الصعيد كله تحت مهبهم!»

أردت أن أمشي مع صاحبي لكنني لم أستطع مزح قدم واحدة من الأرض، فصمت في صاحبي بشئ من القوة كأنني اكتشفت أمرا خطيرا غاب عن بال صاحبي. «كيف يا خوي تقول هذا الكلام! أسما نحن الأسايطه تبع الرئيس أبو عبد الناصر يا خوي! هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس! كيف يابو خاله! إن المشير له هاشة كبرى في الدنيا وفي كل مكان في الصعيد! أما الرئيس فليس له عائلة! لا في أسوه ولا في أي مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه! قلت مشوحا في وجهه أما الآخر «كيف يابو خاله! إننا كلها أهل الرئيس وعائلته! مصر كلها أهله وعائلته! وهو لا يرضى أن يحمل ما حمل لنا! شنس صاحبي من نواصي في استعمار واستعمار لثاني! رد هذا كلام الجرافين ياجدع! فضك منه فأبو عبد الناصر مسكين مثلنا كلن الله في عونه! ألم تسمع ما يقول بعض الناس في مواحينا أن المشير هو الذي يستد الرئيس! ويستطيع مزح الرئيسة منه وقتما يشاء! لكنه إن يفعل لأنه الرئيس أسدقاء عمر طويل وبين أولادها حب وعلم!»

قلت: «نعم أسمع! لكن الذي يقول هذا الكلام يقوله من تحت لسانه ولا يجرق على التصريح به! نحن لا نعرف غير الرئيس وحده يا أبو خاله! نشكر إليه حائنا وما حل بيد من حراب! شوتني «فليل» صاحبي بقوة قائلا استكني لله فلن يغيبك أحد صولة! لو كنت الشكوى لغيره تكيد لتغطت جهث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكوى! إمش ياجدع إمش وحليك عافلا! فأيامك منك والإتجير لم تنهب ولكن اسمها هو الذي تغير! الأمر له من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا أطلع من الأرض بسهولة «صعب الشكوى لله أنذا لا تأتي بنتيجة يا أبو خاله! إن الله عادل وعظيم أي نعم ولكن الصبغة أنه يؤجل كل الحسابات إلى يوم القيامة! فإناوجب أن نأخذ حلقنا بأيدينا يا أبو خاله! هل يحصى الله! إشمعني هم مصوه! أقول لك! لنفعل لأفعلهم! وحيث نزل يوم القيامة أمام الله نقول له يامولانا هم فعلوا بنا كذا وكذا فكان لا بد أن مرد عدوتهم بنته على الأقل وهم أتوياء عا يامولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربح ما فعلوه بنا! فإذا لم يصدف حلقنا له بأله العظيم وبالقوي المجيد أننا لم نكنب عليه!»

مزني في ذراعي غمرة مفاجئة وقال يستجنتي على المشي أهم شئ الآن هو أن تراك أمك وتطمش عليك أحتك هدية! مضيت معه باخال! وجايتي للهاتف فصمت بسرعة «أولاد حرة! ملنا حل بهم! انفجر صاحبي «فليل» في الضحك كس

يرى أمامه مسمة. قلت مفتاحاً «علام تضحك يا بوالعم؟» قال وهو يطبخ على ظهره يحنو وهي صوته شفقة كبيرة على هالي. «لا حول الله يارب، حدث لعقلك شيء يا حسن! جسمك سليم هل شبكت النار في صندوق دماغك الجولي؟» قلت فافرا فاهي من الدهشة «كيف يا بوي؟» قال يجدية تقدر تقول لي أهي كنت طول هذا الزمن؟ قل لي من الذي كان يحبك من الجبل أو في مكان بعيد كل هذا الوقت؟ كيف تسمى الأمانة التي أوصيتك بها أهلك سعيدة ساعة محسها ونحن قالت لك خلّ بالك من الميال»

حرقني الكلام يا بوي في قلبي عيسى تكب التمع صدرا على صدري، والساني العاجر عن المطق يتلوى في حنكي قائلا - أقصد مصاولاً أن أقول. «معك الحق يا هليل؟» معك الحق وحق هذه الليلة ومسامها أسنى لا أعرف أهي كنت دميت! ماذا فعلت! كل ما في دماغي الآن أني كنت في قلب حريق يرحف بي من مكان لمكان! قلبي الآن يكاد يكون مشى من دماغي! ألا تعرف أهي ذهب يا هليل؟ يا خوي! أليكون قد وقع مني في قلب الهول الكبير يا هليل؟ قلبي يحدشي أن القيامة قامت يا هليل وأما من أهل الجنة الحمراء؟ قلبي يحدشي أننا ناس طيبون ولهذا مجونا من الهول وندهب الآن إلى موضع الموازين ليحرقوا! ماذا بقي علينا لله من نبيس لندفعها أو نأخذها مصاريف حيس في أحد السجون الواقعة في المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة الفيحاء»

قال هليل يدعاطة وثقة «عقلك الآن مدفون تحت عديم داركم»، ومصممي بشعته بتصمما ثم سحبني قمضينا صامتين

لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول المفاجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف ورمامير وأجراس تصلصل وحيول يركبها عسكر بطرايش وبرانيط وطاسات نحاسية أراد «هليل؟» أن يحمشي فسحبني قائلا «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد العرائق تذهب بها إلى كردون نسيوه خارج البلدة لقرار الجثث! فالجثث التي تقصمت وتمزقت بكومومها على جنب، والجثث التي بقي فيها شيء يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طلبوها من البارحة من أجل ناس كذبت لا تزال فيها الروح! رماها الآن قد فارقتهم! ولول يبوب أصحباها من عرية الإسعاف إلا البهولة والغربة. وقاما الله شر فظاظة غربة البهولة! فهي لشدة والله من غربة الروح يا جدد!» وتصب «هليل، ومصممي بشفتيه قائلا «ولكن بالله يا جدد» مع من ستعلق الحكومة الشاطرة هذه الحكومة أم الطرايش والأقمطة الصفرية مع من ستعلق هذه الحكومة التي تتروج الطرايش على ناحية وتحكم بأربع سنين! أحذوا جثة حكماهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولول يتصرفوا على باقي جثث العسكر التي أكلتها العيرين!»

الدموع رجعت نهطل من جديد يا حال فيما صرت أردد «ما قلت لي أولاد حراية أين ذهبوا ودارهم ماذا دهاها» مسح دموعه بكه الأوسع وحشني قائلا «هنا! وسأقول لك كل شيء» ثم تحدثت كلماته فعلى لي العجايب. «النار - تحيل يا جدد - صاجرت على الاقتراب من دار حراية ولاند أنها هي الأخرى

تحاف وبهذا حشيت رأس خرابية! هاجرت دياره! وألقت بنفسها بعيدا عن الجدران الواطئة التي كانت شواشي القش على رأسها تصطبغ بطلاقات الرصاص! والحصان المشتعلة تهوى فوقها موهوجة! وديار خرابية كما تغتم بحميتها ظهر للجبل! إذ هي تقع حافة بين مسحة من الدور يناها أصحابها من عائلة خرابية على مشارف أراضيهم الزراعية فكان أنجل يصعد الذهب بصدره! وحين هممت النيران تماما صباح ذلك اليوم! وبدأت السماء تحسل نفسها من بطح الجحيم! وسحب الغبار والدخان المحترق! حيث ساعدت الأشجار العالية التي لا نهاية لها! والبرود الكثيرة على استنشاق أنفاسها وصار من الممكن أن يمضي الناس في الطرقات! كان التلقي قد وصل بآمك إلى منتهاء فراحت تصوت وتلطم وتجفر طالبة خبرا عنك وعن أولاد خرابية! إذ أن الحريق لمي نظرها شب من لحظة ما وصلها خبر الطيف على خرابية! أما لحظة أن وصلها خبر مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجمع! ولقد ماتت بالفعل مرات عديدة! وبرت فيها الروح طالبة أولاد خرابية! فذهبت بصحبة أبي إلى ديار خرابية وصباح اليوم عن الشروق فالتفتنا روجة خرابية الأولى في احتفال كبير وأكرمنا أحر كرم وعادرت جميع النساء المعربات حارجة إلينا متعصمة مانشاش الأسود عارقة في السواد إلا وجهها الكبير الأبيض كالترعيف الملاحى المرحوح! بعينين وسعتين ررقوين في قلبهما كرتان صمغتان من سواد الثوب والشاش والبالى التي فضاضها خرافة معبدا عنها في أعماق الجبل! كانت جميلة كالنمر ليلة تمامه! قوية كثور معلوف! مسرجلة

كشبح قبيلة! قالت لآمك بكل عدوه وإنران - ماسية أنها أم صرتها - ورطوبة النمع في عينيها وشفتيها كاوراق الورد تطربت قطرات الندى لتوها! وإن سعيدة قد أصبحت اليوم في مركز خرابية بالنسبة لآلهة والعائلة كلها! إنها هي التي سبقت كل رجال العائلة وقتياتها لتتسع عن العائلة عارا لم تكن تنموه السنوات وإن طالت! وكتب على هذه الحائلة أن تبقى إلى نهاية العمر مسموعة حاضرة في الكبيرة والصغيرة! سعيدة حققت عيالها كلهم بحقنة الرجولية والشهامة والفضة ستظل في دم الميغال تصرخ في العروق! إذا كانت امرأة جذكم خرابية قد ثارت له من الحكومة نفسها في عقر دارها في أجمعين جميع فيها فماذا ينتظر مما نحن يا رجال ويا شباب! هي لن فتيات المائلة كلها بهذا الفعل العظيم وإنى ثوفنة أن روجي خرابية حين أحسبها وتزوجها فوق! إنما كان ذلك بوحى إلهي إلى خرابية ليس يختار أي أحد! من يشروعها خرابية لا بد أن تكون دافئة من أعظم الدواهي! إن سعيدة لم تعدتكم عن شروط عقد الزواج الذي تم بينها وبين خرابية وهو عقد آخر غير الذي قرى عليكم ليلة العرس لمي بين شروطه الاتفاق على تنفيذ الشر في موتها في الحال وأن من تواتيها فرصة المبادرة بالمصلحة عليها أن تلبس ثياب خرابية وشخصيته أبد العمر ولها أن تحتل مركزه تحمل مكانته نحن محل في الجبل! إني ضمنت لبرمة قصيرة باعتباري أم تيز أولادها وإنى لنأتمه عليها الآن كل النعم! إني لأحسد سعيدة قدر ما أحببتها! لقد سرقت مجدى الذي قضيت العمر أحلم به! أن

أكون أو امرأة تمتلئ بهوة الجبل تسكنه بين المطاير الرجال
سعدية لكن هي الرجل وعيالها في عهدي أنا هي أمينة لن أهرط
فيها لأي سبب من الأسبب إنهم لا يد أن يكون عيال حرية يحق
وحقيقى ولن يكونوا كذلك إلا إن تربوا في عهدي تحت رعابتي
أسقيهم آباهم وأهلا وسهلا بك أنت الأخرى يا أم الغالية والله لو
أكرمتني يا أم الغالية وأكرمت روج أمك تحت ثراه لبقيت معنا
في هذه الدار أنت وأبنتك إلى آخر الأيام

فلما سمع «هليل» وأبوه هذا الكلام الطيب انصرفا على وعد
بإحضار جدة الأولاد لكن تراهم وتطمش بنفسها.

ثم قال «هليل» وهو يحود بي وراء الجمال إلى الكوة التي هي
دارهم الكبيرة.

«وعلى كل حال فالصمد لله أنك ظهرت لتذهب معنا لرؤية
أولاد أختك».

وكان واضحا أن دارهم هي الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأولى - قيام العجل

استقبلتنا «بهانة» زوجة «حراية» الأولى ففتحت لنا المذبة
الكبيرة وتربعت أمامنا تستقبل وفودا من الرجال والشبان من
المائة والعائلات الجاورة. جئنا بالغداء خروفا مذبوحا لتودد
فصرونا مائل وتفرج على أولاد أختي يمرحون في الدار لاهين.
غير عابئين حتى يوجونا فاستمجت والله يا حال. واستعجت
أمي. كما استعجب «هليل» وأبوه من الولد الذي قتل أبوه من
أيام ونفيت أسهم طريدة إلى الجبل. ومع ذلك يمرحون مع الأولاد
يلعبون يقعون. وأمي ترى ذلك لتتردد إشفاقا عليهم. وتسع من
عينيها الدموع. لكنها في النهاية مسحّت دموعها وصارت تتكلم
مع «بهانة» في أمور الدنيا والدين وألعاب الرماح. وثلاثة الأقدار.
وغد الأيام. وعندما أدت العشاء قامت لتنسى. فقامت «بهانة»
لتنصلي خلفها. وقمنا نحن لتتصرف مملكت «بهانة» بطرية العزيز
الغالي. أن أمي لا ترجع معنا وأنها تظل مقيمة في ديار «حراية»
حتى ينتهي من بناء دارنا على الأقل من مهلنا

«بهانة» شخصية ليس من السهل تضيق خلفها يا بوي. كما
كأن ليس من الصواب نصيغته وليس من العف مجدلتها في أمر

فعلت بما عها دونه فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمي
وشعرت وأنا أطبل السلام عليها أنني أودعها لمعية طويلة لا
أعرف عنها شيئا بعد لكنني سوف أعيب، قلت لها يا كايا «أدع لي
يا أم» فأنبرت تدعو وهي تقيم الصلاة في نفس اللحظة وتخط
كلام الدعاء بكلام الإقامة

في طريق العودة، ومن ثلث حول جدع الجبل في سفحه
السحيق كان القمر يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا،
وينسحب من فوق شواشي السحاب، لينظر متلهفًا، ويعود
فيتخطى وراء موجات من الدخان الشبهية بالهياكل الرملية، فلما
لم يجد القمر أخطارا في سماء الليلة، أظهر جزءاً كبيراً من كتفه،
فصرنا نرى النقيان الرفيعة، والصخور المتخفية، والحفر المتكررة.
والد «هليل» استنطف صخرة كبيرة كأنها أصبع في قدم الجبل،
وجلس فوقها، فجلسا جواره وورع سجايره، وجعلنا ندخل في
صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا شهر أبيي وتدحل معي في
حرار ماسخ ثقيل الدم وأن أياها من الجسوس تريد أن تتحالف
مع علي العيش والملح، وكانت الشوكة المنقوسة من كنف القصر
تريد أن تواسيسي وتكلمني طائفة نازلة مع أمواج السحاب،
تخيلتها والله تقول لي صيذك مقطوح ها هنا يا حسن يا ولد أبي
خب فارحل ما يام المحوس لس تنى تطارذك في هذا البلد وليس
أمامك سوى الجبن وأنت يا حلو لست في مقاسه أما مصر
المحروسة فهي واسعة لك فيها محارر ومسح للشقاء فارحل إليها
وفج بنفسك

ميلت على صاحبي «هليل» وقتلت له إسي مويت الشهر في أول
قطار يقف على محطة مصدفة. شوق صاحبي وأندھش أبوه
وشوح میده في وجهي غاصب «أجنت يا ولدي، حليک معي يا
ابن الناس» تشتعل مع أحبك هليل! إنه يحتاج لك في شفه ورققه
ورزقه على الله بدلا من القومة في بلاد الله رفعت دراعي قاتلا
بصوت قاطع «ولله» أن أبقى في هذه البلدة الخراب سعة
رمس واحدة! وإن كان ولدت يا صاحبي حقد فليسنفسي أجرة السكة
أردعا إليہ بعد أيام! وإذا لم يفعل غردسي سارکب القطار بدون
تذكرة فوق سطحه! فقام هليل وحضمي وبكي كان يعرف أن
مخي ناشف كالزلطة، وأنه سيذهب من الكلام معي، فقال
«خلاص يا هم! لكن أتسافر هكذا» وأشار إلى حقائتي البالية
المصبوعة بالدمع والوسخ. قلت «لقد اهدمت دارنا فوق
حواشينا» قال «وشياك أليست ثيابي غشايي إدي ثيابك» قلت
«طبعاً طبعاً قال، رقم معي لهد الدار» فقبيا معا إلى الدار
فأعطاني ثوبين وقميصين وسروالين وبنمة صفراء عشيقة ولبدة
جديدة وخمسة جميعيات بحالها وأوصاني بعدم قطع الجوابات
فعلامته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأحتى هندية
ومميت فمصي حفي «هليل» عارما ألا يتركني وحدي في هذه
الساعة المقطوعة وكان شمع دراعه المرفوع بالتلويح يتراجع في
ظلام الرصيف المتسحب تحت شبك القطار

الثانية - الحضور المباغت

صدق من قال إن الأرض كروية يابوي - وإن الدنيا دواررة.
فمن الذي جاء بالواد «بريش» رفيق القمار في «مصر عتيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد في محطة «صيدة»؟ ما كنت أجلس والقطار يسلك من بيوت البلدة ويرتج في سزارعها حتى سمعته ينادي على من الكرسي الملاصق للشباك المقابل. يهرب منك يا بريش من الذي جاء بك هنا يا ولد يا شقي؟ تمالأ القعد هنا جوارى. لم أكن أتوقع أن يجيء لكنه جاء ترك كرسيه للجوارى للشباك وجاء يمشى بجوارى. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البتلة الفخيمة التي يلبسها أو على الأقل سيستاء من قولتي «يا ولده أمام الحلق من الركاب، بدون أن أحترم بذلته ورباط عنقه المصوبك وشعره المصلف الناعم اللامع كعدائه الذي لا بد أنه لاشغلة له خير تلميحه سرى في عروقي شعور مناسف يقول لي (مسي كان يجب على احترامه أمام الحلق فأكلمه مقلما كنت أكلمه في «مصر عتيقة» قائلا له يا وحيد بيك - (الاسم الذي محل به على أول يوم وبنائه به الرفاق دائما). لكنني عدت تمشعت بالخوف يابوي، شئ إلي في نفسي قال لي. خل بالك منك يلحمن.

قرينا مرانه يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه التعممة لينش ما معك أو يصيب عليك نصبة، خصوصاً أن قرصته والقبر فأنا أعرفه ولما يلعب بالبيض والهجور وكان هو الذي يتحدث باسم رفاقه ويرسم لهم ما يفعلون وفي النهاية يسرقهم في لعب القمار بحقة يد فيها ألف حاو شاطر. وكان يزعم لي أنه صعيدى الأصل. غير أنني لم أكن أصدقه أبداً، لأن وجهه نحيل أبيض، طويل الأنف، ثقيل الجفنين، أرق الصيبي، مهيئ الضعة، لسانه طوي ناعم، وصورته رنان عرب، كائن مهيبة من ألف جيب، فكيف يابوي أصدقي أنه صعيدى، وليس فيه من المرحلية قلامة ظهر؟ خذ منه كلاماً حلواً من هنا لعد الصبح يملأ دماغك فتصدق أنه «بيده فعلاً» وهو في حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الراد من أيام عديدة. ولحظة أن تصدقه يكون على الله العوض فيها معك من نفود وجواهر وأشياء ثمينة تستحق البيع أو الرض، إذ أنه سوف يقودك إلى دارك تسلماً لها له من طيب حاطر بن ربما استأمنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكي تحضر له بلوداً كثيرة قد يحتاجها. ذلك هو «بريش» الجمار المسجل حطرا في دفاتر الشرطة

ورغم أني عرفت حقيقة أمره بعد ثلاث قعداات في مقهى تلك المرحومة بـ «مصر عتيقة» وجئت نداعه. إذ عرفت اسمه الحقيقي، وحارة ترب عجور التي ولد وتربى فيها، لأب ماسح أهدية، وأم تعمل بالأنة، فله مع ذلك، كس كثيراً ما يحاول أن يبيع لي

اليكوبة، وأر يلمس الطرطور، يقرطس، لكن أعطيه وضعه أمام الحق، حتى يتمكن من الصب عليهم على راحته

ذلك يا بوى كان أول شلة «صمر عتيقة» التي يسميها أغلفت القهى أما «عرولى» - ثانى واحد فى هذه الشلة - فإنه من الصمعد فعلا والصمعدية واضحة عليه وفيه، مزمع أنه أوجه من مريش، وأجس وأنق، يتصوره المرء مثلاً من أهل السيمد يعبر ملابسه باستمرار، هيجئ كل يوم ببذلة جديدة نظيفة، يعكس مبريشه الذى لديه بذلة واحدة يعتنى بها جيداً، ويحافظ على نظافتها و«عرولى» كبير الدماغ يابوى. غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما كأنهما لورثى قط، تطل منهما مخرات صمعدية، تلتصص، تلبد فى حلول الدرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر إذا تكلم فبصوت عال رنان، يطلب منك أن تجعل بالكه صمه لحظة واحدة فإن ملته بعد لحظات تعارك معك، فإن تعارج هاج، وأرقى وأزبد، ويرطم وهلضم ويوط دور اللطم، وربما دفع الورق فيعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصمعدى المموج المشط لا يكف عن البرطنة والجمجمة تصلف اليمين أنه صلاح صمعدى يتعارك عند الساقية، لكن سريهما ما يهدأ يا بوى أما إننا عرفنا خلفه، فصوحت فيه بعف وأظهرت رعلك، فحيث يعتذر بنفس الصوت للعالى ويطيح حاطرك مردداً «خلاص يا بوى» خلاص يا بوى حفاك غليماً» وكان أفضل عندي، أنه ربما يكون من عائلة صمعدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلحق بها القمار، يشتري ماصر الثياب يعطر كل هذه العطرطة حتى أما صمعدى

٢٩٨

أكثر منه يا بوى، ويقع فى المليات بسرعة، لكننى أعرف كيف أخلق قديمى قس الحال يا بوى، قيل أن تنحدر فى الوح أو أنكفى على وجهى قمتان ثلاثة جمعت فى دماغى بمصر كلام مما يتبادلون مع بعضهم بطريقة التسميم للكشوف، فهمت معها أنه ولد مخربش هو الآخر، وللحربش يأتى بالنقود من جميع الأبواب. غير أننى لم أكن عرفت بالضبط ماضى هذه الأبواب يا بوى، إما عرفت أنها كثيرة أمام الولدان المحربشين الذين لا يتقوى الله فى أنفسهم أو فى دينهم.

الدور والياى على «بسموسة»، ثالث واحد فى هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوى، أقصرهم قامه، طوبه مثل عرضه، مرغيد، مفلطع، كبير الوجه، يمتلئ وجهه بالدم، إلى حد احتشاء الخدود بين السامح، إذ ترطب خدوده على هيبه، ويضيق أنفه الدقيق فى حنك واسع، غليظ الشفتين، هارى الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصطف، مذهون بالزيت، ومموج قليلاً على الجنب اليمى، هو الوحيد فيهم الذى يلبس جديداً، وجلبابه دافى نظيف وتطبيق الكراة مرسومة عليه، تقوچ منه رائحة خزاز الشب، مريح من الطيب والنفثالين، ياقة الجلباب كبيرة وواقفة حول رقبته التخينة المفلطة، للجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبقة فوق بعضها، فوقها علبة سجائر هليود لارج، وفى بصره الأيمن حاتم دعوى كبير بطس فيروز أزرق، وفتحة الجلباب طويلة واصله إلى ما فوق الصرة بقليل، فالتته البصاه

ظاهرة من فتحة الجيباب مظيفة، يظهر من قطبها الشفاف شيان كبيران كثبي امرأة نذابة، لدرجة أن القناة الفاصلة بين التبيين كانت تنوهني أحيانا فأنله امرأة. وكان هو بطراوة حسوته وبصومة حركاته، وذبول مظهرته، يؤكد لي من طرف حتى أنه بسكويته، وأن هؤلاء الولد ياكلونه يا بوي. عن شغلته يقول إنه معلم. معلم مانا، في سوق الحضار متلا، صاحب محل؟ هو معلم والسلام، معلم معلم، كن عشرين مطما في بعض، مالي أنا؟ المهم أن تدفع لي ما يصير من حقي طرفك. في هذه الناحية لم يكن بمييه شيء بصراحة يا بوي، هو الوحيد الذي لم يكن يجادلني في الحساب، إذا قلت إسمي أطلب كذا. وكنت استطيعه، لكنني كنت نالفا من طبيئته هذه، وكان الشيطان يصور لي أن هذا الولد يقف في صلي المرفض لي نفسه

الوحيد فيهم الذي كنت أحبه بحق وأراه مسترما بحق هو الولد «هندي» كان أرجلهم يابري، ويوارد الرجولة تظهر في سمته النائم الذي بلا مهدية، حيث ينام شاربه المصماء على شفتي رفيعتين حلقا للأطباق على بمصمها، كحفنة الكيس، ولولا الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، من كثرة اسطباق الشفتين يتصدد ذقنه داخل العكيز. من فوق الشارب يستقيم أسف رفيع مدبب، ملتحق ببجبة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها ومن جنبها فلا يبقى منها إلا مساحة عارية كقطعة الجبن السمبوكسة التي يسمونها الظلمتة. إن ضغلت عيناها يفوس

أصبحت فيها يلمؤها بالتجاعيد كانت هذه الجبهة تبقل تكاد ترسل بقايق الرعدة للونة حين يقضب، أي يتوتر من اللعب، أو من كثرة الكلام الفاضل معه، إذ تتراج هذه البجبة إلى الوراء مسطوحة، لتصعد من تحتها عيان ذكيتار، ليستأ في حاجة إلى لسان يتكلم، إذ هما تقولان كل شر، بعير لآ ولا عجب كنت أعرف أنه ماء من تحت ثوب يا بوي، ودافية من دواهي الرمز، هو أصفرهم سنا، لكن دماقي حكم حال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم عتلا، لشدها بصاحة، أكثرهم فصاحة لهنا يا بوي كنت أحترمه أكثر منهم جميعا وأراعي شعوره عند الكلام معه، وأراعي كبت الحد والمصلحة، وقلبي يحدثني أن هذا الولد ربما يكون لي معه شأن ذات يوم، وربما اتحدته صاحبيا وفيها لي في هذه الفربة البعيدة، والذي يزيدي احتراماً له يا بوي أنه كان الوحيد بينهم صاحب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فيه، وتراه وهو يعرق مثل خلق الله العاملين، شغلته فعام، له في الفسائط ورشة يصنع فيها الفحم على يديه، لكن يبيعه سفاهي ومجلات الكباب، بأسعار مريعة على قد قصصا الهيد، الذي يشيخون أنه يشغل يعود الكبريت وهو يكسب كثيرا من هذه الورشة، ويتكول طول النهار إلى عهد متفهم الوجه، لا يساوي حردلة، لكنه في لحاء يخرج من للحام أقنينا معتبرا، تهفف الثياب الثمينة على جسده، ليصرف كل ما كسبه طول النهار في قعدة القمار



قال باسماء: «لكني أجهلك تصنع أنني من الصعب الجوى» قلت بلهجة ذات معنى غطيتك بالطيبة «كنت في زيارة أم من مهمة» لكروى مكوته هي جيسى نكرة موجهة وقال «دئ ودئ» وكنت لهجت كانه يقول لى. «إسكت ساكت»

الثالثة - النقا. الزبانية

سكت بالفعل يا بوى علما فات يانع السميطة اشترت سميطة وقطعة جى رومى، وبضيعة مسلوقة. وعزمت على صاحبى فقال به شعبان ولكن لا مانع من لقمة صميرة يغير بها ريقه ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة في فمه، وبقطعة الجوى الرومى كلها، فاطبقت يدي على البيضة، حتى طويت اللقمة في فمي، وطوحت بالبيضة كلها وراءها، ولقت الحمد لله على ذلك، واشعلت سيجارة لك من عطيني، ومن شدة هيطلي على الحركة التي فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج عليه وأشعل واحدة. وجاء من بائع سرج ببيع الفوخ في سلة، فاستولف «بريش» واشترى منه مره كيس من الصوخ، وحسبه في هجرى لسانا «كل يا أبو علي»، ثم حاسب المائع وصار يمتقي ويقضم بشراة ويستمتني على القصم. فصررت أعمل مثله وأيا نادى على حركتي المافضة تلك

جاءت محطة فوق فاس ودعسوا نحو الأبواب، عملت معظم الكراسي من حولنا، فاستقل «بريش» إلى الكرسي المواجه من دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالنولد «عرولى» مجلس جوارى مطبق على كتفي قائلا «إريك يابو علي» والله رمان! ماذا أقول يا حال هزرت في الأرض من الدهشة «عرولى» هو الآخر هذا في قطار

على سجانر بلومت كبيرة منطلة رعدتى في صدري برفق، فاستيهت إليها، فركض قنبي لمرأها، وسكرت رأسي من رائحتها المطرة كانت يد «بريش» - أو سعادة البية - ممدودة بالملحة، فلمعت في أصابعه الخواتم الذهبية. فتفأملت حيرا يا بوى، ولقت الحمد لله لى بورطلى في أبى مصبة، إذ أن حالته متغيرة سميت سيجارة ومددت يدي لأخراج علقة الكبريت، فأسرع هو ستملا ولاعة ذهبية، خضمي صوتها، وسهرتني لكتها واتصاف شعلتها كورقة ورد مستطيلة، أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها في فمانيش بلذة كبيرة، وقد بدأ الحرف يشرب مع الدخان. شئ إلهي في نفسي يوحى لى أن مثل هذا الشخص كلما أرباد كرمه كان ذلك حشرا على أنه يحكم حوك شياكة الخطيرة لكن صوتا يشبه صوت أبى صاح في بماغى ساعرا إيش تاحد الريح من البلاط قلت في نفسي صدفت والله يا من قلت هذا، قبل كان «بريش» ريبا كاسية فانا البلاط ولن يومه مى شئ. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصررت أحن في لذة، ثم تذكرت، هبترته «قلت لى ما الذى جاء بك في القطار الصميد»

الصعيد؟ كيف يابوي! هو مسعدي الماركة معم لكن رويته هو الآخر الآن أمر لم يجر على بالي أبدا. حسرت أقول هذا ناظرا إلى «بريش» وإلى عازاهما بيتسما لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر يابوي، فلا بد إنسأهما مع بعضهما من الأول يابوي. أنا مثلهما ولد محرش ومتلطم وناصح. صوت في رأسي قال. ولكن غزولي ركب من هذه المحطة، صوت آخر رد قائلا هما معا في مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من محطة نظرت فيهما من جديد وقلت «عال عال الحالة رائجة كما بيبي لي!» لطمني الولد «غزولي» بكفه فوق قناعية رأسي بمراح قائلا «طول عمرها رائجة معنا يا صعيد يا فلان» تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت «على حيرة الله! ربما يوفلكم»، صار يا بيتسما، فاحسست أن وراء هذه البسمة شرًا لم يكتشف لي بعد من ولد الفطوس هؤلاء.

محطة أخرى جاءت لمغربات القطار من فيه واقتت فيه بطفة أخرى من الحلق وإن هي إلا برهة، حتى فوجئت بكل من «يسبوسة» و«هندي» مقبلين نحونا، صائحين في نفس واحد «أهلا أهلا أبو علي! والله ماعقول!». وفتت على حيلي رافعا برعي صائحا وقد ركبني قرع مفاجئ «والله ما ماقول صح؟ والله صح ما ماقول! إيه يا ولد الأبالسة أين كنتم تقفون في بلاد الصعيد! ألا تعرفون أنني عمدة الصعيد! وكان الواجب أن تأخداوا الإنسان من قبل أن تغلوا». أخذت الولدين بالخصن وأجستهما جواربي، فصرنا جمعا، وصرت في قلب «مصر عتيقة» في المكانة التي كنت افتتمها حقها، هؤلاء الولد يلعبون القمار عددي، وأنا

لرافتهم لقبص الكرتة على كل دور يلعبونه لصمى الرمن يابوي، واختتت اللحظة التي كنت فيها، وحضرنا ما همى كله، لكنني طويته بصحة من يدي على رأسي، وبهرشة عابرة فطت إلى أن أربعتهم كانوا في مشوار يسترقون منه، وسرح خيالي بعيدا، صار يتحبط في دوايح كثيرة، وفي النهاية اغتظت من نفسي ومنهم يابوي، قلت لنفسي هذه من في قلب الصعيد لا يعرف تكسب مليا! وسكان مصر القاهرة يجيئون لتكسب من الصعيد! ألا لعة الله على وعلى حظي السيء، هؤلاء الولد لا يد أنهم أشطر من يابوي، وأنا معترف بهذا، ولهذا شبت بهي وبين نفسي أن أكون في رفقتهم على أعرف كيف أسرق من مصر القاهرة، فمن جاور الصعيد يسعد.

جاءني صوت الولد «هندي» من آخر الكرسي يقول: «يا شحالك يابو علي؟ مابنا تشتل اليوم؟» انشرح حسري والله يابوي من هذا السؤال وأجبت «هندي» إذ يسألك وقلت «والله يا هندي ياخوي أنا الآن أمر والعياد بالله ما يام بحوس كتيبة الخلفة! لا داعي لذكرها فالشكري لغير الله مبدية» قال «يسبوسة» وهو يتحسس ثيابه الكبيرين برضاة وطراوة صوت. «لما لي أين تسافر اليوم يا نري! وراحت مشوول معين؟» قلت: «لا والله يا يسبوسة» إني قاصد وجه الكريم ومن يقصد وجه الكريم لا يضام «قال «عزولي» عندك مكان ستتوجه إليه؟» قلت «ماعندي والله ياغزولي سوى الستة» قال «برش» «عندك مكان تبيت فيه؟» قلت: من أين يابريش ياخوي؟ لقد تركت الفرمة التي سكنتها في

اصطبل عنتر منذ يصبح سمعنا! ظننت ان الله لن يكتب لى عيشا فى مصر القاهرة ثامية. لكن العيد فى تفكير والرب فى تدبير! وما انتنا عائد إليها رغم أنفى!

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بريش» فى ثمة حاسمة. «حلاص حليك معا وورقت وورقتنا على الله». قلت: «أنا معكم من شوشة راسى لحد أظافرى». قال «بريش» وهو يلوح بيديه فى ريق كبير ديلرما أولا أن يعرفك على رجل مثل السكره! يجهك هو ويملا دماغك». قلت مشوحا بيدي. «عرفنى على الجن الأحمر! الجن الأرقق لو أحييت». قال. «هو جن أى معم مافى ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا». ثم صحت فضحكوا كأنهم فهموا. أما أنا فإن الكلمة لمبكت مافى يابوى وعجرت عن فهم مقصده بالفلهوة. فقلت حانقا. وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين! قال «بريش» اللعين! وما الأحمر هو هدها - وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء ألحجة قامية - ثم أضاف «والأخضر هو هدها - وخرج من جيب البطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مرفقة مبهجة يا بوى.

رقص قلبى ورفرف كالصفور بجناحين كبيرين. فمشوحت قائلا فى طرب وشوشة «أنا مع الأحمر والأخضر والأرقق وكل الألوان الملونة بالمسلاة على حضرة المي!». فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل بناء محطة الجزيرة، والمدينة تتلبسنا شيئا فشيئا، فلما مرلنا على الرصيف سرت فى أثرهم لاهتا. أحشى لى ضيعوا منى فى الزحام متضيق المقروضة من يدى. لم أكن قد

صدقت بعد كل ما قالوه وظننته فلك مجالس فجعلت كعبي فى كعبهم حتى غابونا للرصيف وهرب فى الشارع الموارى له، فإذا هم يتجهون نحو عربة كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتصوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا فجأة من سناجحتى ويأمرؤى بالردول، بعد برفة جاء سدائق عهون من مكان صا، فركب وأدار للمرك فطلعت العربية وسارت، وقال «بريش» بلهجة أمرة «مصر عتيقة يا اسطى»، لكن شيئا إلهيا حدثنى بأن السائق يشتمل معهم وأنه كان فى انتظارهم حسب موعد هذا القطار. لكن «بريش» لا يزل يستهزئى شريبا عليهم فيليبسى للعمامة، يقرطسى لمصطنها اعترفت لنفسى أن «بريش» ولد جويط بالفضل ويجب أن أحسب له حسابا، كى لا يوقمى لى شر أعالي.

صارت العربية الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تضبط بينا وشمالا. والسائق كالمهولان يتلوى بها وبنا ينعرج يستطف يخطفه ولا يستعمل رمارة التنبيه، كأنه يقضى من لفت النظر إلى الأجرة. شئ إلهى أرعشى وقمس على قلبي بكلايات من حديد، وقد ورق فى دهمى أن العربية لابد يكون أنيها مشروعات خطيرة، أى مشروعات. وهذه المجموعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظنى يقول لى إنها مشروعات، ومضى الصعيدى يقول إنها أسلحة ودمجيرة جاءوا بها أو بثمنها من بلاد الصعيد. الكتب خيبة باموى، «أنا لم أر معهم شيئا يمست بالبد، فهو أننى لم أفتش شامهم يابوى، ولم ألحظ فيها جعبة أو انتفاحا.

فلما انتهت إلى ذلك حمرت أنتحك لميس يلتصق من، فأيقنت أن
جنوبيهم صليبة يا بوى وميها هائل كبييرة قلت رينا يستر،
ورميت عن نفسي كل قلق، نعتت صدرى واشعلت سيجارة
وكانت مصر عتيقة تشغل في حياتي بى وتزحف على صدرى
بقراطين من الضوء انغمص العينين، مرابه بعث المنك في روى
غير أرى لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقروء
مهانين متشعلقيين في أبواب الأنوبيسات قلت لنفسي حظك من
السعد يا ولد أبى ضب، مكتوب لك عيش في مصر عتيقة، رغم
أنك وأنفساء أه يا مصر عتيقة، نهلك بالأمس مهبض الجراح
أشمى على قدمين دالمين واليوم، أدلك راكبا سيارة بعيدة عن
شوارع صمدة بلدتنا، وفي عروة من الصحاب، وغدا أحبك في
مؤخرتك يا بلدة كلها فرع وطبخ من كل لون.

الرابعة - الباب الخنوب

على مشارف السمياط، هدأت السيارة، ثم ركعت على
الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة
أربعة أفدة بالراحة يا بوى

مزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومضيت خلفهم
بجوار نيل السرياق القروء على هراسيد من العشب، فيما وصلنا
إلى نهايته دخلنا، لا فاجأ بغاية هائلة، جدرانها وسقفها من قماش
القم، ومملوءة لثمها بضروب من أنواع البراسيل، بأشكالها
وأحجامها، والعديد الصردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات
كبيرة، ومراتب عالية، من رسات شكائر الأسمنت كهرم سقارة
الدرج، ورسات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأور
والسكر، ورسات كالعمائر الشاهقة من صلبات السمن والريت
والهيت والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندى لماع
لحصوها، يستغرب الثراء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات،
في شادر كهذا يا بوى. وكل ذلك مغطى بأحمال النقش والحيش
والقمع، لكنه نوع من التلطية يظهر المغطى أكثر مما يحمية. حين
ساعات هيونى وضاح قلبى في هذه الغابة المملوءة بكل هذا الخير

الوفير من هي صدري حوت يقول إن صاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ المنصر الكبار ولا غير ذلك يا بوي. إذ كيف يمكن لرجل معصيه أن يمتلك محرماً شديد الوعورة كهذا النحر يا بوي؟ وعلى عينك يا تاجر هكذا يا بوي؟

على أن الولد هندی، ما أحلاه من رجل، عمره في جميع عمرة فهمت مقصدها ومضيت بجواره وقد لمت عيني عن النحلة، ومضيت أعتقل الرعشة في ساقلي، إذ أيقنت يا بوي أنني موشك على مقابلة ذاهية من دواهي الرمس وآفة من أهوية الكبري. ظلنا مساهبين مسافة دأح الشادر، صعب المسافة التي مشيناها بصوره، فإذا بي أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطراً بالمشفولات والمشتقات والمقرنصات والدوائر والمثلثات الباب يفتح على الشادر، وسقف الشادر ملتصق بسقف أول ترأسية في العابق الثاني لا وصلنا إلى هذا الباب صفق «يريش» هي يديه صائح «يا حرج» فجاءنا من الأعلى صوت رقيق، رفيع ماعم، منى بالورع، تعود على التسبيح والتهجد، قتل مضوا يا أولاده نظرت إلى فوق، فإذا في الترسية رجل يتمسك بجلاباب أبيض نظيف جداً، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذي بدا أنه من الحرير يهفهف يتطاير حوله، دقته طويلة وأصلة إلى آخر صدره، لونه سارب إلى الصفرة، الأبيض والرمادي تشبه بقايا شاطئ من حفاء محترقة، وجهه سقيف، صنبل التقسمات كرقعة من جلد غير مدبوح، ملهى بالتداهيد، والشعر المهورش، المتشعث، القادم من خلف صلته وقوى حواجهه. صمق

العيين جداً، لكن شعلنا وامضنا على الدوم يطلق منهما، نشتني في كل بقعة في جسدي، أما فمه فلا يكف عن البسطة والبسمية، من خلال امتسامة دابله، تلعب تحتها أسنن ذهبية وبلاطينية كرو في سماحة، مع هزات من رأسه. «انطلوا يا أولاد انجلوا»

دخلنا يا بوي، فإذا نحن في دفلير دار من الدور الأثرية العتيقة، كنت أرى مثلها في مقابر الفراعنة، على بالصاحب الحجرية البارلتية، وينفتح من قلبه منور مخروطي، يشدك للخطر إلى أعلى، فإذا طيرت بصرك شامتت شببيك ومشربيات الطوايق العليا كلها ولقد فعلت، ففعل لي أن عيون من وراء هذه المشربيات ترقبنا، دخلنا باباً واطنا في آخر الدملير فود، به باب سلم جميل غاية الجمال يا بوي، يهوى عليك أن تفرش وتنام على درجاته الرخامية السطيلة اللامعة كأنهم يفسلونها كل يوم باللبس والمطر ما هذا المر كله يا بوي؟ ما الذي يفعله ساكن هذه الجدران له كي ينعم عليه بكل هذا القميم يا بوي؟

صحننا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يهفها فركهون من الحشب المشغول للفرط على هيئة سيفان وخصور صبرومة، لكن يدون نساء وقفنا على هذه البسطة قليلاً، حتى انزاح باب قصير القامة عريض من الحشب الثقيل، عليه مصططيلات ومربعات تشبه شكل صفحة المصحف بالضبط يا بوي، الحبال الناطق، حتى الذي يشبه الفوايس على هرامش الصفحات كان مرسوفاً أيضاً على الباب، ومنس انتكورت

مرفوعة، التي تفصل بين آيات المصحف. فلما دقت النظر يابوى، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سلخ الهامش مكتوب - بالحقر كذلك - أسماء الله الحسنى، أعوامى فقهاء يابوى، وأنا مع ذلك تعلمت فك الحظ من الولد وكليل الثياب الذي كان مسجوناً معى في زنزاة واحدة في سجن مصر القلعة، وببى وبين صفحات المصاحف سابق معرفة ارتعش قلبي في الحال، رقص، وقع في حبال شبكة من المشاعر الغامضة، لست بالله أعرف إن كانت هذه الرخصة التي سريلتني أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذي أراح به القلب فظهر متقبلاً نحوياً يهوى شبه الزبوة في وبر السجاسيد الكثيف الشعر، ويحط حاملاً مسيحه اليسر الطويلة السوداء بين يرقبيات وشوفيرات وبريريات وترايزيات من كل شكل وكل جسم وكل لون، مبدور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والحجر والنحاس، لأشياء ومسيحيس وغرنيشي وشيخ البند، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب ووطاوط وسور وجمارين، وعيداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مرفوعة على الترابيزة والمسطحات، أما الحوائط كلها فمغلقة بالاريا اللطيفية التي تعكس كل ذلك، ومن الأسقف تتدلى تعليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، مبهيا رخاوع ولبات على شكل بلحات، ومجانيات وكشريات، وعاقيد عبي.

ركبى الرعاش ثابية يا حال، هوقفت متمسكاً من مكاسى، وصحابى يدخلون بجرأة قاتلين «أدخل يا راجل» «مبدور» أن اشعر خلعت البلمة وطويتها تحت إبطى صغماً أسفل عند دخول المسجد مصحك الصحاب ومضحك الرجن حتى اهتر جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره قميص وقال «كوبس» كوبس» عملت الولجب» استخار ومصى أماماً وبحس من حنقه يتشر في وبر السجاسيد الباعم ومخوض في رسوماتها لمركشة فوق ميادين ومآد وإيوانات ودور، وقد عجيت ربه يا حال كيف يهوى على المراء هذا أن يدوس فوق هذه البعجة بأدمه ؟ ولقت لمفسى، ما الذى بقى من الجنة لم يستعصره هذا رجن إلى هذا المبرل المأمور» ماذا أبقى هذا الرجن سجنة يا ترى ؟ والجنة علام تكون إن بعد كل هذا؟ «هناك إنى خلق من عباد به أمثنا أولاد تسعة أشهر، يمتصبون الجنة من الله، ويركوبونه على الأرض في السر، مثل هذا الرجل العجيب الشار» هكذا قلت لنفسى وأنا ماض في ديلهم، ومظرى مسلط على مصحف كبير جند مفتوح، ومركون فوق بوزيه كبير معرض الحائط فوقه مرآة، وفيها بمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردي للشغول بالترجمة ومفنه الكريمنى بلور ياخرف سوداء منقوشة فوقه كالمصاميح، ما إن لامسته، تمزكا به، حتى تكشفت أنه من العشب لمصحف مفتوح على آية الكرسي، وبحوره برور كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بثحية طويلة، بيضاء متسقة جميلة الشكل، وزبيبة المسلاة على جبينه تحت هافة الطموش

الدخيل انحسودب قلنلا عبد القفا - من فرط المشوع لله فقط -
وساقده الرفيعلى من خلل الجلياب يحطوان فى ررق متعقله
متوارن، واساور الكلسور القطنى تحبك على رسخى القدمين
الطويتين. فلما عاب عن مظلوما سمعنا أبوابا تفتح وتغلق، ووقع
خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على السلالم خشبية جعجاعة.
يتداحن واحد حينها فى أصداء سالعه حينئذ قام كل واحد منا
فما عطف على شباك ركن إليه، ويعثر نفسه فى الريح فى العلاء
المسيح. راحمى الولده هدى، على شياكى. لاه فيما قال يعب
بهر الدين متلى ولا يمن من ينظر إنيه ويتمنى لو يقصى عمره فيه
ولو غربا فلكرته بكوعى فى عشم وقلت فى حسد حقيقى: «ويل
إيه ويتاخ إيه يابو العم؟». قال «هندي» إى دوام الحال من الحال
كما قال أهل زمان، فابعد قلبى رعبا نكد من صدى إلى العلاء.
وسألته ما هذا الرجل النادر المثلل فى هذا العصر والأوان من
طفول سلامو عنيكم.

فى فحيح يثقله حروف واضحة كتكتكة التلغراف نقمها
فهامة مجهولة فى سماغى، قال لي إن هذا الرجل إى لم أكن أعرفه
هو الحاج أحمد بورالدين السدى، تاجر حرمة فى الأصل
والأساس. لكنه فى العرف ابن سوق بشكل عمومى، يتاجر فى
المرد اللدنية لا بأس، فى العملة نفسها لا مانع، فى اليبى أدم لا
يمر، كله ماشى عنده، وريتا - يقول هندي - رضى عنه آخر
رعبا، إك حلكة ثروة لا حدود لها، من بينها هذا المرر الأترى، من
أبيه الذى كان من الأعيان الكبار، عن جده الذى كان قاضيا

للقضاة، عن جده الأكبر الذى كان هو الآخر قاضيا للقضاة فى
القساط القديمة أيام لا أدري من من السلاطين والنبوك، على أن
الحاج أحمد دور الدين السدى، وهبه الله قبولاً حسداً عند كافة
الخلق. يملك العديد والصفائح بيديه، فيحونه إلى ذهب قلبه
جاعد، يشتري خرج البيوت، ومحفلات الأسر الكبيرة التى أهلها
الرمس النسل وأجلى عنها الهند بحكم أن دجاج السدى فى
الأصل من هؤلاء القوم يابوى، فإنه يفهم قيمة هذه المحفلات التى
يتخلى عنها أهلها، لكنه يشتريها بتراب الملوس أو يعرف يا خال
أن هذه المستلكات النسيبة الأبية، إى لم يهملها بصيد كبير من
الينكوت الأحمر، نكل فهمتها. وتصبح كدمها، ميسر النخلى عنها
أمام احتياجات الجسد والنيطون، كما وأن الحاج أحمد نور الدين
السدى، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصبح تاجر حرمة وتاجر
النجار، فإنه قد مرل عن حياة طبقته ظاهريا، ليعيش بين الرعاع
والرعر والمرانيش والجسمدية من الصبيح والجراييع وأبناء
السبيل، وللعرشيين، وهائلة الأمر يابو العم، أنه بات يعيش
هياتن، يعرف أحلى ما فى علية القوم من النظام، والأحلاق
والتكليف الحماة وتبدير أمورهم، وأمور المفطرة فيها، ويتفعل عليها.
وهنما يدخل المراد ليشترى مصنعاتهم نصمية، فى حالة عورهم،
فإنه يدخل فى هيئة معلم جاهل حشر لطبع لا يفقه من أمور
الجنف الثمينة شيئا لا يعنى من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أى
شئ، لكن تريح نفسك من أى كلام نقوله بشأن قيمة هذه الأشياء
وجوهر أصالتها، سيقول لك بصريح العارية، أنه لا صالح له فى

هذا الكلام، ولا قدره له على فهمه، إنما هو مشتق من الأشياء باعتبارها أشياء من المحللات المستعملة، وكل محلف مسموع فهو حادثة، بدون ريدة أو نقصان، وأنه على الأصل حلقان صديق النفس مما أم فيه من عور ربما يسمر عليها وعلى ولاياتها، حد ما أنت في حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكونك الله رد لي ما أجبت. وأنت تجد أنه قد شمع القول بالفضل، إذ قدس بده في سيئاته الكبيرة وأخرجها من رمة كبيرة مطوية من ورق البسكوت الأحمر القاسي، يأخذ في عرها بسرعة. لينتفع به عدد معين يبرعه من الرمة هو على التصديق المبلغ الذي قدره ثمنًا لأشيائه. يحويه على بعضه، يدفعه في راحة يده، يقدم لك كفه مطوية، قائلاً «بركة بالصلاة على الصبر» لا تحاول أن تفتح ما أعطيت لتعده، وإلا جلست على مظهرن انهاسة، ثم إنك لن تفلح في تمتعه من هذا المبيع شجرة واحدة. حتى لو مدحت بنت مري، سيسلم لك بالأيمن المنطقة وبعد صلواته وصومه وفجده واسته الوحيدة التي يتصام من الله أنه مكارمك ومحيطك فوق ما تستحقه البيعة كثير. إنها ليست بيعة ولا حاجة إنما هي بركة منك وهذا المبلغ بركة منه وهو وصيبي مقصده، وحق جلال الله، شريف، إذ هو يريد - فقط - أن يبك عسراً. جعلنا الله ممن يفكرون عسر الناس، العسر عسر ومن عك عسر الناس فك الله عسره، قل يا رب، رح إلهي وما يفتحها في وجهك ويرزق مروق أولادك، لا تفرك الأرمه فهي مرفقة، وهي امتحان من الله يا رجل.

صاقت هلم استحكمت حلقائها مخرجت وكنت أظنها لا تخرج

وهكذا يأخذك في عشرة دروشة، أوطة. هي عوة، في حذوة، في كاني في ماني، تكون عرياته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق في انتظاره، ومارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستتراً بها يدك عصبا عت، يمسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنفيد على الحصان، ويده الأخرى يرت على ظهرك مطلباً حاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجياً أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أي خدمة في أي وقت أنت تأمره ورقبتى سداة لا يفرتك تمسكي في مسائل البيع والشراء فدى نفرة وذى نفرة؟.

ألفت يابوي لبرهة، فاندعرت، إذ وجدت أن المصاحب كلهم ملتصق فوقنا يتبادلون مصدا الحديث في نفس الشباك. فما هرفت والله يا حال معنى جاءوا ولا كيف عرفوا أما نتكلم عن صاحبنا «السمي» ولا كيف اشتروا في الحديث، إذ كل ما أذكره يحفظه أننى وهدى كنا ننهاس في سيرة الرجل، فمضى صرب نتكلم عنه كئنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلمس معنى والله يابوي، مبريش، وزع علينا نورا من سجايير الناموت وأشعلها لنا قاتلاً في صوت خفيض «على فكرة! الحاج السمي من الإخوان المسلمين! ولهذا فاهل المدينة كلهم يحبونه» إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين! يورع لركاة الملهل! ويشاع أنه من رعاء الوفد الكبار! وهو لا يفتي ذلك بل يتفاحر به كثيراً! إنا ما سألنا أهلاً! إنا الآن فهو عضو في الاتحاد الاشتراكي على مستوى المحافظة! وعصر

كذلك هي مصائب ودواهي كثيرة كثيرة إنما هو محبوب ما أحى
 وشوقي والمليحي وزكي رستم! «شهور كالخط
 وسخية» في الصباح قد يجلس في غمرة الخشيش بين
 - وبق من النصوص والشالين والهجامين يبادلهم موعة
 الجورة مفسد لدس نكهة مع ذلك لا يتحرج! فهو معروف لكل
 الناس وإن يقبض عليه الصلابة إذا هاجم الغرة» وفي الظهر قد
 يجلس مع أصدقاءه على سفرة الغداء يتباحثون في أمور البلد
 و سلع توبيها وشارعها ومجاريها ومساكن إيوائها ومستوطني
 مساجدها والمعجوبين في أوتوبيساتها الحرة» وفي المساء قد تراه
 في حفل أم كلثوم أو في دارها وربما في داره هو! إن عبدالحليم
 حافظ صديقه وقد رباه كثيرا معه ورأى هناك وكنا نمدح عليه
 وقد عسى في عيد ميلاد شحماء أبة الحاج! أنا مرة رأيت عنده
 الكاتب الصحافي المرحوم كامل الشناوي وكان يسهر عند الحاج
 كثير يعبس انكوشية ويقول الشعر ويمسح في خلق الله مرة
 ربت عنده - في هذه القمرة التي تقف فيها الآن - مصطفى أمين
 وقد رستم وحسن الإمام وجيل النصارى! ومرة أخرى إحسان
 عبدالقدوس ومديدة لطفي! إنه رجل جامد وكل هؤلاء يعجبونه
 في خدمات يؤديها لهم أن اصمالاته كثيرة وجادة! أما مرة
 رسلنى إلى المطار لإحصار هدية جاءت له من الملك فيصل! والملك
 الحسن ملك المغرب سمع له السلام في حوارات وكروت المعايدة
 وله أصدقاء في أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسفند القردود
 والسياح يجيئون للسؤال عنه همسالة عن صحة أولادهم

وأصهارهم وأهلهم! كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله
 الفتحه لكننى فهمت بعد ذلك أنه «تكلم حريف يسحر السامعين!
 وهو عفريت يا جدع! أسمعه يتكلم في التاريخ فانسحر مثلهم من
 وقرة المعرفة إشي قرعوبى وإشى قبعلى وإشى رومانى وإشى
 إسلامى! ساعات يظهر أمامى كالمجنون المحرق حين يتكلم عن
 الحميري والمسماري والبابلي والآشوري والبلاء الأرقى ففهمت
 أن السباح يتعشفون كلامه خصوصاً وهو يمشى بين المعرات التي
 مشيت فيها منذ قليل يا صعيدي يا قهف! لقد دست على سجاجيد
 يقول الحاج أن السلطان المغربي هو الذي اشتراها ولم يسعده
 الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها!»

وهنا فاطمة «يسبوسة» قائلًا بصوت طري من خس ضحكات
 متقطعة مصوصة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تآهات
 صارخة. «ألا تعلمون أنه من عائلة المشير؟» ضحكك رعما عسى
 لئلا في انفعال. «كيف يابو العم؟» ما الذي جاء بعائنة عامر
 الصعيدية إلى عائلة الحسن الصراوية. قال «يسبوسة»
 مستدركة: «أقصد أنه صهر لعائلة المشير! فأبي يست حالته متزوج
 من عائلة المشير! والله أعلم كلها إشاعات في إداعات ولكن الغريب
 أن الحاج لا يكتب ما يسمعه أبناء شوح وعرولى» لى وجهها
 بأصمعيه اللذين يستبدان للسيجارة وقال بثقة تامة وحق من
 جمعنا من غير ميعاد أنك جميعاً أقفال تريبس! لا تفهمون شيئاً!
 الحاج السمي يا هيل ليس اسمه السمي إنما السمي هذه فوق اسمه

تدريّ نقب جدهٗ، تفرّص «هندي» مامسا، «ليكن الجح الاررق»
 إنها دنيا ملأمة بالمعجب، المهم أبدا أقل حق الله عجيبا إنما بالمسبة
 لهم ملائكة أطهار « وقد «دسوسة» وهو يحسب منته وشييه
 «سمعتة مرة يقول إنه من أحسن مقربى» فقال «غزولي»
 متعجب «كان قبل ذلك من أحسن يمني» شوح «هندي» قائلا لهجة
 هفوس كبير «نحاج نسي بو سرخ بك في سرخة مروج متجلية
 سيثبت لك أنه يمتصلة قربي إلى ربنا شخصيا! وبو انشرح
 صدره قليلا عسجيء بك بشجرة العنلة العتيقة المبرورة بإطر
 من الذهب لخشول يريك صورة منها بحير حديث مفساها إليها
 يخط يده خطوط يشبه أوراق الشجر فيها أسماء مكتوبة حديثا
 يعقبها لقب النبك والباشا والعالم العلامة والإمام يريك كيف أن
 هذا المروع تروج من العائنة العلانية، فحلف هذه الأوراق وهذه
 الأوراق كوت هذه الفروع يسمعك أسماء في الوريقات تسمعها
 في الرديوي وتقرأها في الجرائد، بومح لك أن فلان هذا يقول
 لايه د ابن عمي، وأمه - أم الحاج النسي - تقول لأم عسي يكن
 يا بنت خالتي»..

تحلف اليمين يابوي أن دماغى صدرت كالكرة التي كانت من
 قبل هارعة من الهواء هباء من تلخ فيها بعماع آلي حتى تصجرت
 وصارت على وشك أن تتفترق من بعضها. أمسكته بيدي حتى لا
 ينلرط تنهدت من قهر بطي النعين، قلت «أهم من كل هذا يا أبو
 العم! ماذا يربطكم بهذا الرجل؟»

تيسموا جميعا يابوي، ثم ضحكوا يابوي، وانتهى ضحكهم
 بشحر وفتح يابوي. فكان صفائح مياه ساقعة انهمرت فوق
 جسمي قلت باسم كالاهل في الرقة «علام تصحكون يا ولدا»
 قال «مريش» في بهجة عمر مريحة فيها عمر و«هذا الرجل
 صاحبنا» حبيبا! يحب قعدتنا وبحب قعدته!، قلت «عال عال»
 كسبنا صلاة النبي! قال «بسيوسة» مقند، لهجة الأفلام «إنه أبوب
 الروحي يا جدد»، ثم قطع ضحكته المائعة فصارت ترن في
 صدره فيهنر وتتدهق أثنائه. شعرت أن الشك يشق كرة رأسي
 بسن الدبوس. ولم أفهم معنى عمرة «بسيوسة» فامتطت من
 نفسي والله يابوي، لكنني قلت، «كسبنا صلاة النبي مع مهارنا
 هل يأنس الله!» وقال «غزولي» وهو يشعل سيجارة «يقصد
 بسوسة أن يقول لك أن الرجل أخ كبير لنا! يوجهنا ويعاوتنا
 ويساعدنا على المعاش!» قلت «ربنا يساعدنا جميعا» من قدم حير
 بيديه النقاء، غير أن «هندي» تربع فائلا في عمر كعمر الساتير
 في المياه: «الله يكرم!» إنه يروق بالذ ويل ريقا! ولكن بعد أن
 يذكروا من الشمل والتطعيم في مشاورير ..

ضحك الصحاب وضحكت أبا الآخر يابوي، فعادتنا كرية
 الضحك من جديد يابوي، هربا بشال وصبط كلجاسير
 الساتير والله يابوي، إلى أن سمعنا وقع أقدام، فكلّف دموع
 الضحك ورحم نقرح أصواتها في صدورها بهتر بعنف شديد علما
 اقترب وقع الصلي، جلسنا معترمين مترمتين كل في مكانه فوق

شلتته كما النماطين، وكانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتشمس من جديد فتزايده وتزايد ثم انفتحت الباب يابوي، ليدهن خادم يرتدي جيباباً أبيض كجليب الشاموني ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشاً على رأسه ويحمل طبلية مهولة الحجم لم أر مثله من حيثى عند أوسع العائلات. فوسعنا لها ما أمكن فلم وضعها حمراً كالغراخ حولها لا تظهر سوى رقابها بأكتافها. تبع الحادم خادم آخر يحمل حنيبية محاسية أوسع من دائرة الطبلية فوقه نقوش ورسوم بالألوان مطعمة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمرجان وعين القط، وضعها فوق الطبلية. تبعه سبع من الخدم والوندان يحملون أطباق وقوارب وسلطانيات وأكراب وأباريق وصلات وشوكات مع سكانين كثيرة لامعة بمقابض مطعمة بالمعاج معرفت أنها جميعاً من الفضة وأن مخلقة واحدة من هذه تساوي الشيء العلامى، منظرها تحفة يابوي تحب الفرجة عنيتها وهي طول الأصبع. طست وإيريق من النحاس استقر عند العتبة ثم توافدت الروائح يابوي، مشويات ومقلبات وتخديعات ومحشيات الولدان كالقراير، فى لمح البصر زحموا الصينيتة بولمية تاهت عقولنا فيها يا حال. فى أعقابهم وصل الحاج وأحمد نور الدين السيسى، فأتى بجوار الباب برهة مرع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفا غيدا دسم الله يا أولاداء. فإذا بصيرات الله كله مرمية أمامنا يابوي، ومتاحة، ما عليك إلا أن تعد يدك وتشيع إلى فيك تحشر فى طنك، وأين هو البطل الذى ستمسح لكل هذا المقيم؟ حمام وسجاج وبط وكفنة وكباب وشرايح لحم محمرة،

ومهرجانات من سلاطات الحضار والباذنجان والطحينة نافيك عن الأرض والمكرونة بالنوع. كلُّ يا ولد أنت وهو يغير كسوف عالدار داركم كما تعلمون، هب للبنى، نزل على الأكل حنتك بتك حشرم البطور كالرتابين كالملايين، والحاج والسيسى لا بنى يتلقى ويقتطع ويرمى أمام ملاعقنا وأيديه وأحيان فى نعماء، رغم ذلك لا ينقص الحير فى الأطباق، فبالها من دكة كبيرة، ثم أحد صرب الملاعق فى ترسانة الأكل يفتت، وقلاعته تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمعنا قوة الحمد لله تطن من حوضاً مستدكرها فرمينا الملاعق وردناها متراجحين إلى الحلف بظهورنا، وأيديا مكتعة بجنونا لامعة الأصابع بإدام الطعم الدسم. بهن الحاج قائلًا تقصروا منهضاً جميعاً ومصيناً خلفه إلى حلاء السطح، فوجنا حفنة من الولدان واقفين بالسطح والإيريق، راخوا يصيرون الماء على أيدينا ورحب بمسلها، لمسحها بجفها بالعود، بتكرح بصوت عال نقول الحمد لله

فى حج البصر كانت الألفاق قد رقعت والمطبنة قد أجليت عن المنكر. وشهدت الشفت على راحتها من جديد فتمددت سيفاننا لكن الباب انفتح من تلقاء نفسه، ورحبت ترابيزة رجاجية جميلة على مهل، يدقها ولد حلى المتقاطيع، سهرتنا وبهرنا، فنظرنا فيها فإذا عليها براديش للشبائ والأكواب والسكريات جملها الولد فى وسطنا تماماً وتركها وأصرف. ليدهن فى أعقبيه ويد آجر بعمل العلقة مشمع مطوية، سرعان ما فرشها بجوار الباب وخرج. ليدهن ثانية بعد برهة حاملاً طبلية صغيرة محدقة، يضعها فوق

الشمع، يلحق به ولد ثالث في يده وجلق محاسن كبير فيه قحم مشتم مصهل، وضعه فوق الطبلية وخرج، ليعود بجورة عبارة عن جورة هند كبيرة بها بحش وبوصه من أعواد اللورد للجورة من الداهن، وضمها مغموسة في قلب دلو كبير مليء بقطع الثلج. ثم دهن ولد آخر يحمل صينية صغيرة عليها أكوام من الموز والبرتقال والتفاح والعنب. وضعها في الطابق الثاني من الترابيزة الفضية أم حبل، ووضع فوقها حرمة من الشوكات والسكاكين أعراسي منظرها بإحفاء ثلاث منها. لولا الرقابة الشديدة على من رملاني، ذلك أنا جميعا كنا نراقب بحصا البعض بكثير من الشك والريبة، وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفسه بأي شكل، تعلقت نظراتي بالنكهة برهة طويلة أحايير نفسي بأي تفاهة أبدا تدوق الحميم. فلما انتهيت وجدت بجوارى مباشرة دلو آخر، بمجورة الجوزة ثلثه موهمة بالدهن ليعسل.

ما كنت أملك بالتفاحة حتى كانت برصة الجورة قد اكتمل دورتها لحد عددي. وكان الحاج السني قد رمى أمام «بريش» بقطعة خشيش في حجم كف اليد قائلا «فلطح» فصار «بريش» المغترى يقتطع إصصاءات كالملائيم الصمراء الكبيرة يقرشها على الحجر يغطيه، يرض حوله النار كالحمص، إن كان فيك حبل فاشغط وأربا كيف تسفح هذا الحجر. إن فعلت سيصيف لك «رمية» كمنة الحمص فوق نار الحجر المشتعلة إنه مفتر في الشرب كم أعرفه لكن أصبح لي الآن أن «الحاج السني» أكثر

الترام، إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية باموي، بل إنه يغالط في الظن أيضا باموي، ويرغم بشقاوة أن دورا فاته لم يوبخ فيه حجرا كما ينبغي. ويتصافد أن يكون لحظتها قد أسلم البرصة لهجره لتوه، مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتمرك ولا يهدأ إلا إن وقع حجرا ريادة، وربما رعم أن الحجر كان مكتوما، أو محففا، أو مطلقا البيران، حتى يقول له اللورد الساقى بسماحة نفس رائدة «مد عيره يا حاج»، فيدبت على ظهر الولد في امتنان شديد ووقفة زائفة قائلا «هو يتلقف البرصة باليد الأخرى» «أبوه يا أبني الله يكرمك ويمصر بيتك! روح إلهي يكفك شر مرض»، وينفث الدخان من فمه ومضاريه في تباطؤ ولدة مكسلا «روح إلهي يفتحها في وشك تبتا وأحده».

بعد حجارة لا حصر لها، وأصابع موز انسلخت بلا هدوء وبرقالات وتفاعلات وغضبات، ووربت في البطون بغير وعي، وأكسواب شاي اندلقت في الطروق المصادية بعد كل ذلك اعتزل «الحاج السني» مرتكنا بظهره للسلطان ممدا ساقيه مضربا هررقهما قائلا «يعني ما عرفتشيش بالرجل الطيب ده»، وأشار بكفه بصوي، عهتف «بريش» مشيرا بكفه بحوي. «هذا هو حسن أبوضب» صاحب المقهى التي كنا نلعب عليها القمار أيام كانت تمسكنا الحكومة عدده، صاح «الحاج السني» في غبطة صينية طويلة كأنه يعرفني معرفة الأخ لأخيه «يه يه إرمت يا ولد ياهر علي! يا تلتيمت ألف مرحبا» كنت عين يا ولد من رمس!

حكيت له امرى من طلق اسلامو عليكم، فاستمع لى كما القاهى يستمع للابوكانو فى هدوء، ثم ابتسم قائلا «على كل حال انت حطك من السم انت اللى بين احوك؟ عدا تصير الاشياء معدن وال حال عال». وبرز من صيافته يضع ورقات من الاحمر القاهى وقال «حد» خل هذا المبلغ معك حتى تتيسر لك الاحوال، تلكات قليلا وانكشمت على نفسى كما الملق، صرت أقول «تشكر» تشكر يا حاج، ربما ما يجرمناش، قنطط فى بشعة حد»، ولكسى الصحاب كلهم من كل ناحية «خذ ياو، على» اسمع كلام الحاج»، وقال الحاج «صربا اللى اخوة» اتم ماكل من طبق واحد» لابد ان مصور الميش والملح». قلت «طبعا طبعا» ومديت يدى فاحدث النقود، ودسستها فى الحافظة، فى جيب الصغيرى، غير مصدق ان الذهب ترمى بفسها فى حورى، فكنا مرة واحدة يا حال. غير ان صرت «الحاج السمي» رحف مستلويا كالشعبان يقرصنى فى ابنى بكلمات تقول: «أكلنا عيشا وملعا معا يا حسن» فهو معروف عقاب الله لن يحون للعيش والملح». قلت «هو عقاب كبير يدير العلم». قال «هو دى المولى الكريم ان يسهل بعقاب كل من يخون العيش والملح معى» فليس من أحد حال عيشى وملعى او فكر ان يحون إلا وكان عقابه فورىا بفضل المولى العرير الجبار عر وجل».

لعب الفأر فى عبي يابوى، شرب الهى فى نفسى قال لى لى الرجل المعكروت يهدك من وراء حيلة الباب ههنا، ياترى ينوى

ان يفعل بيه وكيف لى ان اخون عيشه وملعه؟ يعنى ماذا، كيف تكبر هذه الحياة ياترى ومع من؟ ذهب الشتات بعطى يابوى، قشعورت ابنى ساسقط من الجنة إلى الدار مرة واحدة تحلف الجيمس يابوى ان بطى كركيت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، ورعولة تشبه سيقون دورة المياه حبيب يشبون سنكه فيهدر الماء فى فتحة الكنيف، كما تهدر بطى الآن. رن فى اذننى صوت امى، ماحلاوة بههر تاره، هظرت إلى «الحاج السمي» وقالت له «المش من جهتي يا حاج» فانا ولد أعجبك» اخون الميش ولكل! أحفظ السر» لا أنجبى الدعون الذى اكل فيه» ولا العتية التى أطلقها! كما ابنى لا اهنس اليد التى تطعمنى». وكنت أراقب وجه «الحاج السمي» وهو يستمع لى هذا الكلام، فاجده مرتضى املامح صحتسم اللحم والنظرات والسرور باد عليه من كلامى، ثم إنه قال «انت على كل حال فى مقام ابنى» وأما أصيبتك وشعرت انك أهل للشقة» أحب أن تعرض على كل مشكلة تصادفك» لاسألك بهون الله على حلها» وأوصيك بالصديق والصراحة معى لندرا تستطوع» فبالصديق والصراحة تكسبنى شهير أنك بدونها تخسر نفسك كلها»..

ارتعيت مرة أخرى يابوى وتغمص بالى وقتل لنفسى ما الذى يريده هذا الرجل منك يا ولد أبى خب؟ هل يشغلك عنده لى هذا الضامر؟ هل يرسلك فى تعذيب معصات؟ انتظرت أن يبوح الرجل بلمى يريح بالى فلم يفعل يابوى، فكر كيت مطنى من جدد وسار

الطعام كحجر الرخ فوق صدرى، فغضت أن أنكلم حتى لا
أحطرفه فسكت تاركاً دماعى يستريح على عنقى، وليس يدور
فيه غير صورة أمى، وأخى الصغير، وأختى «سعدية»، و«حرامه»
و«هليلك» و«بهانة»، يدهنون كلهم من بعضهم كالأمجينة،
ويخرجون من بعضهم واحداً وراء الآخر أفقت على الصبح من
حوى و«هدى» يلكرسى فى جنبى صائحا «يا جده بطل شجر»
الرجل يكلمك وأنت نازل فى الشجر» فغضقتنا يا جده»، عرفت
وجهى كالأبنة صمغاً فيهم، وهم يتقافرون فى الهواء من شدة
الضحك، عندئذ نهض «الحاج التسي» واقفاً يقول «لنوم وجب من
يدري» فقمنا جميعاً وصحبنا وراة والولده «هدى» معلق من
يسدى ويسد نفسه من الضحك الحفى، الذى يرحه رجاء،
فمارلنا فى حطرت، وسعود فهبوط، وهبوط فصعود، وهوى
وهروج، حتى وجدت أننا صرنا على قلب الشادر، فبدأت أنذكر
الطريق الذى جئنا منه، وبدأ وجهى من جديد، يصافح لفتح
الجمع.

الخامسة - الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومى الكبير الفحص
الهواء فاستطلت فوق أنسطال، وتذكرت العربة الأجرة التى كانت
قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها تحلف الهمس يا بوى أنسى
الخطب قلبى من صدرى من أول ما مشيت فى الشارع، جاءنى
هاتف يقرى «ننى خرجت لتوى من الجنة إلى جهنم حببت لرقى،
وجاءنى هاتف آخر يصده يقول «نسى لم أكن مدد دقيقة فى قلب
الجنة بنفسها كما وصفها الله فى كتابه العزيز وأن ما كنت فيه
هو حلم الفرحنة الملتمة بسوق الفلان، سالوا الأعمى بماد، تعلم»
قال بقلة عجزى، وأنا قد حملت أنبية بالجنة حتى دخلتها نكنسى
طربت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لى ما فى الشجرة
الحرمة، وما أنها يأحال قد عدت أمشى شريداً فى شوارع «مصر»
عطفاً، سألت نفسى أيم، تثبيت مقية نيك يا ولد أبى ضب» أتذهب
إلى صاحبك «ميمى» ماسح الصرم» أم تدب إلى «علم
«هندوبلى» وتتركه يعلق عليك «الحقى» لكن المصم «شديوس»
ومانه الآن فى سابع نومه

يدى كانت فى جيبي رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسي لما وضعتها فى جيبي؟ ثم أخرجتها فإذا هى لا تزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فافضهر يدي وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدى بعد، وأننى يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا ذهبت بنفسى عسلا أمام هذا الرجل وتركته يدوقى بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فليس إن لم أكل بعظه حلالة أكون معطلا كبيرا يا بوى، إنه لن يكون فزورة أعصر دماعى فى فك عقدتها، سوف أحرق كل ما يرصه لأفعله وكل ما يغضبه لأبعده وأعرف مواضع الأكلال التي يستحلى الهرش فيها من جسده فأهرش به فيها بأظافر حنور رقيقة حتى ينيب من المشوة، ذلك لن يكلفنى شهشا يا حال، فليس على الكلام جحرف يذنبه المتكلم ولا يولد الرجال حرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواء هو نفسه يفعل ما يشاء.

دعنا صوت «بريش» صائجا فى خلاء الشارع التعريش «وحدى. و. و.». هدرنا جميعا فى صوت واحد يهره الخوف والمشروع. «لا إله إلا الله» وصفت «بريش» على كتفى قائلا «تحدثت فىن يا بل على». قلت «والله ما أعرف يا خال» لطمن على كتفى «تمال معى» فقال «هندى» «حلتى لى فأنا أعرب وأقيم وحدى أما أنت فأملك وأجوتك ليس ينقصهم من يراحمهم فى الجعر الذي تمكنونه فى حى السيدة ريعب» قال «بريش» «حين يصل بكربور قد أخذوا كفايتهم من اليوم» فنادم أنا وهو» قال

«هندى». مدح الناس فى حالهم» قال «بريش» «وبالمرة سأكلم حصص فى الامراء» انشد قلمي نحوه بحطاف، وطار اليوم من هيتى، حسرت ملهوا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب معه رغم أن نفسى تفصل الذهاب مع «هندى» قال مشيرا لى «سأكله أنا فى كل شىء أحسن منك عر فى باهية ومع السلامة» وشوح الجميع وهو يضع يده على كتفى «مع السلامة يا كولا» تتقابل فى المنهات بكرة على القهوة» وسحبنى ومضى به نحو مجرى الميوز، فدخلنا فى إحدى العيوب بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلّم - وهو فى الشارع - على من يقف فى شباك الطابق الثامى، أما الجدران فمائلة وشائخة فى الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالمخلف والمجاري الضاربة (أبحرا وقنوات وبركا) تلتحق بعثبات البهوت. أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى صفتين من الهديم والركام تنفخ فيها شيايبك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، تكلها متشابهة متخافرة يتساند بعضها على بعض ويحلى بعضها على البعض، ويفتلى معظما فى أكوام الرابطة المائلة للكان ربما نجسة حبيطة

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا فى حارة من الحواري الضيقة التي لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين، لمظنها كال لون الصباح يشلق أكوام الرابطة ويحتلط بالواديها وينظر فى الحواري رائحة الفوق اللدس الطائب مع رائحة دحان

متحرون في هذه الكهوف. قلت لهندي: مستغربة: متسكى في هذه البلدة يا هندي؟ قال: ديا ريت؟ انضبط قلبي. قلت ديا ريت! تقول يا ريت؟. التفت تهوي متكلم: طبعاً يا جدح! من يسكن هنا يعتبر في قلب مصر ويستغنى عن الاعتار في الاتوبيسات والقطارات يروح أي مشوار على رجله، وكل الأسواق من حوله قريبة .

تصمد دماغى يا حال كائن هندي، حبطه بنبيشه، والذي عطى ووطى أنه قال: الحلوات جاءت إلى هنا يا حسن! فلا تستهري بهمة البيوت لو كنت رجلاً تعال أسكن هنا في أي عشة بدون أن تدفع ألفاً وألفين وثلاثة! أنا أجرت ورشنى في العارة الجانبية بظول رجل قدره ألفين! وكانت كهيمة وعالية فحسمتها مصفين بالحلول جعلت نصفها للورشة والأخر للميشة واللبات، ومن يوم أن سكنتها فتح الله على! بعد أن كنت أضيع لشهري كله في شطيط من أتوبيس لأخر دون أن ألق بشيء! ثم إنه توقف عند دار من طابقتين حفيضة الدم يابوي كأمراء سمراء بيت بلد بفمارات في حديثها، واجهتها صدمونة بالجير ومكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولها بابان وفيهما من الحشمة أحدهما بصفتين مقولتين وفوقهما درعيل من الحديد بقل كبير. والأخر بصفلة واحدة. وكلاهما مدهور بالريت الأزرق. أشار هندي، إلى هذه الدار وقال: ما رأيك في هذه المرسوسة؟ قلت ما عار تمام! أخرج معناتاً طويلاً من جيب بطلونه ففتح به الباب ما الضلفة

الواحدة ودفعه، فظهر في مواجهتنا سلم واقف مجدى من الاسمنت. صدى يده في صدع الباب من الداخل وأضاء المور وقال: ادخل، فدخلت صاعداً الدرج، ودعس هو ورائي وأعلق الباب وراءه. بترابس سميك متين، وصعد خلفي حتى لحق بي على البسطة، وأخرج مفتاحاً آخر فتح به باباً حشيباً ودفعه، فإذا بنا في حجرة كهيرة مذهبة بالجير السماوى ومردانة حوائطها بصور ساء عارية بالألوان وعمور للراقصات والاضلالات والمطربات وكل نجوم الصبغة..

في الحجرة سرير سفري نظيف فوقه ملاءة مرهقات كالمناديل المنصلاوى، بجواره دولاى طويل بصففتين من دواليب اللوكايدت والرابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسي من الخيزران، على الحائط المولف للسرير شريشة كهيرة على شكل البيضة على الأرض كتيم مصنوع من بواقي قصاصات النسيطين مما يبيع الثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط الأربع، فوقه ووبر (وبراش) وبضعة أكواب وحلة من الألومنيوم وطبقين من الصاج ومعدنتين وحشوفة، وعلى درج الترسية راديو من البلاستيك الأخضر ملوكة بصوت العرب. أول شيء فعله «هندي» حين دخلنا لمتحه فصار يروح إلى أن وجدت من بلاد بعيدة جده موسيق تشبيه موسيقنا، فتركها ومضى يترقص في الفراة على واحدة ومن وهدون مبرر، فصررت أصمق له وأصمق لكنه بعد برهة شفق والوفاء مستنكراً يقول: «دس! دس! أحسن الجيران في عز اليوم».

ثم سحب كرسيا فجلس بجوارى وأشعل سيجارة ورمى بالقليبة
سوى فاشعلت أبا الآخر واحدة

أنجيس «هندي» ممدا ساقيه على كرسى آخر. ومعت اليحس
بلدة الحرمين الكبير، وقال: دشف يا حسن يا خوى؟ أنت وافقت
على أن تشتغل ممدا؟ ونحن رحبنا بك لتاكل عيشنا معنا؟ ثم
حمت ليند نفسا من السيجارة، فسمعت أبا الآخر ممدا ومدا وقلت
«طبعيا يا هندي يا خوى! ربنا يوفقكم جراه جميلكم فى» المهم أن
يكون الصاج السنى قد انبسط منى». شوح بالسجاجة بجوار
رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «الحاج السنى ماله
ومال شغف؟ أنت تشتغل ممدا لا مع الحاج السنى» قلت مندهلا
وكيف يا بوى! أنتم قلتم لى من المبتدأ أنكم ستعرفونى على هذا
الرجل فى الأول قبل أن أشغل أى شغل». شد «هندي» نفسا
عميق فشق له ما بين حاجبيه فى حبت واحد، وقال: «مفرك به
لأنه رجل طيب ودصح، ويعرف الناس من وجوههم؟ ولو قال لما
إنك لست محل ثقة لما شغلناك ممدا».

كلام مرادى يا بوى اليس كذلك؟ ممدا ما شعرت به على كل
حال، فاستجست أن المصمغ يطبق فى حنالى، حسرت أطرح
أصبعي يعبا وشمالا بحركة مفي واعتراض مع تاتاة متتالية.
وهندي» نثر فى مندهشا يقول: «ما تقصد بهذا؟» قلت «لن
رباطكم بالحاج السنى أمست من هذا يلبو العم» إسر ولد لاف
ودائر كما تعرف يا هندي! أهمها وهى طليخة»، قال هندي: «ملا

يا جدح! وهل تقول فيها؟ إن الحاج السنى بكل صراحة يعاوننا على
العملية! إن لاحتجنا نفودا يسلفنا ويردها له بعد ميسرة! وإن توفر
معنا شيء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطة أو اشتراه! المهم
إنه يفرج صرنا والسلام! هو كما قلت لك رجل طيب وجهه كان
قاضي قضاة لحد السلاطين! ومن هنا فانه يفهم فى المنازعات
ونفسها وفى أمور المحاكم وقعدات الحساب والمصالحات إنه خبير
فى توقيع الجرامات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذى
يروحهم جميعا! إنه يفصل بيننا فى كل نزاع يقوم بيننا وبين
الناس وبيننا وبين بعضنا! باحتصار هو يحمينا من أشياء كثيرة
ويسمى للإفراج هنا إذا حكم علينا بالبيت فى الأقسام! ويضمننا
هذه الحاجة إلى الضمان».

تحلف اليمس يا بوى أننى لمضت عيسى ولحتتها فى دعاى
فلم أن لهذا الكلام قديم يمشى عثيما، إنه فى الظاهر كلام زين،
لكنه يتركس بشرائح الحطب التى يكسها المجار فى بعضها
بالفراء صانعا منها لوحا عريضا لا يظهر موضع اللصام فيه، لئلا
لو ضللت عليه يتكسر هذا كلام ملتصق فى بعضه بالفراء يا
بوى، لكننى مضطرا لتصديقه، وإنى فتأكد من أنهم جميعا يعملون
هذه الصاج طمسند نور الدين السنى» من الباب للباب
الطقت: «خلاص يا هندي خلاص! هذا كلام مليح وإننى موافق على
ما تقول». قال «هندي»، وهو يخلط السجاجة فى غطاء عليه
ويدهش من هذا العرض: «ربنا يخبز لنا العيش جميعا! ثم نسام

حتى تقوى على العمل» تعجبت ولله يا خال وتبرجل مخي وتلمبك، وعلنت أنهم ينزول الذهب من إلى المورستان، شوقت قائلاً «يا هندي يا حوى! أنت الآن لم تقل لي ما العمل الذي سأشتغل به معكم». قفر عن السرير منها، مشوها بيديه «صنق من سبائك صعيدى قفل! نظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بفنجر قهرة وجريدة صباحية وساح حمام عليه طول النهار! يا بهي آدم أنت الآن تمشي في الشغل! معي الآن مشغل! وأجرك مضمون! قالوا يا خير يفلوس! قل هذا يصير بالجار! فاصبر قليلا ترى نفسك في قلب الشغل نوى أن تدري! قلت: «ها أنتى صابر يا حوى» قال «قم قم لك ساعتين»، قلت «سأنام على الأرض ها هنا» شوح مستمداً: «ثم والسلام في أى جورة تعجبك».

لعبت مرة خلفاتي بصراى، فتعجبت والله يا بوى كيف افكرتها وجئت بها معى رغم أمى كنت ناسيها، تسببت راضيا عن نفسى ورميت مرة الحقائق فوق الكليم وعبطت وراءها فجعلتها معدة ركنت فوقها رأسى واسبريت اقرا الفتحة طلبا للبرم يجمي من ظلام الاعتكار الذى غير مزاجى مرة واحدة وصعد رأسى ظل الموم يصاورنى ويحاوذه ولو كنت أحفظ القرآن لثوته كله عليه، لكنى ظلت ساعات جليلة انتظت على جمر النار، حتى فتحت عيني فראيت «هندي» يخلق بقته أمام المرأة واقفا بالفاقة والسروال - سروال المئامة، فتكورت جالسا، فلشار لي

خياله في المرة إلى كوعة في أحد الغرفه لم أكن تنبهت لها ساعة دخلنا، فقامت باعدا إليها قارنا هي فتحة باب، يليها على الجنب باب فطوخ، نال من فتحة الكنيف، شق حوض من الأسمنت مبني من الحائط تحت صنوبر، سحلت الكنيف، فصميت بطني من ولائم الامس، واستعدلت ثم قمت فطسست وجهى بالماء من حنبور الحوض، فحسبنا لاسمي الماء وتفكرت في أمى متوكل على الله حطر لي أن اتوضأ. شيء إنهى في نفسى قال: توحاً يا ولد وصل ركعتين لله يوفقت في طريقك ويرجعك صبور الحاطر.

أهبيت الوضوء وصيت إلى هندي، فوجدته قد ارتدى كامل ثيابه النظيفة وحدها فظهر أفتدي ولا البكوات سألته «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟» وضع كف تحت أذنه صائعا في اهتمام شديد «ماذا قلت؟» كررت قولي «حصيرة صلاة» قال: «دلى» قلت «لى» قال في استنكار يالغ «أتصلى؟» قلت «لا ولكنى أريد الآن أن أصلى» قال بفضة للشفر «الآن فحسب! قلت نعم! لهك تعالى يوفقت! انفجر هندي» في الضحك والشفر حتى صار كالجنون وصار يضحى، «صلى وصام لأمر كان يطلبه! فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صام! ثم سحبني من ذراعى كالقبوضي على قائلاً «يا جدد لا تكن عبيط! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب! أتظن أنك تصحك عليه وتاكل بقله حلوة! يا لك من بارع! بالك من ولد مفتاح إمش يا جدد ولا تجعله يعافيك بالمصية! ومعنى من فتحة الباب، مررت أكر على السلم، بعد بالمجلة كنا في الشارع، عظرت على باب النورشة فوجدت أرضه

تظيفة، فتحقت أن باهيا ذلك لم يفتح منذ شهر حويله، وانها مجرد مكان يستر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه غمام صاحب ورشة.

وكانت الفوارق الضيقة القنوية مضادة بمصالح الجوز المعلقة على أسداغ الدور على القنواسي والحواديت - حانينا شريطة المترو، خرجنا من العين، كسرنا الخطو ماشين بمذا مجرى الميوز، ثم كسرنا إلى شارع الجبارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سحوت»، لنشرب لنا جوجين لزوم الاصطباحية. وقال «هندي» الساعة الآن الخامسة بعد العشاء، موعدا مع الصحبة في العاشرة». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟» قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى

وهكذا إلى المقهى، فأوصى «هندي» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طبايا، لئلا نكنا نستكر على الكرسي القش في الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبق من الفول وطباق من الطصية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق ريسة لاطصينة، تارينا كل ذلك في دقاتي، وطلبنا الشاي. وكان «يسوسة» أول القادمين بجلابيه للكوى، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجاء به وبالجوزة والدار والورد الذي سيسقينا. صار «يسوسة» يرض الحشيش من قطعة في راحة يده مخفية. وصرنا نهرق إلى أن جاء «عروفي» من بعيد يكل في رغيف محشو بالكبد ذات الرائحة القنادة ويتبادل الشكائم القبيحة مع

كل من يصاحبه في هتارح من رجال يعرفهم ويعرفونه، حتى بعض النساء كن يمدخن معه في قافية للتكيت. ثم جلس بجوارنا بأش صبيان القهى وأمهاتهم البنايا، وهم يحتملونه في الظاهر ثم ما يلبثون أن يردوا له الصاح صاعين. بعد ذلك مباشرة جاء «بريش» وقد تغير شكله من بيك مجترم إلى مجرد رجل يلبس المعصا وينظونه، بمجيئه التست القعدة، فنولت حجارة المعسل لرب بالعشرات حتى تسقت رموسنا نسلا. ونظر «بريش» في ساعة يده القديمة الصدئة، وقال «الساعة الآن منتصف الليل»، فطهم على القعدة بخان القلق وسمعا صوت مزمار عربية تشبه زحارة الفطر. فلهسوا كلهم وبهضت معهم، وقال «بريش»: «الذ وصلنا». ولهب «يسوسة» يحاسب صاحب المقهى، ومضينا إلى الشارع المسمى في انتهاء عربية كمير كبيرة وأقلا نسد لستة الحارة نثرت فيها غرابيت على أبوابها وصندوقها من كل ناحية كتابة مهزت فيها رقم العربية وحرفين هما ق ع فلم أعرف ما معناها يا بوي لكن مريش. قال لركبوا، فركبنا، هو «يسوسة» بهوار السائق وأنا و«هندي» في قلب الصندوق نستنقل...

انطلقت العربية يا بوي، جودت واستوت على طريق الكورنيش، فملت على «هندي» وسأته إلى أين نذهب الآن يا هندي يا حوي؟ قال «نحوك على الله لنشتغل»، قلت «أى شغل يا جدم؟» شوح قائلا لي قورغ بال: «ستعرف حالا»



السادسة - لمة قاف عين

حرمت العربية على بر الجيرة، وسارت تعمر في طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد حرسامية تقف في العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر دخلت العربية بحذاء الحديد وحضت عليه ثم توقفت، فزل «بريش» و«بسيوسة» والسائق. فزلنا معهم، فجأة هجم كل من «بريش» و«بسيوسة» على خفير عجوز يدام على شكاك الأسمنت وفي حمله بيوت كقناه بالحبال ولثامه بلاسته، ومرح «بريش» من حرامه مسددا رماه لى قائلا «هده مهنتك يا بلديا! قف أمام هذا الخفير» إذا أظهر أى حركة أو كلمة أو صيحة القته في الحال،

ارتعت يا خال، لكننى فعدت يا حال أمسكت المسدس بيدي فزحاه به، وزارت في الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بريش» و«بسيوسة» و«هندي» والسائق يرفعون أسياف الحديد حرمة حرمة، ويعيشون صمدوق العربية للكميون حتى امتلا عن آخره يحوالي عشرة أطنان، وركبوا فلففت حول القرية وشملت في جدار الصندوق الحشمى ملحق بى «بريش» وششمى من ثوبى

قائلا ببساطة. «ستبقى أنت هنا! وسوف نجى مرة ثانية وثالثة ورابعة!» تطلعت عيسى يا بوى، وناست قدم عذيلة فوق قلبى، فجاءنى إحساس بأنه سينقطع من عروقه فصمت من عيظ ومن وجع. «كيف يا بوى أبقي هذا! أمو الملعوب إذن» فلطمشى بظاهر كلة فى نزعرة وضيق هامسا «هندي» سيبقى معك فى حراسة الجفير لحد عودتنا، حعت القدم الثقيلة ثقلها على قلبى فاسترحت بعض الشيء، إذ إنهم لن يضحوا بحبيبيهم «هندي» من أجل ملعوب بلطفونه لى معنى صعبدى يا بوى ولا بد أن يتمشى قبل أن يفتح لى أبوابه ومخاربه، هو يفتح لى أبوابه حسب مزاجه الحاجى يا بوى، وقسما بالله العلى العظيم يا بوى إسى ما حاولت فتحة مرة وانفتح، بل إنه ليحيرى ويستقل فى تطليع ديس يهزأنى بين الخلق، وحينما يتجمع خلق كثير لفتحه، لا تنفع طفاشات ولا صفايح كأنه شغل برة يا بوى، لا يمكن أشه بسهولة بفعل اللصوص لصوص الخائى، لكن المصروب ما يلبث حتى يفتح وحده ذات لحظة فيمضى لى الحق من الباطل، وذلك عندما أكون ولحق الباطل، ولا أكون رائق الباطل إلا عندما أكون رائق المراج بعد لى أشرب لى حجرين من حشيشة نظيفة نعمة الأصل

شعرت أن محى سينقل مع «بريش» وهو إذا انقل يهدد بفلسفة قد يذهب كلها فى رحيلها فلحقت بشجاعتى قبل أن تظهر على وصلاحت نفسى عليها ووايت ظهري للقرية عائدا إلى الجفير فلما رأيت «هندي» مرابطا بجوار الحفير واشقا من نفسه

يروح ويجيء حول الخفير واضعا يديه في جيبي يظلونه ضلوبا
الديا صرمة كأنه يتنزه، اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست
في آتته «بتاع مين الحديد ده بابو العم؟». همس في أذني بهرة
من كفتيه «مش هاراف والله يا حسن! لكن الظاهر إنه قاف عين»
قلت في غيظ «قاف عين يعني أبه يا بو العم؟ نتكلمون معنى
بالسيم والفرأوزير ينقل معنى ويرررس! كتتم الولد المفكروت
خسكة وهمس في أذني «يا بني أدم قاف عيس بتاع الحكومة»
بدال ما يقولون قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين»

تلمحك معنى أكثر والله يا بوي، صار مثل الكنانة يستحيل
تصليكو حيوطه من بعضها لكن عجلة معنى أسرعت تدور وتدور
مفكرة وتقول «كيف بابو العم هرية قاف عين تسرق متاع قاف
عين» الولد المفكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشفر بصوت
هال، وفي النهاية شرح بيده نحو رأسه مرسلا في نظرة فيها نقد
هيسر وتهديد وخسيف. «شاف يا بلدينا! إذا كاي سنك الصعيدي
النير سينفتح على هذا النحر! فالأفضل أن نغلقه قفلة مسجورة! إن
شفلنا يحب الستر يا صاحبي ويحب تشجيع المخ! والصعيدي حين
يفتح معه يحيى، لأمله بمصيبة ثقيلة! إذا كنت تريد أن تشتغل معنا
يا صاحبي فالواجب أن تغفل معك وحكك هذا تقيطه بالدورة»
ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه، ما يجري علينا يجري عليك!
وحكك ناحنه بالرغصا والتسليم دون أن تقنع فمك وإلا ضعت!
إسمع كلامي فلنا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة بيتك!

لكن الشغل معنا كالحمام دخوله ليس كالخروج منه! إن بقيت معنا
على الوصح الذي قلته لك الآن تخرج من الحمام مستحما وظيفا
لايسا ثيابك النظيفة «متمشا! وإن فتحت محك الصعيدي التحين
على هذه الطريقة الصعيدي النحينة ستطرد من الحمام عريا
مسلوخا من جلدك تنمى الموت في كل لحظة! وعلى كل حال يا
صاحبي أنت ملزمت على البر لم تدخل في الفوط فلان كنت غير
واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فلاني يمكني أن أعاونك على أن
يذهب كل ما إلى حال صياله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن
ترد للحاج السنن فلوسه التي سلفها لك!..»

لتخبط فزلي يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندي»
ولقد همرت أن مزيجة الصديق في صوته، قلت له «تشكر يا
هندي يا حوي! والله عذرك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن
نورتني وأنا مع أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلي» وبخطتها
كنت أجمع في يمافي الكلام الذي سأقول له به إنني سأحتر
الانصراف إلى حال سبيلي وأبوفقكم الله ويوفقني كل في
طريق... لكن لا أعرف يا بوي من الذي صحى صورة أحتي
«سعيدة» لحظتني في دعائي لعمار قلبي ينتفض رافعا من
الطرب أم من الاضطراب لا أدري، لكن «سعيدة» مشيت في
يمافي لحظتها حاملة المدخ الرشاش تريد به الحكومة قتيلة في
لمع البصر نط كالفارس على ظهر حصان «حرارة» لتنتقل من
إلى الجبل طريدة تصبح «تاما كاش شوكة» في جيب الحكومة

دامية فهي الحال صحت في الولد همدى وقد جعد قلبي هاندا
معكم يا همدى يا حوى حتى بهاية العمر يلد الله ولن أقرب في
صحبتيكم أيداءه فسحبى الولد تحت إبطه وطبطب على كتفى
وقال «ربنا معاك ومعائنا»، ثم حاصرنا الحفير من كل ناحية.

فدناق وبزقت في حلقة الليل أنوار مقبلة مسحبي الولد
«همدى» برفق وتسلنا على أطراف أصابع أنفدنا كى لا يشعر
الحفير بانصرافنا ففصيح. دارينا أنفسنا خلف اللواميد مبططين
بين شكاثر الأسمنت مستلقط الأحبار. وىدى على الرباد مستعدة
لضرب في الخياش ففما اشتمد النور فجأة، اسطفا فجأة. وكاب هدير
العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويفلق، وصوت «بريش»
يتصيح لمهضف وجرينا إليهم، لأقف بجوار الحفير واضعا يومة
المسدس في ظهره ويصصر «همدى» للمشاركة في التعميل. حتى
امتلاث العربة نقشا، وكان لا بد أن أبقي ثانية، وفي هذه المرة كنت
أكثر شجاعة. وفي المرة الثالثة كنت أكثره رائعا غاديا كائننى
الحفير الحليقي. وفي المرة السادسة كنت أما الذى يصير «همدى»
ويهدئ أعصابه النقلة إذ أن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط
النهار وكانت أعصاب «همدى» تفرط كلما تبصر وجه الصباح
في هذه المرة يا حال وسعت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد
فى قعر صندوقها، وفزقة رصات من شكاثر الأسمنت تظو فوق
كأبية السائق بأمتار. وكان على أنا وهمدى أن نتعمد فوق
رصمات الأسمنت، فاحدنا تترفق بالعربة من التسلق خوفا أن تميل

وتسقط في ناحية. وقف السائق ليفعل مثلما تفعل الناس بجوار
الحفير المتبدد فوق بعض الشكاثر القزعة مكثف ملثما، سرت
عدوى الدول فيما جميعا. متجمعنا بجوارده صفا واحدا وأحدا
نبول في ثقة وأطمئنان، وقال «بريش» مشير برأسه إلى الحفير
«الراجل ده ما صيحتش ولاعمل أى حاجة؟»، قلت متذكرا «تصوير
ياير لعم أنه لم يفتح لعم» قال «همدى» مؤمنا على كلامى
«ولم يتحرك من الحوفا» قال السائق وهو يهضم قصصيه ليهش
هنا آخر تطلعت البول «رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة
وعطية سبائرا» قال «بريش» في كرم ظاهر «يا ريت» ثم مد يده
فتناول مسدسه منى فشعرت كأننى قد صرت في الريح عريانا،
ومويت أن يكون سوى واحد على طول الجح إذ موضوعة المطاوى
بطلت هذه الأيام

انحنى «بريش» على الحفير ورغده بيزر المسدس في كتفه
قائلا «كنت يا حاج» فحسار الحفير يهتر تحت رعد المسدس فعد
السائق يده وأمسك برسع الحفير وتحسب ثم أخذ يدهم «يا
لهو أسود! الرجل مات»

انبرينا بتحسسه من كل ناحية، ونقمع أيدينا على فمه وقلبه
ونفسه وبذلك فى قصيصه حتى يكسف أن كان يمثل الموت ولكن
لا هاية لى تنادى راح السائق يك عه العبال شيئا قشينا
«يا» فعد لك كل عقدة ليظهر ما إذا كان الحفير يحرمنا.

وديريشه شاهرا مسدده في وجه الحج ليردعها به في الحال إذا
 ما جدت. لكن الحال كلها انفتحت ورمى بها السائق على سطح
 العربة والحجر جثته حامدة لا حركات فيها. فصرعنا عنه اللاسة
 ودماءه ووردناها عليه كما كان في وضع لومه قبل مجيئنا، ثم
 تسلفنا العربيه وفي أسرع من البرق كانت الصورية تطلق بنا في
 الطريق، وأد «هدهدي» مسطوحا كل ما عائب في مفكرته إلى
 أن توقفت العربيه، وبزلا، فبرلنا، فوجئت بأننا أمام شاعر الحاج
 «أحمد نور الدين السنن»، وثمة رجال من ولد عمومنا يكتفون
 بالخيش، قد هرعوا لتعنيق هذه الحموله، وكان عرق تعنيق
 الحمولات السابقة يكم أجسادهم ويتناثر مع الكندي على أسفل
 الطريق.

المعنية طلعت أحر أس يا بوى، وأخر فرمشة، نطاكه ما بعدها
 نطاكه. ولم يكن قبلها بطبيعة الحال. الولاد - ريك والحق -
 هاملوس بالحد والمسلعة لم يطعموا في عرقى وشقاي. نادوا على
 أمام الحاج السني ليريى - مادمك ألك الخط - حسبة للموازن
 التي أجهرا لهده «البصاعة» التي اشتراها ماء فلما قلل كليمه
 «البصاعة» التي قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعيه خيرية
 تبى في سبيل الله مساجد ومساكن نظرت في وجهه جاعلا من
 عيسى مهرانين يحرمان عيبيه. لعلى أجد خلف هذه الخبسة
 الشقية شيئا يلقى على الحقيقة الكامنة وراء إسماس عيبيه هاتين
 وحيانا يا بوى تقول بلذتين جفيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا
 يمكن سحقهما بل والله ياخال كنت أحس أن بصري يمزق على

ومعنين صليتين ولست أشك يا بوى أنه قد شعر بتعبي من جراء
 وضعه مصرف عيبيه متحمدا ووضعهما في الورقة التي أمامه،
 وخط بالقلم الكويبا خطا تحت المجموع الناتج عن حمولات ست
 جاءت بها العربيه، وتحتها مجموع وزن شكاثر الأسمت. ثم غرر
 القلم الكويبا تحت طاقبته الشبيكة وطوى الورقة فانلا

«هشوقا يا أولاد! أنا ما هدي مانع في التعامل معكم بسعر
 السوق للسوداء! لكن ذا يبقى كثيرا عليكم بهجور أن اظلمكم!
 وهجوز أن نطعموس! السوق السوداء كم تعرفون مسجونة
 بطبيعتها! يفرر جنوبها قلة من التجار المشمين! ويصدر منها
 التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادي لا أجد طريقة أتعامل بها
 معكم أنصب من طريقة الشراء بالمزق! يعنى نتعاهد بقراده
 الفاتحة أن تقولوا لي عن السعر الحقيقي الذي اشتريتم به
 بضاعتكم! وفي المقابل أعطكم عشرة جنيهات عن كل طن جراه
 تمكم وعرفكم في تسويق البضاعة وجلبها لعادنا نقولون!».

تلطف اليمين يا بوى أسى سائب ركبتى كالواقف أمام ثمين
 ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غزولي» حويط يا
 بوى لهذه الدرجة، وغزولي كبير يا بوى، تقدم من «الحاج السنن»
 وعلى مهنته سمع للتاجر الشريف الشقيان الأمين على بئار اللاس
 وقال.

«هوكوك، ربنا يا حاج! من والله وفلسه خير بينك وبين
 صاحب البضاعة! نحن ناس خلاصة على الله! لا نطلب أكثر من لقمة

العيش الشريفة يعرف الجيبي! أما أنت وصاحب البضاعة فتأس مقتدرين! يريكم الله من نعيمه! ولكن ارفعوا سداً ولا تتشاوروا علينا! وصاحب البضاعة قد اتسنا على بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سوى ورقة ورنها فقط ليحاسبنا بها! هو رجل طيب ما يتهير عنك يا حاج! لذا قمى لا مقدار أن يفرط فى مليم واحد من أمانته أنت تقول إنك تعطينا عشرة جنيهات عن كل طر! وتعرف أما حسنة رجال! وعربة لهم مصاريهم ضعيف مصاريهم وعرق أعز من عرقنا! فلو سمعنا هذا المبلغ علينا عماداً يصيب كل واحد منا! لو بما الترمس والفلول أفراتى جميع فى ساعتين اثنتين أضعاف هذا المبلغ! وأنت تعرف أننا نعطيكم بضاعة شعبية فائدة فى السوق والطرانة منها فى حنك سبع وأنت أيضاً تعرف أننا شعبنا بحياتنا عن أجل لقمة لا من أجل سفرة!..

«الحاج السن» تابعه بفلس البسمة الشقية فى العبيس وعلى الشفتين لا تقص ولا تزيد وثابتتهما كلاهما وقد انفرط قلبى وانزلت أمصايى وأسم يعد فى حبل والله يا بوى! لم يبق فى مخ يفتح، ولم أهد أصدق شيئاً مما يحدث أمامى فى نفس الوقت يا بوى! لم أعرف أن أكذب شيئاً مما يحدث أمامى. فهل نكون فى مسرحية تمثيلية كل واحد فيها يمثل على مزاجه الدور الذى يعجب به! العجب للعجب يا حال أننى وقد شاركت «عزولى» وصممه فى سلب هذه العجالات بعربة قاف عبي من حد. قاف عبي، وشاركت فى تكتيف الحفير وإزعابه حتى الموت. وأبى أننى

أصدقك كل التصديق وهو يحكى للحاج «السن» ما حكى، كان ما حكاه حقيقة واقعة. كاسى شاركته فى فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث شيء يفوق العقل يا بوى! حاجة تهوس والله لما رأى «بريش» لحظة الصمت قد طالت وأن حطبة «عزولى» ستفقد حرارتها، تدخل قاتلاً وهو يشوح يديه ورأسه وكتفيه ورقبه

- «على كل حال شوية عليك وشوية علينا يا حاج أنت مهمما كان حيرك علينا» ومصلمتك أولى عندما من مصلحة صاحب البضاعة! ولكن حل عليك قليلاً وراح مصلمتنا والتعب الذى تمبناه يا حاج! لقد حملنا النار بأيدينا يا حاج! إسها أشد من حكم الحدرات يا حاج! وهى كلها حير وبركة يا حاج! ورب يدورها بركة يا حاج ويجعل سوقها أهلى منها! ولكن من أبناؤك وما علينا لا يضح يا حاج!..

البسمة الشقية ارتعشت على شفتي الحاج وثققت فى زلطني عينيه الصليتين، وشرح قاتلاً لـ «بريش»

- «خلاص يا بريش! عشان خاطرك جيلنا العرقى الثنى عشر جنيهاً فى الطرانة، يبقى لكل واحد منكم جنيهاً بما فيكم العربة!..»

«عزولى» رفع ثراعه الفليضة رافعاً شفتيه وراح يهزها علامة «ما يسمعش»، فترجرح «بسموسة» وتحسس شبيهه من فتحة الجلياب ممقفاً عرقه وقال داسما بسمة أنوية بفماتين.

- «على كل حال يا حاج» خذ لك عطة من تمسكتا بالمبلغ الذي ستأخذه عرقا لنا، فهذا التمسك دليل على أننا «مصدق معك في قول السعر الحقيقي الذي حملنا البضاعة على أساسه من مكانها».

شروح له الحاج يسبحته في فروخ يال قاتلا

- «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما فإنا إكراما لكم ولأنكم أولاد حشّي وجيراسي! وكلّبي دلقا عليكم! فإسي إن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو نطق الحديدا وإذا لم يعجبكم السعر فلتنتم أحرار!».

كشّر «عزولي» في وجهه تكشيرة أظهر فيها - عن عمد - قلللا من قلة الأصل، لكنه أدابها في كروب من السكر بالليمون حين قال: - «أحنا أحرار يعني إيه؟» يعني نشيل البضاعة ونرجعها ثاني؟ لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا ومن أبهاؤك؟ عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج فنتي أنتمك لنجد!».

منا وفل «الحاج السني» ونزّع اللقم الكوبيا من تحت طاقيت وشرح بحسب في الحال قاتلا
- «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فيه بعد الآن».

ومضى يخط على الورق. فصمت «عزولي» وصعدت الجميع، ومطروا برزهم ولوا أمتافهم علامة على الرضا الاضطرابي. ونظر الحاج من فوق الورقة قاتلا

- «الأصل كذا طبعاً».

صاحوا جميعاً

- «حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسمياً بكذا» فما بالك بالسرق السوداء؟».

أضاف للحاج ميلج جنيهي قاتلا

- «يعني كذا».

فمدحه «عزولي» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قاتلا

- «هل يعني كذا».

مناه الحاج بنظرة حمراء وقال:

- «أنت سفاخ! منك لله».

وشرع يحسب بنافس جنيهي عما قال «عزولي» وهو واثق أن لصداً ما لن يمارضه وبالفن لم يمارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القليلة وهي تترادف على يدي «عزولي» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولك طرباً على حفيها

تأبى من هذه الفسمة شيء كبير يا خال، أتدري كم؟ أم أقول لك لا داعي لإفشاء الرزق؟» - «سمح لي يا خال، فاللقمة التي تشفتش لا تؤكل».

صاحب هذه المقهى ولد وأعر يا بوي، أقوى شخص في الحارة، إذ هو يلطحي كبير، وجارح من عشر سنوات أشغال شاقة. ظل يدع المطواة هي وجه كل من يدوس له على طرف، حتى ترك في الجميع جروحاً وفروخاً، فتركوه في حاله، وتركته للحكومة يطفي ويتجبر، ويقتنى عشرات الصبيان، يوقفهم على النزاحي بأكتياس الحشيش الفاحر يبيعونه بأعلى ثم، عيسى عيتك، لكل عربة ملاكى تقف على ماصية الحارة. ولكل الفندي يجلس على المقهى أما هو لمبعد عن الإمساك بالنار، مهمته شغل الحكومة والتقاعد معها، بالهندايا أو بالحاكم، أو بالهندي، أو بالبلطجة، أو بالسلاح كله ماشى، كل حالة حسب وضعها، وهو القنصر دائماً، وبأنها لا يمكث صبيانه في المجر أكثر من سواد الليل. هو القباقي في بلادنا والحكومة متغيرة والقرش باقي والنقوس أيضاً متغيرة المهم أن «صمصم» يعيش في هذه البلية ولا كسرى أمر شروان صاحب الشاج والإيرال الذي يحكي عنه شاعر الرماية لكنه ربك والمق ولد ذوق مع الذوق، فواشسى مع الفواشسى، إن أعطيته ريقاً حلوا أعطاك نهراً من المصل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غصصاً منك لأنه يبدأ بأشد بتعليه ريقك إن جئت مقهاه شارباً في الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة موعه، محيف الجسد عليه أبيص لبشرة لكنها ملوحة بالشمس؛ شعر الذي كثرشاة سمراء خضلة شعر مهملة على جبهته الضيقة تخفى تحتها عيالي ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرندي قميصا وينطقون كالحيين؛ وصوته غليظ حشن؛ يمر على الجالسين في

السابعة - ليلة النهاية المحرقة

الفررة التي كانت تلمنا هي عرصة صمصم منها عررة ومعا مقهى حين يهنا المراج لشرب حجرين من المشيش منخل المقهى بجوار النصبية، مرقع مائة أو مائتي حجر على مصفاة واحدة. إذ ترف حجارة بمصل عشرا عشرا، وتوضع الجوزة البرطلان في جردن الجوز، ليأخذ غيرها بظيفة بيباه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الجاذبة، فساد مفرغ من ذلك نمرج إلى الرصيف لتكمل البسورة في قلب الحارة.

هي حارة صبية ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض التوالد الصغيرة وهي - الحارة - مكسورة بعد المقهى بمسدة أمتار نحو اليسار، مما يحيل للقادم أنها حارة سد، أما الذي يعرفها فإنه سيتكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة لتنافذ إلى حرة دأبر السمورة وحدود الجيارة. لذا فلا شر إلا سيارات أبناء المنطقة للتدربين على القيادة، ويترقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، لميداح للربائن وحرحة الكراسي إلى منتصف الحارة والجنوس على المصنفين طرول الليل، خاصة في سوء القمر

مقاه واحدًا واحدًا، يورع عليهم قطع الحشيش للمجان. كل قطعة تساوي نصف ربيع قرش على الأقل، يرحمها الزبون حمسين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشترى منه بعد ذلك أهلا وسهلا، وإن اكتفيت بذلك أهلا وسهلا أيضا، لكك إن اشتريت فلا تجمع هنك بأى كلمة وإلا كان بهار الأبعد أسود من قرون الحروب ترى نفسك فى الشارع مضطجعا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة ويظنك أن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب التلوس فى شهوة «صفصف» كما نحب الشراء منه ويدق فى حشيشه، فنذم فى القرش اثني عشر جيبيا فى حين يبع هند غيره بثلاثة جيبسات فقط، لكن الفرق بين حشيشه الغالى والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض. إنسا عجزا ولا تسأل طبيبا حاليا عن التجربة. وهصفصف يعرف أنه مصيرب الحشيش من الناس فيتدال عليهم ولا يزل عن السعر مليم واحدًا، ولا يزل كذلك عن مستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب شحاح الصنف الجيد. أما الشهوة فإنه يرفع سعر الطيب فيها ثلاثة أضعاف سعره فى القاهى الأخرى. وكذلك سعر حجارة النشار، إن كان يعجبك عاجس، وإلا فلترنا عرض أكتافله بهذا نطقت المقهى واقتصرت حشمتها على مجموعة منتقاة من الرباش يدفعون بدوى عصا ولا يملو حاجب واحد معهم على حاجب العلم «صفصف» ولا كلمة على كلمته..

قد يخيل إليك من رؤيته لأول مرة أنك لو ضربته كفا على وجهه سترحمه فى الأرض طويلا، لكن إياك وهذا الظن: فإن

أجمع منك دفعوا ثم هذا الظن غالبا مع أنهم كانوا أقوياء معتبين بأنفسهم، فإنهم لم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويتقون فى بلاعة غير مصدقين أن هذا الولد السفروت فى جسمه كل هذه القوة الناشئة، وكلهم فى آخر الملتمة يمعون أنفسهم بعدا عن التلسين فى حق أو التعرض به بأى شيء..

على حسه يدور دلاب العن فى غير وجوده إنه هو يحتل من منطقة المقهى بعد جلالة العشاء ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله فى مشاوير فى بلاد الشرقية والغربية وأنومية پرور بهورت على الطرق الصحراوية يلتقى بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يحاييها لا يعود إلا قرب الفجر يتطرح إذ أن «صفصف» رعم أنه تاجر حشيش وأهيو وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسروق وماكسل، فإنه حمورجى من الدرجة الأولى وهذا شيء يظنق الرأس يا بوى! فكل تجار المحدرات الذين عرفتهم يعيشون الشعر هظا، ويشربون مع ذلك الحشيش لطرية والافيون بروم مسك الدماغ وشد العصب، وإن أتب امرأة ولتاة فى هذا الحى وهذه البلدة لتحماء وتضطرب وده إذ أنه نذ كمسيب وشاطر، فإنه له جمهور كثيرة يسمى إليها فى سهراته بين الشعر والمسجون والدخان ولروم ما يلزم، صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوى ونحن مساطيل الشعر الليل، ويقولون فى نهاية الكلام إنه متزوج من حورية «دهرة كاللؤلؤ» كل أهل المنطقة يعرفون أن «صفصف» طويدهم هالى القدمين يملك عنبات كثيرة فى عصر الجديدة والهيبة وهولوى، لأنه حويط لثم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها.

بل إنه لم يغير سكنه القديم في حجرة في حارة من حارات هذه المنطقة لا يصرها إلا صبيانته القربون؛ وإذا داهمته الحكومة في هذا المسكن - وهي كثيرا ما تداهمه - لا تجد فيه شيئا طائلا، ولا أي شيء يريد في مظهره أو محبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدى.

لئالى كثيرة ونشر نتلقى على هذا الرصيف في هذه الحارة دور أن نفعل شيئا يا بوى وأهمية الكبيرة التي هبها كل واحد منا في تلك الليلة السابقة صاحت: أنا مثلا أرسلت ميرتى كلها إلى أمي في البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا، لم يبق معي إلا حفنة برايز وشطرنج لا تودى ولا تحبب، ولولا أن الولد هندی، رضى أن أسكن معه في شرفته لكنت الآن بلا مكان أبیت فيه، في كل ليلة مسطح قطعة حشيش كبيرة وسرقى حجارة محسل عدد الحصى، ونشرب شايات وحاجات ساقطة ونصرف آخر الليل صامدغيس من لحم الحمى، وقد حشيت أن أتكم في هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم على وتشاؤمهم معي، فقلت في نفسي ما يجرى عليهم يجرى علي، ولم أكر أهرق أن اللبس قد اتهم أكثر معي يا بوى! إن قال «هندي» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة في هذه العشرة الجية التي نلعبها مراياة

- ومعين يا أحونا! عايزين مشتتل بقى! خلاص فلستا»

فهرشوا كلهم في رءوسهم؛ وتظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق في هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته،

وقال «ميريش» «لعرش في دماغك يا غرولى!» فقال «غرولى» وهو يجثأ بأصابعه في شواربه مفكرا: «الفرحة لم تبصر بعد فلى إحواي في هيئة صاف عين يشتمون الآن في ترتيب عملية طيبة ستعهم علينا بالحير إن شاء الله» وأنا كل يوم أتصل بهم استمعهم! وهم يقولون لي اصبر على الأمر حتى يستوى فاستمع كلامهم وأنصرف»

وهنا قال «بسيوسة» وهو يدلك في شبيه الكيديرين

- ويظهر أنك تستمعن حالة لغربا أيضا»

وقال «هندي» وهو يريح الورق من أمامه في سأم

- «نريد عملية تعديما من اللقرا»

ألهمنى الله قولا

- «ربنا يقول اسبح يا عبد وأنا أسبح معك! لما يمعنا من أن

نقوم الآن لنسبحه ونعز ورتقنا»

يخلق «غزلى» في عيني بنظرة ثعلب داهية

- «هذا شغل الحرامية الجربانيين»...

جاراه «بسيوسة» قائلا

- «جئنا لشغل التنتانة! لم يبق إلا أن نشر في الأتوبيس»

قلت

- «وما العجب يا بسيوسة؟ ربما تلج اليد على هرة كبيرة»

شوح «بسيوسة» بخبرة معلم كبير

- الهبة الكسيرة لا تركب الأتوميس؛ فلا ينوب النشال غير
اللعب في الصغير؛ اللعب في الصغير يقود إلى الحبس وحراب
البيوت بلا تمر؛ إلى صرقت أسرى جملا يا بقية»

نقر «بريش» بعاقته على الترابيزة قائلا

- والله حسس كلامه مفعول ومحي يحدثنى الآن بان تقوم
وبعد هن الرقى ومن ونصينا».

ثم وقف في الحال يا بوى، فوقها كلها؛ وجمعنا من بعضنا
أنصبنا من مصاريق القهوة؛ وثلى «غرولى» دلع الحساب
والبقشيش، مضينا نحو كسرة العارة حتى خرجنا إلى الملاء
وسرنا خلف «بريش» إلى مساكن المسطاط القديمة.

هواه المسطاط نعنشنا؛ فانقلبنا ضاحكين بغير وعى، كنا في
بحر القمر غرقى، والدور من حولنا رابضة في سفح الطريق
وفوقه يلم له وحده ما يدور فيها مع أمها تبدو غارقة في
الصمت اللانهائى، وكان الهواء يشاعب ويلعب ستائر كالحة
خلف بعض الترسيمات والشبابيك؛ فيجعل الدور تبدو كأنها
تتنفس وهمدرا يعنو ويهبط، قلت فى نفسى إنها تدعونا للتفجيل
بالفعل الذى سنترسمه، فهذه هى اللحظة المناسبة وكنت أوى
التكلم فى هذا معهم؛ لكن عيسى وقعت على أكثر من حبل غسيل
مزدان بالملاس المفضولة كحبال الباعة قصار قلبي يحقق بشدة
وتصيت لى أسمى وحدى الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الاباحيتين

«لمت فى حضنى ثم انصرفت متعشياً؛ إلا أسمى قلت لنفسى؛ يا
بريد انظف وأكبر على حبل الغسيل واللعب فى الصغير كما يصح
بصحة

التبتهت فإذا منا جالسين على صحرة من الأسمنت فى سفح
الطريق؛ أمانا «الجيرة» و «مصر حتيقة» على اليمين، والفسطاط
القديمة على الشمال، فبحلفت غيهم وقلت إن ثعبان الليل أخذ الآن
فى مسح بيله الطويل، ولا بد أن نفعس ما سنفعل قسب أن يدخل
الليل فى جحره ويطبق عليه جدار المهاد، قال «بريش»

- يا أسمى طول بالك؛ أسمى أذكرك الآن دكان بقالة فى الفسطاط
مفريش وملان بالمحيرات؛ وصاحبه ابن ثعبان دمتة واسعة»

قال بسوسة مسلك هو أم مسيحي

قال بريش

- «سلم ومرحده بالله» له بق طولها متر ومسبحة وطولها
متران»

قال «هندي»

- «أليس يركى على ساه ويصاغت»؟..

قال «بريش» بعد أن أرسل شجرة سريعة حافظة أضاف إليها:
- «أجته» أقول لك لمته يجرى فيها القطار»..

قال «غرولى»

- « ليس لنا شأن بتمته الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصلحوه ولن يصاهرنا! نحن لسنا المختصين بحسابه! فالتكلم ينتظره في قبره في الآخرة وهذا يكفيه! والذي يهمنا الآن هو حرية النقود! هن يفرعها في جيبه قبل إغلاق الدكان؟ »

قال «بريش»

- «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان نسية أن اتبعه فيما هو سائر إلى ناره لأخلص معه! فما رأيته يأخذ معه نقودًا قط! لأنه يتمد على أن باب دكانه يحمله درجيل من الحديد المصلح للمريض وفقل مسووج لا يمكن قطه بطلاشة! »

رفعت ذراعي صائحا في وجه «بريش» قائلا

- «يا عم بريش يا خوي! هل هذا الرجل صاحب الدكان يسبح بالشك؟ »

قال «بريش» ضاعضا بأسنانه على لسانه المذكور في عيط

- «ابن ميتين كلب! لو مت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عليك! إلا إذا هزشت له بالكمة! مع أنه يعطي السجائر شك لأفندية خولات يعرفهم! »

قال «هندي»

- «سوف لن يجد في قبره من يسقيه! »

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة

- «ميتى لايد أن محرق قلبه! فإنه يستحق الخسران الويل! هتلب الذي يصنع عك اللقعة وهو موسر وأنت معذور أقطع قلبته! دس فوق رأسه فإنه ثعبان سدم! موالله لايد أن يكون الله ههنا الآن يفكر في أمره! لتكون كسبرته على يذبا بئس الله! هو فيق منه! »

قال «بريش» - « لايد أنك تكون انقهرت منه يوما! فليس من وعد عاش في هذه المنطقة إلا وتوسم فيه الحير فلجا إليه في طلب شكك! وارتد في النهاية حائبا مكسور الحاطر! »

قلت مشوها بذراعي صائحا:

- «أفكك نفسك البقال الذي على ناصيتي حارتيين وعنده التموين وبرميل التريت وأجولة السكر وسعة الحاج لولي! »

هو رأسه قائلا

- «هو بعينه! الوحيد بين دكانين البيع والشراء كله ليس عنده يهتم للشك! حتى دفتر التموين لا يراه أحد! أهل حواري السطاط كلهم لا يتوغل معهم ثمن التموين الذي يبلغ من ثلاثة جنيهات إلى عشرة! بعضهم يشتري جزءا صغيرا منه ويرفع باستلام لكل! بعضهم لا يأخذ منه شيئا فيسقط حقه بمضى الشهر! وحاج لولي يبيعه لهم بعدها بالقطعي بسعر السوق لل سوداء الحرة! »

أنهى «عرولى» بزم سيجارة خشيش أشعلها ليستدعى بها م طار من دماغنا من سطل في هبوب الرياح. وقال

- «ما رأيكم أمي فعلا قاروش ملحة هذا الثولي من زمان! وأود أن أعده وأيقه العذاب الواما! لقد فكرسي يا بوش بهركة كنت نسيته من سبعين طويلة! كل هذا الحمرير قد فعلها معي! حين طلبت علة سجاائر هليود وقتحتها وأشعلت منها سيجارة وكل عشم عي أبي لـر قلت نه أعطيك ثمنها عدا قصيقول لي لا عليك! لكنه أخذ معي السلطة مفترحة وقال عنا تمال حاسبمي على عده السيجارة التي أشعلتها! فوالله العظيم لأحاسبه الليلة على حق! أبي ديك الكلب عدا يجب محاسبته! يريد الآي عتلة ومرزبة»

قال «بريش»:

- «باب الدكان حشب بضلفتين لا تنفع في فتحه العتلة»

قال «غزولي»:

- «سأصدّر العتلة فيما بين مفصلات الباب والصدار! هي ضفطة واحدة يرأس الله ابنها بصدري في العتلة! تفصل المفصلات بحالها عن الصدّار! فيتسع المجال أمام الضفلة المعلقة فيها حلقة الدرفيل! فينفصل الدرفيل ويفتح الباب على مصراعيه! ويمكن أن ندعه مقلولا كما هو ويتسلل من فتحة توسعها بين صدع الباب والحائط! مكان الحصاة معروف! والسجاائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة»

قال «هندي»:

- «بيرمنا عرية نصف نقل!»

قال «غزولي»:

- «هده عليك يا حنق! تسرقها من الثواقف أو من الجراج الكبير للقطرف! ثم تبيعها بعد أن تنقص من مهمتها! أو ترصيف في أي مكان قريب!»

سحب «هندي» بقايا السيجارة المحسرة بيسلب بقايا نفس وهو ينادي:

- «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيكم بونصة معترمة»

قال «بريش»:

- «هل ذلك الخدا فلأيد لنا من عتلة! وهذه لا توجد الآن في مكان قريب»

صمت قاتلا

- «إس فدعونا بقية هذه الليلة نغرفش ونهيش! كل واحد يروح لعمال سبيله»

وكان في خيتي أن المور دميمتي الصغيرة وحدي يا بوي! أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الفسيل هذه التي يحق من رافرتها قلبي، وغدا يمكن أن أسبع في سوق العصر بعض ثياب قصصق البيع ولو بئس لأدحار! لكن «غزولي» شوح قاتلا

- «لا يلحقني! قم بنا الآن بدور حول الدكان معروف دخلته من خرجته! صدقه من قهارة! قاروما يثمننا الله طريقة سهلة لفتحها»

استحسنا جميعا هذه القولة وتحسنا لها، فما ندري إلا وبحر
نتخبط في حوارى المسطاط الصميقة المتقوية، التي صارت أشبه
بسراديبي من الظلمة تحت حيمة القصر، وصلنا إلى ذلك التقاطع
الذي يملك بكار «الحاج لولي» ماصيتيه، تحسنا بأيدينا الباب
والدرنيل والقصر والصدع والفصالات وكل شيء، إلى أن قال
«غزوي» بثقة:

«بالمعنى وحدها يفتح الباب».

ثم مشينا ندخن ونهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا
في شارع الخلاء البعيد المثل على؟ اسطبل عثر، على يميننا حاف
واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء، كلها دور من طابق
واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل مثلا لم صد نراعه عر
آخره بطور آخر للطابق الثالث، «بريش» و«غزولي» كانا صارحين
ببعضهما في الكلام بيمدان مسافة طويلة، و«بسموسة» و«هندي
مشي» معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة
منهما مشيت وحدي سارحا بنفسي، مخي يوجهني نحو حيا
الفسيل. ولقيت رجل إخراج المطواة، فلما أخصني للمصاحبة قد
هوادية بعيدة، خفق قلبي لشعوري بالوحدة للفاجئة، وكنت أحم
أنتي أريد أن أخلص من ضرورة، فصرت أتمسح بالمحائط بح
من حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتني، فلجئتني شبة
قريب إلى الأرض مهدون مائلون الأروق دهانا جنينا، وضلمتاد
منقسمتان من عرشهما إلى قسمين أحدهما سفلى وهو الانوا

«المخلق من الداخل، والثنائي علوي وهو الأقصر ومفتوح على
هضوعيه والقضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من
لالل أعود الحديد المتجاورة

هي العادة الذميمة يا حال! أبكا ما قدرت على الخلاص منها، إذ
هي قد حاديت الجدار وقربت رأسي من فتحة الشباك بمحاولا
النظر في داخل الغرفة، وأنا أرى الهول يا بوي، وقعت عيني أول
ما وقعت على سرير يعمدان بحاسية بذائر حريري مكرنشي، وبلا
للموسسة، ومطر الللاء فوقه بظيف غاية النظافة يرسل رائحة
مطره، والسرير كان حاليه، وسمة هواء ترافص كورنيش دائره
العلوي، فهذا لي يا حال كانه يتأهب لتلقي موقمة سخنة يشيب
لهولها ثوابلي. فلما دربت إلا بنفسي أحاسن لصق نفسي في
الحائط، وقد بدأت جيلوش من السبل تنتشر في كل عروقي تريد أن
تفرج كلها من ذلك الخروطوم المتلفس بين ساقى يا بوي، منظر
السرير لضبط غرلي يا بوي، قلب كل كپاسي، ذكرسي أني لم أكن
رأيت سرير! بهذه النظافة من سيني طويلة، فلما رأيت طار النوم
من عيني واشتد عرسي وفتحت على مشطى قدمي ورفعت عيني
وجمعت لغرفة كلها في نظرة واحدة، رأيت دولايا بفسلفتين في
مولجة السرير، بجواره كنية عربي، يتمدد عليه رجل سفوت
نايت للحمية والشارب أشقر للشعر، بعلقت فيه، فإذا هو مستغرق
في النوم كالقتيل العدمي العافية، منطرح على ظهره ناتح فمه
عن آخره فجأة زابت رائحة العطر في حياشيمي وأخذت تقترب
أكثر وأكثر مع اقتراب خفيف مجوار باب الحجرة الذي يفتح على

دهاليز شاحبة الصوء، أبعدت رأسى عن الشيبان برهة، وقلبي لحد يتنقض، عبت فسللت عيسى من بين أعواد الحديد. فإذا بي أراها يا حال، اللهم عفوك ورضائك يا أرض احفظي ما عليك امرأة قاتنة، تتردى قميصا من النابلون بعمالات رقيقة على الكتفين، كل جسمها بارز من حلال القميص الشفاف، طويلة مارعة عريضة الكتفين، يطرح شعرها والأسود على ظهرها شرائح قبيل على صفتى قناة الظهر إلى هضبة عالية، تنحدر نحو ساقين مبرومتين تنهين بسمانة كالشهد وكعب كالريال الفضى كانت تمسك يديها الممدودتين بترامبين غاربتين ككوبيا من الشاي، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه اليدر في يوم التمام، بهيمن واستعير كحيلتين. وعرشها مستطيلة، وبجبهته كالبالور تميل من فوقها جذائل الشعر الفنى، أما حدودها فتفاح طائب. وأما صدرها فلهاد فلعلا رمان وأما بطونها فطيات طيات، وأما خصرها فمجهل كبدع المطة نصف به سورة كالعجين العصا، أرداء التصاقى بالحنان وقد تصلب مسمارى يا بوى وأوشك أن يخرق الحائط لينفذ إليها، انصت هي على الكتبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان في كل شيء، فكنت أصبح يا وعدى، وكان قلبي قد غارقمي وحط على هذه القبة وهمار يبرلق فوق قمة الظهر وأصلا إلى الرأس بانفنا رأسى بين جذائل الشعر، وخرج هسوتها يا حال تقول قطة تطلب الحلال منابية داوووو، عير أنها كانت تنادى: صفصف! صفصف! الشاي أه يا حبيبي!

لم يرخ قلبي أن يصنق حكاية الشاي هذه شاي؟ شاي مانا يا بوى؟ وهل ينادى انره لشرب للشاي بكل هذه الرقة وهذا

الرجاء الأنثوى الحار؟ لا يا بوى، أنها تقول له بصريح الفتنة والعبارة قم وخذنى في حضنك، وكنتى أكلا، حتى لا تترك مني قشونة واحدة، عانت فاعتدلت واقفة قهقيل إلى أن لهما صلبا وليس على مسمارى هي وضعت كوبا الشاي على ترسيمة صغيرة. والتفتت، فمدت ذراعها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوى، لأواه وكل خلقتة

وا. يا خال، واه. تزلزل كنياسى يا حال وكركجت بطنى، وانعوج مسمارى من الرعب، إذ إسي فاكنت أن الرائد على الكتبة حجة هاسدة هو بذات نفسه الخلم «صفصف» صاحب القهوة الفردة، الذى يلقي الرعب في قلوب المدينة كلها فافقت أنه هائد لقوه من رحلة الليل اليرمية مهود العين من كثرة ما تكلم والتلق ولصاحب وسكر وصعب واحتال على نساء وبهايا ورجال من الحكومة وصبيان الياحة».

هل تقتنى هذه المهرة المتمة يا «صفصف» وتنتظر إلى غيرها؟ إنك إذن لدمى طلس، فارغ العين، أعرف أسك طول الليل تسكر وتغريد وترشم فكوكابين وتعمل في نفسك البدع لكي تضاجع امرأة ساقطة أو القصة من شارع محمد علي، هاك الآن هذه المهرة يا بقف لا تكسر بهاظرها، كي قادرا عليها وحدها تدخل البهنة يا بقف، وحق سيدى حمد الرحيم القناوى لو أن عدى هذه ما نظرت إلى غيرها وبقيت طول العمر حادما مخلما لهذه القبة الفضيحة القائنة بين الفخدين تطلب الامتلاء في الحلال إلى مالا

دهاية، أما أنت يا «صمصم» يا صاحب القهوة الضررة، يا من تشطر علينا جميعاً وتدمقنا المذاب ألواناً وتظهر علينا قوتك ورجولتك، فإنك الآن في وضع لا تحسد عليه، آه لو رأيك واحد من الزبائن وأنت كالحرقفة البالية أمام هذه المهرة اللامعة، التي اخترقت سحرنا حائط الداروسيعتني.

رأس «صمصم» يمزج على ذراع المرأة متهدلاً كالمرخ المذبح. والمرأة العنصرية تهز من دقبة بأصابعها قائمة في حنان لا مثيل له يا حال «صمصم» الشاي أه! اشرب الشاي». ولكن «صمصم» من يا بوي؟ إن «صمصم» ليس هنا وليس له شمة من وجود. والمرأة التعيسة تظل مسندة رأسه بذراعها لبرهة طويلة، تنظر فيها نحو السرير شاردة حريية بتظاير الشر من عينيها، لكنها لا تثبت حتى تعود فتوره من دقبة بأصابع كاصابع الخرد البندى قائمة بكثير من الرجاء والليل من اليأس «الشاي أه يا صمصم» اشرب الشاي بقي أحسن يا برد حالس! لعل نفسك بس» ثم إنها عدلت جالسا. وأسندت رأسه على السند واستدارت لتعني بكوب الشاي بين أصابعها، فما كانت تتحرك حتى تهوى من جديد مستويا على الكتبة.

استدارت إليه المرأة، تركت كوب للشاي، أنهضت الرائد عيسته جالسا، ضاربة حديه بكفها هي مداعبة حشنة حتى يفيق، مماثلة بمصيبة «صمصم» ما تصحى بقي تشرب الشاي! أنت من طلبت الشاي؟ ما تصحى متى يا أحس! وهو يهمهم مبربشا

برمضيه قائلا «أه! طيب» ثم لا يلبث حتى يتلق عيبيه ويكسر وقبته، العنصرية المسكنة أسدته على صدرها جالسة بجواره، وتناولت كوب الشاي وقربته منه، فإذا هو قد هوى واستوى ممحا على الكتبة وإذا هي بكل عيط وبكل قوتها، تشيع كوب الشاي إلى الحائط المواجه «أه! أ. خ. هجا الكوب إلى ستن حته». وانحدر الشاي سائلا على الحائط، تتصاعد منه غيوم الدخان، ومرت بنفسها فوق السرير كالدبيحة اللطسي، لمكان السرير ينفرط من شدة الرجة، وإذا بي أصبح من شدة الشيط دون أن أضر بنفسي «أتقوه عنيك راجل مر» وأما المرأة فقد ملوت وجهها ببديها وانحطت في البكاء والصعب.

وحارت تشد في شعرها وتغريش وجهها بأظفارها في عيط ابهر، وتتعب، كل ذلك وصاحبنا يبط إلى النوم حتى هيح شيطي، ولو كان معي سندس لأضربت في صدره كل رصاصه انتقاما لهذه قولية الغلبانة للمعرومة من بسيم الدنيا يا بوي.

ربك، والحق سمعت الولية علي، وتمزق قلبي من أجلها لحدت عليها وعلى لباس كلفها، وعمرت مسماري في الحائط حتى ألمس، ولم أكن أدري أنني أخذت أوقس الولية قائلا «أله يكون في عونك» فإذا هي تنقص قاعدة على حيلها مالمرة نحوي ملقية هينها في عيني تشوق خسارة صدرها بكفها، فلما رأتني غير خلف ورأس كاد يعثر بين أعواد الحديد مرت عن السرير مقترية نحوي والقصب يطق الشرار من عينيها، أود شئ فعلته كان بمصقة شعنتها إلى وجهي، فلم أتحرك من مكاني، مدت يديها

بصفتي الشباك لتتلقه، فمبعتها بأصابعي هامسا في وجهها: «ما الداعي لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى قلله» وأنا شعرت محوكة بالحب وكل أملي أن أبوك أحد روفلي! ثمالي وأنا أظني مارك المشتعلة إن اله ساقني الآن إليك لأظني ليهيك بدلا من هذه الحقبة الهامة»

كنت والله غير دار بنفسي، ولا كيف تقووت بهذا الكلام، والدي كنت واثقا معه لحظتها أن حوفي من المعلم «صفصفه» قد نزل إلى الصفير ولم يعد ذكر اسمه يرعيني، ومع أنه لو سمعني تلك اللحظة وأمس بوجودي، لقام ولحق بي وقطعني إربا، «إنني كنت واثقا من أن الحصرة التي هو مفرم بشرب كل أنواعها كالسلالة في كأس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولي تحمل من صدره قبل ظهر اليوم التالي، وعموما فعلى سبيل الاحتياط على مطواتي قرن الخزال مبرومة في نكة سروالي، ولا يلم من أن يكون السلاحان مشهورين معا أحيدهما لك، والآخر لهذه الحقبة إذا تحركت». هكذا قلت للحرورية وهي تبسك في عيني المصجلتين - بيني وبينك كان لي هينان ساحرثان في شبلي - وكان من الواضح أنها بدأت تتسمر بعيني يد كلامي، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بصفتي الشباك، فتلفلت يديها بيدي وقرينتهما من فص وصرت أنهار عليهما بالقبيلات الساحنة حتى ترفعت أعصاب المرأة وأنارت برأسها أن. لف من الباب، فانتصحت عن الشباك نعر الباب وثني في مداسي، أكاد أفرمه ليفضحي من الخوف. إذ

كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق في زعارة رقبه الأسد نفسه إذا حاول مدعي من دخول الجنة هذه التي دعيتي الآن لولوجها بسماحة وهي على آخر من الهمر

سمعت نكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، قدفعت جسمي في ظلام الفتحة وأعققت الباب من ورائي في رفق، ولزمت في حفس المرأة شابها على خصرها بكل قوة. صرت أعضها في كل مكان في وجهها وأخسفت عليها بكل هسواي صغوي، إلى أن شبت النار في عروقي، فادرت امرأة وكسرت ظهرها وسللت مسماري ورفعت ثيل قميصه، ودبكت الحصى المبع دكا حاميا، بذلت عرقا في عرق، فما يكاد سن الفأس يرفع قهضة من اللحم حتى يسد مكانها، فاعود لملع، ثم الطعن، ثم الطعن، والدم هربا مني يا حال، حتى سسعت امرأة بين يدي وثباتت كحدو القصب المصنوع، لما تركتها حتى برقت روعي فوق صدرها، ثم استرحت يا حال، وبم أصدق أنني فعلت شيئا من هذا، بل كل مجرد حلم نديد لكنني حين توجهت لنداب خرج هروني من تحت أكوام التراب يهيم للمرأة قائلا «مبسولة يا حرمة؟». هزت رأسها بانسامة قائلا «أراك كل يوم هنا في ساعة كهذه؟». قلت «يعمل لي البركة يا هدم» ووربت الناب قدافعت طارحا أجسر ساقني وألم دعاغي للبعضر النشوان، ولم يكن بدور براسي لأنني أبحث عن صحابي، لكنني فوجئت بأني قد صرت لويها من «قهوة صفصف» بابها بازن والنور يبعث من تحت،

معرفة أن بعض الزمان ساهرين، فسقوت على الباب بأصابعي.
 فنظر الولد من حرم الباب وتعرف على مرع الباب قلدا، فاصحيت
 بدعلا، لأجد الصحاب، كلهم جالسين يذوقون سائحين «كنت في
 يا بن العم؟» جلست بينهم قائلا «أهوجنى الضرورة للفرصة
 ورفع الثياب في ظلام الحلاء، فوضكو! وطلبت شايًا وعشرة
 حجارة على حسابي وكان يحيل إلى أن أحده من حسابي
 «صنف» وربما «صنف» نفسه أن يستطيع فتح عينيه في
 يده بعد الآن.

الثامنة - ليلة البلول السكر

حي آدم منا ليس أحسن منه في الذنوب والله يا بوى، وإلا فمن
 كان يتميل آدمي أكف عن الذهاب إلى عرمة «صنف» حيث
 تنتظري هورية سحنة شارية من أبار الفصل والنسج، في الأوب
 قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب على أن ألقا عيبه وأطرده من
 دماضي إذا كنت أنوي الاستقامة والمشى في الصفاة بالحد
 والصلحة، وحقيقة الأمر يا بوى آدمي كنت حائفا من جوار المطم
 «صنف»، الذي إن إمكنتي ملتبس فمضيري «دوت تريفيا
 بالمطوية وبضيق دمي هدرا، وكلمة فكرت في ذلك الذي حدث معي
 فزلع روحي وتكش في صدري ويرتجف بدمي، ويجيشني
 اعتقاد بأن الذي فعل ذلك الفصل الجري شمس سوى لا أعرف
 منه شيئا، لكنني يا بوى لا أتحدر على نفع هذا الفكر عني، حتى
 فخلطت من شدة الخوف والارتعاش الدائم أن «صنف» قد
 بات يعرف كل شيء، وأنه يدير لي تدبيراً حكيماً يهني به حياتي
 وحياة حرمته الفاضلة، فصرت والله أعرب من «قهوة صنف»
 ولم كان الولد ودي ما علمتها قط، صار الصوف والرعب يهيآن لي

تصاوير عجيبة كلما نظرت في وجهه - وجه صقصف - إذ يحمل إلى أنه قرغان منى لا يطبق رؤيتى. لهذا ثم أكن أترك عيني تقع في عينيهِ أَيْدًا

إلى أن سحبني الولد «هندي» من ذراعي وأبروي من في ركن من الحارة وقال «يظهر أن العلم صقصف رعلان منك! رعل خفيف يعنى - قلبي يا بوى واقع بين ساقى حشيشا كعود من الحطب والله يا خال. بصفت في عبي من الرعدة، قلت - حير يا رب اللهم اجعله حيرا» ضحك الملعون «هندي» وهديني بحركة من يده وقال - «مع صقصف كلما بالأمس عنك حيما ذهبت تفعل مثلما تفعل الناس!» جئت بصوتي من بين ساقى مهيضا وقلت «ماذا قال يا بوى؟» قال «هندي» «يقول إنه مدمتى من نظرة في عينيكَ بدأت تظهر له وهي تشبه نظرة الإحتشار! كأنك من غير مزاحدة لا تحترمه» ثم ضحك «هندي» فضحكت أنا الآخر مبتلصا الهراء، لكننى سمعت صوتا يصدرى يقول آه يا حسن هذه هي العلة والىبوى فمانا تفعل في عينيكَ؟ الأوفى لك ألا تجئ هذه القهرة وإن جئتها فلا تظن في عيني «صقصف» أَيْدًا.

ليئله كنا متواعدين على سرقة دكان «حاج لولي». وكانت العلة المطلوبة موجودة تحت ثيابي تصابقي تمنعني من الجلوس والشرب بر، حتى كنت أشتريها اليوم من وكالة البلح كما يصحني «عزولي». وكان طولها نزعاً، فلما انصرف «صقصف» إلى حال سبيله في أول المسهرة قلت وعرفت أنه هو الذى يصابقني وليس

العلة الحديد المعضة ركبتي في الحال قصرت أضحك بصوت عال، على القافى والمليان، لكن أسمع دماعى من الوقوف عند الذى ستمعته الليلة بعد ساعة ومن، إذ كلما هوب دماعى نحوها ركنى الرعب يا حال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر في جسدى لا يطبق سسماًراً على يطبق عضلة كهدده، صرت أتمنى أن أقوم وحجل بالفعل حتى محلى أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب، لكن صوتا يشبه صوت أبى قال لي اعقل يا ولد وحنيك ثقيلاً رأسياً، إذ مولت في بحر كهذا فلا ترمى بنفسك من الشيق في قلب الماء حتى لو كنت عالماً بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط. حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من النصب، لا تنزل إلا على بر. وفى الحال وجعتنى نفس الرعدة التى كان يزغدها لى في جنبي كلما اضطرتته للخروج عن صبره والإدلاء بصبيحة كبيرة كهدده، فالتشمر بدنى، وانتلصت متوجهاً، فصحك الأولاد كلهم من فرعتى هذه مع أسى شطيتها ب - وحد الله، الفارة ساهروني إننى - قد اتضح الآن - أركب الهواء، فلاكى ما يظنون وما يشتبهون فليس على الكلام جدارك، وكل واحد يقوى ما يحبه، «فرولى» قال للحاج «السمى» ما يحبه، والحاج «السمى» يفعل ما يحبه و «صقصف» كذلك يفعل ما يحبه وحتى حوريتة الصبونة في الآخرى تفعل ما يحجبها، فكيف لى يا بوى أن أحاسب أحدا على ما يفعله أو يفعل! إذا كان أحد لا يحاسب على ما يفعل أنا هؤلاء الرائد تفعل ما تفعل من شدة العوز، ومن غير

حياء تغفل حورية صفصف المصونة، إذ ما تشد عورها لشيء لا يستطيع المال أو الذهب أن يعطيه لها. أما الحاج «السنّي» فلما أنه يفعل ما يفعل يا حال؟ هذا هو الوحيد الذي يفعل ما يفعل لأنه لم يجد من يحسبه، لأن الذين في يدبهم أمر الحساب لا يشغلون أنفسهم إلا بـ يا حال، من الغلابة الذين يحسبهم القانوس «دلا» من مجرمين العتاة العدل في بلدنا يضرب تعظيم سلام للحاج «السنّي» وأمثاله أما من فيصربونما بالهرم القديمة على دماعتنا وبالشقوق في منحدراته يهيمون في وجوهنا ألا قاتلهم الله، اللهم أقم أبصارهم هنا وأبدل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة حتى يهجر على رسال ذلك الرجل الأريب الذي ينصب عليك سبحانه ويؤكك الأوبلة بدش وزيّبية صلاة كورقة الدمغة يستغل بها الناس ويستغلهم.

بهش «غرولي» قائلا «بنا؟» مهضنا في الحال ونحن نقول: «ع الظالم». حاسبنا القهوجي، وتسررسنا خارجين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربية التي سرقها «هندي» من جراج بعيد من مدينة مصر، واقفة في جارة أخرى من حواري الجيارة المظلمة، كانت تشبه عربة الشرطة المسماة باليوكس فورد الزرقاء

يخرب بيتك يا هندي يا ابن الكلب، كيف عثرت على عين المرء؟ قال: أركبوا، وجلس إلى عجلة القيادة وأباد للحرك في الحال فإذا صوتة هندي وباعم قامترحنا لذلك وقتنا، كفاه هذا اليوم يا «هندي» نتقدم باعم اليال ونقوم نحن بكل شيء، ثم إن

العمرة حُرمت في الحواري المظلمة على مهن شديدة، حوت من لفريق الحواريات، يدوية وحكمة لا يتأنيان إلا من «هندي» شارب الحشيش الدبمو والأفيون الصافي، ولقد تشك من ركن العربية لئلم الدكل مباشرة، فسد الشارع وصبح ديرة للفاعيين

بط «غرولي» على الأرض علم سمع به صوتا، علفت وراءه، وهبط إلى الأرض قاعدا على قرافيصه، سرب من العتلة انبطط للبيب وحشره بين الجدار والضيع الخشبي لبياب. وظل يحشر ويحشر ويلفر الحشب، إلى أن دخلت العتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه متجها مؤخرته في الأرض جادب العتلة نحو صدره بكل ما فيه من قوة، وصوت الحشب يطلق، والصبح يسفك تريا كثيرا، حتى نجح «غرولي» في فصل الضلع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحية الأخرى وفعل نفس الفع وحقق نفس النجاح، فأعجبني هذا الولد يا بوي ثم إنه صدر العتلة بالظول فيما بين الجدار والضلع، فارتفع الباب كله بجمعه موسسا من الفاصوليين صارة يترق منها رجل مثل سهونة، وكنت قد حلمت «هندي» وسررت بالفلانة والسروال، وكان «بريش» هو الآخر لايسا عريفك زرقاد

زرقاد بالخال يا حال، وبمدها سمكت مستحيذا باله من الظلمة لكنني كنت أعرف مكان زر البذور، فحفت متحسسا جسد الظلام حتى أدركته فلمسته فانبسط الضياء ووضح كل شيء، فسحب «غرولي» العتلة تاركا للباب يهبط على صدره صعد «بريش» في

الحال إلى سطح البيت هرب أمام الحصاد وانتزع من جيب سحري من العذبة مطواة أخذ يعكرش بها في درج الحصاد حتى فتحه ووقف برقص وينظر منتصباً حتى حبلى، ففجرت إلى جواره ونظرت، فهالني منظر النقود يا بوى، بسرعة أخرجت سدلي (محلوى)، فربته على البيت، صرت أعترف للربم للمؤسكة وأرض على المديون أكثر ما أكراماً، حتى عقدت أطرافه بصعوبة شديدة، وجهلت أهدر الباقي في كل جيوبى، ثم إنى قفزت نحو الباب، فدفعته بيدي، وسربت المديون إلى «عرولى» فيجذبه، بسرعة شديدة، أشار بي «بريش» على جوال فارغ، أمسكته فثعبته، صرنا نقذف فيه بكل طب السجائر والدخان والشاي والصابون الفاخر والسربين والسلمون والبولوييف وكل ما على الرفوف من طب وصناديق أفرعناه في عدة أجيولة، حتى حلت الرفوف تماماً وظهرت الصائط كمديون محلوى لم يترسح إلا في خطوط هذه المنيعات الضيقة، صرنا أعقد الأجيولة وأسربها من تحت الباب فيثقلها «عزولى» ويرصها في صندوق للعربة بدور صوت، استندنا إلى صنف من الطبق الكروتوبية المبرشمة بورق لاصق سميك، اخترقنا بعضها بسن المطواة فوجدناها تحوى قمر الدين والتين والزبيب. فصار «بريش» يقف لي بالواحدة فالسريفة بعد من تحت عقب الباب لـ «عرولى»، فيرمى بها لـ «هندي» الذي يرصها في أرض العربة. هكذا حتى أتينا على تلال كبيرة نقلت بكاملها إلى العربة، تعثرنا في حارة من الصفائح للكيرة

مرتعة بجانب وقرق بعضها، كنت أعرف أنها سمى وجين وريتون، كانت أكثر من أربعين صفيحة حولناها كلها إلى العربة، لم إنا استندنا إلى صنف من الأجيولة المفتوحة تمتلئ بسكر وعس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبارلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف المطارة من لفلل وكمون وشيح وهداء كل هذا صُعب عينا أن نتركه، فصرنا نحرم الجيول ونعقده وسريه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميل زيت كبيرة لا يستطيع حملها أو دهرجتها من الباب، بعد ذلك نطقت الباب وخرجت، ومن ورثى، «بريش» الذي حرص على أن يطفى المود كانت العربة ناشرة، فتمددت قرق البضاعة وأبطلت للعربة تشق طريقها كالشعير إلى أن خرجت من الحواري واتخذت الطريق الطواني نحو شادر الحاج السنى.

حاجة تهوس يا بوى. الحاج السنى ثابته؟ الحديد ولنا يقدر على تسويقه، فكيف يقدر على تسويق هذه التشكيلة الضيعة من البضائع؟ فلما رأيت من حولى أشباه كثيرة لها قلت لنفسى، لا تستغرب يا ولد، وانسريت أرفع البضاعة وأرصها على الأرض، «هاركنى» «عرولى» و«هندي» و«بريش» كلهم ملهوجين، شعوبهم لافلة «بيجوبى»، وعيوننا كلها لائفة بصرة المديون البارزة في عب «عزولى». فلما فرغنا مطرنا في الصمولة فوجدناها سميكة يا بوى، فلم نضمت عيوننا لبعضها البعض، ونظر «عرولى» إلى «هندي» وقال، «أنت وبريش تتخلصان من العربة، ورسم لهما طريقة التخلص منها» «هندي» يركب العربة ويمضى يشدكاً بها في

الطريق، حتى ينجح «بريش» في إيقاف عربة أجرة حالية من الريبائن، فيركبها قائلاً للسائق على طول يا أسطى، فيمضي السائق في نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماشياً طائفاً عربة «هندي» ماضية، إلى أن يجد «هندي» حارة مناسبة في حي بعيد فيركب العربة فيها بكل عناية ويرسل منها ويطلقها ثم يمضي لحال سبيله كأنه صاحبها سيمود ليركبها بعد قليل، في هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بريش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عروا، ويستخرج من جيبه ورقة فيقرأها ويرسل فينظر في أوراق بعض البيوت ويتوقف أي شخص يسأله عن أي عروا وهمي، حتى يكون «هندي» قد خرج من الحارة ماشياً على قدميه لميتكم معه «بريش» ليسأله عن العروا الوهمي فيجبره «هندي» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمرع حنيقة، فيقول له «بريش» أن طريقه المودرة إلى مصر حنيقة، ويرجع إلى مكانه.

تحالف اليمين يا برى أن هذا كله ثم في ثلث ساعة زمن ماخذا سيجارتين، وكان «غرولى» صليحاً فلم يدعى أنزلت من بين يديه برهة واحدة، وكنت صاحباً للمندبل في عه فلم نقلت حركة يديه من عيسى برهة واحدة وكنت لا أدعه يصح يده في جيبه قد لا وراقت حركتها، فلما وصل كل من «هندي» و«بريش» اقتريا منا قائلين في نفس واحد ما الحال؟ تذكرنا أمداً أرسلنا حفيظ للشاير

يتأذى الحاج الأسى من لحظة وصولنا فذهب ولم يعد، فقال «هندي» متفاجراً: «وهذا إلى روض القوج وعدم الذهاب الرسالة مسافة خطوتين فلم يعد». فإذا بصوت الحفيظ يبعثنا من حنف ظهوراً: «ومن أبرك أسى لم أعد يا بقب؟» ما هذا يا برى؟ نظرتنا خلفنا بعد أن يصعدنا في عينا من الرعب، صحننا «كجف حدا يا بولعم؟ ذهبت تبادي الحاج غمدت في السر ولم ترد علينا؟». وكل حصرته جالساً على باب حُصه في الظلام يرقب ويرانا فوق أن وراء ثم إنه ما صدق أن كشف هو نفسه حتى أشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر: «تظنون أسى طوي هذا الوقت عند الحاج؟ إن عدوكم أهبل! إنني لا أصلي ظهرى لوالد يدخل هنا ولو كانت ربيبة الصلاة في جيبه أطول من لصيته! هل يتصور عدوكم الأهبل أنسى أنركم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم! وأنا أعرف من أنتم؟».

ثم انفجر ضاحكاً كصف الزود، ومسح على شواربه الطويلة آثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحاج قبل صلاة الفجر! فإنه وهو شائم يصلي يلايكم في الطريق! وسوف يسلمكم بالطبع حتى يصل في جامع عمرو بن العاص ويهود!». وجدنا كلامه صليحاً لهلسنا فرق الصفائح والأجولة نتسلى بأكل الربيب وقمر الدين والذين للجف حتى صاح الحفيظ: «أما تيعشوا شيئاً مما تأكلون؟». فقال «غرولى» ملوحاً بيده: «ما خدمتنا خدمة تستحق عليها ههنا». وقال «بريش» ليكسبه: «وأتيت أما تستطيع لنجى لتأكل

معناه، فامبري هندی يسأل الحفير «لديك رغبان؟» قال «عندي» قلنا جميعاً «هاتها وتعال» ورحل هندی، بعض الصفائح واستقى واحدة مفتوحة وقال «هات منك طيباء اني الحفير من داخل الحص بطبق كبير من الالومنيوم والبريق رطلان كبيرة يعرض المطرحة مما تعبده روجه الصميدية في قرن نقيمه لها حلف الشادر من ناحية المظاير، تيمره لا لتاكله فحسب، بل لتبعمه للفراغية الصميدية والافندية الذين يحششون في غور بين المقابر

فتح هندی، صميدية وب يد فيه فأخرجها بحرطة جين تزيد عن أفة، وضعمها في الطبوق. وفتح صميدية اخرى فأخرج حفاها كبيراً من الزيتور الأسود، بلقه في الطبوق فوق قطعة الجين قاتلاً باسم لكة كان منظر الجبر لامعاً براقاً وطعمه سائفاً، فاكلنا خرطنتين كبيرتين وجعبة زيتون وستة أرطفة، وكلفانا الخفير على أرغفته ببقية صميدية الجبر المفتوحة فكانا يجهن من الفرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد ان تناولنا في حصه وعاد

أقول بالله من قولة أنا معجب بمنظر الفرحة إعجابي بالفرح نفسه، أي والله يا بوى، ان الفرح هندی هو منظر الفرحة على وجه أحد من الناس لا سيما إذا كنت أنا الذي تصيب فيها، فلما رأيت الفرحة بصميدية الجبر كبيرة على وجه الحفير اللخيم وعرفت أنه سيمضي شهراً بطولاً لا يشقري جماً من لادكان فرحت لفرحته وجئت بالملب الكرتونية المفتوحة وجسمتها فوجدت ما

فيها قليلاً، ففرطت كل ما كان فيها من ربيب وتين ومشمشية وقمر الدين، فعلاً علية واحدة لثمنها، قاطعتيتها لشخفير قاتلاً له على سبيل التفككة «إملاً لدا سلطانية من بولها» لاهتصدها الحفير، وبفطرة واحدة صار في الحص، معدف سمعت عكرشة داخل الحص، أدركنا منها أنه يحلى هذه الفنيمة حتى يوزعها على أولاده مالعيل والقسطاس، وقال «غزوي» في تريقة نواتها صدق حقيقي «طول عمرك لم تقي الأياميش يا سبطاوي! فادع بلذين بلوا ويذك به»

ظهر «سبطاوي» الخفير ممسكاً بحلة صغيرة، والبندقية معلقة في كتفه، وهو محسب الفامة، يقول «يا ميش يعني إيه يا بو العم».

هجمكنا يا بوى، شفرنا رغماً عنا، فأنزعج «سبطاوي» وسحب بندقية عليها صائحا: «الذار فيها هريم يا ولد الفرطوس! فاحتشم انت وهواه» ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل «يا ميش إيه الذي كنت محشوق طيه ده يا بو العم؟» فقال «هندي» «يعني الزبيب والقمح الدين والبن والخبز التي انت رقتة دبوقة» رفع الخفير لثفه ومسح شاربيه وصاح في استكشاف «ها..!..» بقي كده يا بوى، اسمه يا ميش طب عال، أدى كلمة جديدة لتقلت بها على قولية التي فاكرفي ما علمهمش، وصار يؤتى بحركات رافعة علامة على فرحه والفتباطه، فلما ترقص شعرنا أن الحلة لظلة في يده وهو يهزها يهزها في الهواء، وصوت حشيشة

ورققة يبعث منها، ثم اقترب، فظهر أن الحلة حمالة بالزبيب والقمر الذين لثمها، وهو يفرق فيها بعلقة كبيرة ثم يتوق شقطة صغيرة ويتمط مرقصا شاربيا، وسلم الحلة والعلقة إلى قائلها «حذ بصيكن وكذلك تظروا» فأمسكت بالحلة والعلقة وصرت أطوح في فمي ربيبا وبينا، ورأيت المعلقة لا تستطعي في الشرب فرفعت الحلة إلى فمي وشفتت نفسي من مضبوطي ثم سلمت الحلة لـ «غزولي»، ففعل مثكما فعلت، وسلمها لـ «همدي»، ففعل هو الآخر ثم سلمها لـ «بريش» فأثى على ما فيها في شططتين، وهنا صاح العفير في ذعر «مانابي»، شوح له «ما تبقاش طماح» فاحتظف العفير الحلة بغيظ، وغاب في الحصى بمكرش، فبان أنه يبيل لنفسه كمية أخرى، وفسلا يا بوي، ظهر ممسكا بالحلة يديرها ليديب سكرها وهو واقف على باب الحصى علامة أنه سيفرد بالحلة وحده، وصار يشط ويصنع قائلها في فمطة «قبل ما العيال يصصوا وأروح بلاش» قال «بريش» للعفير وهو مستغيب من فجئته «الحاج السنس لم يتركك حاجات من هذه أبدا؟» قال العفير ولد بصحت في صوته لمرشة صدق. «عمرو ما فطها رشم أنفى أشتريتها له من الدكان كما أشتري خضار السلاطة في رمضان! أحمرطها وأصعبها مع اللبلول في المشربية لحين أبلو اغرب! فلا يفكر المديوب في أن يرسل لنا ما تقى منه! تعرف يا بوالعم؟ مرة أحببت أن ألقده فاشتريت خضار سلاطة وخرطتها وحضرتها لنفسى! وحين صلى هو المغرب في عمرو بن العاص

وجاء بجري؛ فأت من أمامي ومن نطرت أمام الحصى عاندش ي بوالعم من طبق السلاطة وبعد أن صصى حطوة رجع ونظر في طبق السلاطة وفي عيينه ما تقول لى، من أين لك بهذا الطبق؟ لابد أنك سرقته أو سمسرت من الصباعة وأنت تشترىها منهم يا بوالعم حرمت من يومها أن أشتري له شيئا أو أخشط شيئا! اكتسعت بالخفارة وحدها «ألقى «همدي» الدثلا «هو بصراحة رجل لا يستحق البلى» ربما استحق التحريط!»، قال «غزولي» مشعلا سيجارة «لاؤدقة وشواربه مثلك النرجير تبقى حلو» تفتح النفس للأكل! رعى العفير بالحلة من طول ذراعه في الحصى وشوح بقرف: «يا بوي هو رجل طعمه مزز يصد النفس!»، واقترب بصوما مهولا «هاتو سيجارة» لا أعرف لماذا أسرعت يدي فأخرجت له علبة سجاير وينجز كبيرة أعطيتها له قائلا «حلال طيك يا عم!»، فاصطح «غزولي» صانعا ولكن براح. «وهذا ليس مال أبوك تفكر منه!»، وقال «بريش» مقلدا الصحايدة «اللى ينفدر ينفدر من جيبه»، فصاح العفير وهو يدس العلبة في جيب الثباطو المنزول كالجمال. «بينا يجهل جيوب المزمين همارا»، ثم تدلج حتى الحصى، فلقرفص على بابه وصار يدخل في استمتاع.

الفهر قال: الله أكبر، وسمعا ترماس البوابة من الداخل منك بهدة، وصوت باب صغير في وسطها يفتح ويدلف منه الحاج السنس كشبح أبيض في أبيض، تتدلى من يده مسحة طويلة، وهو

يسمع ويحول إلى أن حاداً ما لم تبد عليه البعثة من وجود
ناس غريبه في شانه وأمام بوابة داره، بل اكتفى بأن فات راعيا
كله بحذاء أنته قائلا السلام عليكم، ومضى غير عابئ بردما
عليه

دخل الصبح عليا من حقل مشمع السرايق عند كبسولات
البحال المربوطة، وظهرت من الباب عيانه الرقراء الغامقة المبيضة
قليلًا، وظهرت من بعيد أصوات أقدام وهممة المصلين الخارجيين
من جامع عمرو بن العاص، سمعنا صوت الحاج السمي في الصلاة
يتكلم مع بعض الناس في أمور الدين والمواظع وحشام الصلاة
وكيف تكون، فصدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام
فيأتي معه بأحد يرأنا على هذا الوضع فتكون بداية الفضيحة لكنه
أخيرا دخل ببسمل فلما اقترب منا قال «صباح الخير يا أولاد»
ثم أهد بجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة، بسرعة أمسك
«عزولي» بالجرال الكبير ودلى ما فيه فوق الأرض، ونقص علي
السجائر كلها فحزمتها على جيب ثيابنا «هذه لنا مستقرقها»
هليانا، وأراح بقية محتويات الجوال نحو الحاج السمي، الذي مال
عليها وفحصها فحسنا جيدا ثم عاد لفتح كل الأجولة، وفحص ما
فيها، ثم سعى بالله الرحيم الرحيم وأخرج من سبيلاته دفثرا
مطويا بالملول، سارع من قلته النظم الكويبا، واتجه نحو الميزان
المتربع قرب بوابة الدار، تبصه معرجز الأجولة والصفائح والعلب
ومسعا على طلبة الميزان، والحاج يرد ويدور في الدفتر. ويضع

أمام الأرقام أرقاما وعلاماته ويخرج ويجمع ويضرب ويقسم،
وفي النهاية قال: «هذه البيعة كلها هي رقاب بعضها بثلاثمائة
جنته ولا ملين موقها» وأنا وصيحي فيها! فإنها بصاعة حاملة
شكك شهورا طويلة، يعني أن الثلاثمائة الجمية في جيبي أحسن
من بصاعتكم هذه في مكتبي! لكني وحق صلاتي لا أريد أن
أكشفكم لك قولوا لي من أين جئتم بها؟» فقال «عزولي» كلام
مفتائرا مسعا أن هذه البصاعة تجس جماعة من البيبونية مع
أصدقائه وقد قصنوه في بيها لحسابهم وما قال الحاج «طبع
هم يسرقونها من السفى العابرة أو الواقفة» قال «عزولي» «لا
وأنت لصادق هم يأخذونها عنى سبيهن الهبت من أصحاب
الراكب، بالراكب المحملة بالتسر تعطى ثرا! والمحملة بالبصل
تعطى بصلا» وكلها تعطى عنى السجائر! وهم يجمعون هذه
الهبات إلى أن تصبح كميات صالحة للبيع فيكفون وهذا ملكي
بهمها»

كانت في عيني الحاج السمي مظرة بعيدة الفور تقول بالفم
المهاجر أن كلام «عزولي» السوي هذا رغم عقوليته لم يدهش
وهماقه ولم يأكل منه بسلام، ومع ذلك قال «عني بركة الله على
بركة الله» كذلك كانت عين «عزولي» تقول بالفتش إنه يعرف أن
الحاج «السمي» لم يصدق من كلامه حرفا، ومع ذلك رد عليه
قائلا «الله من فضل الله! كله من فضل الله» كندا تنفجر من
الضحك يا هوي، لأن «عزولي» لم يفلتها كان يتكلم بصوت وبيعة

الناس الاتقياء الذين لا يد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «الستى» نظر إليه من تحت مظلة مدهولة متشككة، فسرها للعيد له: «بأن الحاج كعاد يصدق «عرولى» محدثت له هذه الهرة إلا أن الحاج طوى نظرت وأخرج من سيالته رزمة النقود المطوية، متحفا بين أصابعه وهزار يعد العشرات المجددة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «عرولى» وهو يتناول النقود «كلام دول؟» فقال الحاج وهو يغمض حجرة ثم يتوقف: «أنا ما أبلى وجه الدماغ؛ هذا هو الجيم وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عيسى» قال «بريش» وهو يشير إليها بالدهوس للانصراف «هلاسى! معرضها فى بيعة أخرى لينتك فل يا حاج».

مضيقا يتروح فى الجليل مثل السكرى، وكانت طلب السجائر مصرودة فى خرقة قديمة استلفناها من «سطارى» الصغير، قال «هدى» فى حسم «مذهب إلى بيتى» لم يرد، لكننا هودنا تلقائيا نحو بيته تلك الصخرة الكائنة فى حارة من الحواري الزبونة تحت بوابة من بوابات مسهرى العيون، افترشنا الأرض يا حال، ونفخ كل منا جويبه يا خيال، بريش وعرولى وأنا، فلذا أمامنا كومة من النقود كانت البنك الأهلنى، أحصيناها فوجسنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين، نحيا المائتين جامبا وورعنا الباقي عطينا بالمعدل والتسليم، وكذا فعلنا بالسحائر، وبقيا مسنين ظهورنا للحائط كاسوك الأكاسرة، وقال «عرولى» وهو يطوى المائتى الجنيه الباقية: «هده لايد أن نغفر بها اليوم فيها عيدا للإقطار» قلنا:

«وجب» وقمنا قبلنا وقد نفى النوم من دماغنا وتقلجت عيوننا بالقرفان، وكانت الشمس فى انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ومن غير قادرين على النظر فيها، قمشينا حتى باب اللوق، أفرطنا قولنا وطعمية عند الدمياضى، ثم عدنا إلى قهوة «مصطف» حيث طرقتنا حوالى مائتى حجر، وكانت الظهيرة قد حمت الكرى فقال «عرولى» «ما رأيكم الآن فى الفداء كيابا عند أبى هفرقة؟» قلنا «مثل الناس فلطبيين؟» قال «نعم» قلنا «إلى هناك نصير حالا؟» كنا أول من دخل المحل يومها، فعلا جاءت الصلاطات التى لكك يحيا، وأنزل يا ولد حنك بتك، كل ما رفع كلور كياب وكلفه وحيدنا لكك على ذلك، وكل بك لم يتكلف أكثر من خمسين جنها هضمنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات.

قلت لـ «عرولى» «كشانا هذا وروح بقية المبلغ علينا بالأسارى» فقال «بريش» «يستص» إذا رسا لايد أن يفتنى من المنطقة كلها شهرا على الألال لاظهور مجتمعين أبدا» قال «سبوسة» طرعا بكك الملتحمة «أنا مسافر إلى دمياط غدا لفرء جهاز هروسة» قلنا جميعا «لى يا بسبوسة؟» قال باسمنا «لى» صحننا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تترج ذاك؟» قال محتجا على احتججنا: «مأ غلط يا أسيداما» الفروس فى روجتى بعينها بنت الناس نروجتها على حصيرة وكانت راضية ففكرنا لك ونقل أصلنا معها؟ حنقت ألا أجهر لها

عششها إلا من دميأط مثل يذات العانس الأكابر! شوحنا قارئين.
«حلل عليك يا عم! وقال «بريش» كأنه يكلم نفسه سلسلتر غدا
إلى الإسكندرية يومين أو ثلاثة» قال «غزولي» كأنه يرد عليه
وحده «وأما ساندل روجش مستشفي الذمراش لتجرى عملية
من أجل الطفلة عسي أن يكرمها الله بولد أو حتى بنت تحفظ
سلسنا» قلت «معك الآن مبلغ ينفك في العملية آخر فل» قال
«إنه من حسن حظ الولاية الفلبانية» ربما أكرما بهذه البشعة!
ولولاها ما علمت الولاية بإجراء هذه العملية أبدا» - وكان صورته
في مكتبتي الطبية والله يا بوي، ثم إنه ورج المبلغ الباقي علينا
وانصرف لا تسعه الدنيا من الفرح، فدعونا له بنجاح العملية،
وانصرف «مبسوسة» هو الآخر فدعونا له بجهاز مستريح الشى،
ثم انصرف «بريش» فدعونا له ببسر معشول الجو وسر عادي
الراج، بقيت أنا و«هندي» والفخير قال «هندي» إلى المرم كابس
عليه بشدة ولهذا سيدعب لهما. فقلت «إني ذاهب إلى مشوار
بسيط وسوف ألحق به، وعضيت إلى مكتب البريد لأرسل لأمي
أكبر حوالة بريدي تلتقاها في حياتها» كنت أمشي معفوخ المصبر
أطير طيراما، فما أن وصلت مكتب البريد يا بوي حتى رأيت رجلى
تلفا على بعضهما من دول الحوف، تحلف اليمين، أسي عجرت
عن صد القدم من الأرض إلى رصيف المكتب، معينا منك وعن
السامين حصل لى ما يحصل للمشلول قبل أن يصيبه المذكور
والعياد بالله بدقيقة واحدة

رُن في دماغى صوت يائس حراى يقول: «س!» وقعت في
فخشب الله يا حلو! وما هودا يبرؤك في جسدك عقابا سريما على
ما فعلت!»، وسمعتني أود على هذا الصوت بقولي «لا إله إلا الله
محمد رسول الله! ندرا على» والله يا رب إن رأيت اللحظة بحالى
ولطفت بى وبأبي لتكوس العلة الأجيبة في حياتى وبعدما يحق
لي أن أطلب رخصان ومفرتك يا بوي عمري!»

سنى وفلسها لم يكن سن الشلل يا بوي، ولكن السهر والتعب
والجشوش والحوف وأفسام الشرطة وقلة النوم كل ذلك يعطى ما
كفلة الجسد ولو كانت جديدة بشمعهما ويرقى بياعه كل شىء له
هشود يا بوي، وكل مرينة لها حوتتب. ركنت رأسي على شباك
مكتب البريد حتى همدت الذبحة واضمحلت وعادت مكنة الجسد
الشلل من جديد، ويظهر أن رأيش في معدتى أو في دماي كان
يصد مذاذب الماكينة، ويصل سيرها، وقد أراح يمول الله وفلسه،
اللفس أصارة بالسود يا بوي، فهدى التى تلتصع هذه، لم يهسب
الروحة التي كأنه فيها مذ برعة، فامسحت وأشعلت سيجارة في
فمي الطبايى أروع ثانيا، لكنها موحدة لاذدة، وسرعان ما تبهرت
فخبرني لي، بيجوار رصيف المكتب، ولد يلهم بصبة شاي وقهوة،
فعلت طيه وركنت إليه معظرفا مكانه الفسح ثمت ظل شجرة
فلسها، على الرسي من القش جلست واضعا رجلا على رجل
وظفرت لجنات قهوة على التريحة، من رائحة القهوة والولد يذلقها
من الخبث في اللبهاى بدأ اللوقان! لما لثمت شرهه حتى صرت

في الرواق الشديد، واستمعت لصوت يشبه صوت أبي يرى في
 دمعني قائلا: «حالة ماذا يا عبيط يا أهطل هذه التي جئت ترسلها
 لأمك في القنانيم في كوم سعيد؟» ألا تعرف يا حاشي يا صاحب
 النواشب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لا بد أن يخلق فيه
 الناس، فتسبب هدفا للبلطقة حتى تتعمرى من ثيابك فتكتشف
 عورتك؟ وكيف بأهلك هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من
 طواف البريدة؟ سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبس المبلغ حقا إلى
 الصعيدي إن تمس بجبهه لاهله بيلوى، وأنت الآن تسعى لوضع
 يدك في الحديدة؟

رددت عليه بسعائب من دحان السجارة قائلا: «ولكني لا
 أقدر أن أمضي بهذا المبلغ في هذه المدينة يا بو العم! إني أعرضها
 إنها مدينة كفارة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع في كل
 حارة وكثرة الحجاج وراء الأثاث الدكاكين العامرة! لو ضبطوا
 أبليغ معي اسبق أما للشئ بتهتم ارتكبتها مثاث الحجاج ومثاث
 الأفندية ممن بيدهم مفتاح الحمار وأبراج الأوراق وأبواب
 المصالح...»

رأى الصوت من جديد في جدران دماغي، تخلف اليمين يا يرى
 تقول إنني تصدعت من رمتي، التي صدعتني ضاحكة ساحرة
 دوماً قال لك أن ضحى هنا يا ابن الكسوة؟ ما الذي يقصدك هنا
 بالثفود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير في قطار
 الصعيدي؟

هذا يا خاله تطعت ناهضا عن نفسي الكس، قلت: «معك حق
 الله يا هذا»، وحاسبت الولد على ثمن القهوة وماصلته في القرش
 للقيام ليس بعلا والله يا خال، ولكن نكابة في ولد يندما السابقين
 الأغباء الذين ظهرت سرقاتهم الكبيرة من عباوتهم في المصاريف
 الكبيرة في محلات اللهو واستنصار شأن النقود أمام الباعة وأهل
 الحرف، أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة في حرام حرب وسحق،
 وليس في جهنم سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لروم الصرف
 والمصهفة والفنطرة إلى أن يأتى الله بوزل جديد، وحتى هذه
 الأوراق مع بضع جنويات وأنصاف جنويات وأرباعها كانت
 مستبالة، مصرورة في منديل مربوط حول ردي تحت الثياب،
 وأبحث لنفسي حربة التصرف في بضع ضلالت وأبصاف
 فوائد من البضاعة الضالة

وعند نفسي الفرج، جرحرتني حتى أوصلني حجرة «هندي»
 فحصرته زر جرس على الباب في الشارع، فظفر «هندي» حلسة
 من وراء شفي الشباك: «سأمرى لك المذاق وتدخل، صحت به
 قائلا: «لا تدخل، فأنا سأخطف رجلي إلى الباب» وسأعود بمشيئة
 الله بعد يومين بالآلاف الثلاثة» قال: «تعود بالسلامة». ثم لوح بيده
 وأخفى من الباب، فاندفعت بين الحواشي الملتوية كالفار في شق
 طويل مظلم، فما جدت باني قد امتلكت الشارع العمومي حتى
 شططت في سبارة فوصلني إلى محطة الجيزة، لاركب منها إلى
 محطة «جنداء» على خط أسيوط، لتكون مع طلعة الشمس في
 كوم سعيد بالفلهم

ورقة الناسك: تسعة الأولة - ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال: ومن كانت أمه داعية له في ليلة القدر،
يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طوبى

وبفضل دعاء الوالد يس يا بوى عوضى الله خيرى فى الليل
صاحبى، وبالأكثر بعد أن تروح أبوه «يوسف النهار» بشيقتنى
«هندية»، تحف اليمى يا بوى أمى ما وجدت لى فى اليلة أملا
سواه: فدارنا مهددة من يوم ما حلت بيلتنا خضية عاتة الشير:
ودور أصامى قد باتت لا تستقبل إلا أولاد الفارس والمعهد والأمر
الذين هم أنداد ورملاء لأولادهم وهم فى الأصل - أعصامى
وولدتهم - لا يسألون عى ولا يتذكرون أمى من دمهم، أنا الآخر
ألهى الحية فلم أتعجب فلم أسأل، ولم أسأل فلم أتعجب وأمى
راكنة فى دار «خراية» شيفة مفرقة مكرمة.. فىلى من تهب؟ ..

دميت بالطبع إلى أمى، ففرحت محسورى كما فرحت روجة
«خراية»، وأكدت لى أن أمى مستريحة فى دارهم، وأنها لى
تبارحها حتى لو سيد دارنا من جديد. وأما كيف الكلام دا يا بوى؟

قلت الولية. مسكينة أمك يا حسن يا حوى! فمن يخدمها فى
الفرىكم وهى لوحدها؟ قلت ضاحكا: «هل يا ترى نتروك النار
شدهما وستريح؟» صاحبت هى وأمى معا: «قال الله ولا فالك
الفرى مالها ولبقاء أمك هنا؟» قلت «هل أبيها رنى؟» قالت أمى
بفرحة طافية «طيبا يا ولدى! إن أعطاك الله فبأيها اليوم قبل
الغدا» قلت بأسماء من الشوة «حاضر يا أم! صوف أبلى فى
الحال؟» وندموا لى لقمة سريعة طرية فاكلتها جيران حاطر،
وشربت الشاى وقمت «لى تروح يا ولده؟» قالت أمى «ثبتت فى
فرقة أولاد معهم طالما أنت هاهنا وقالت روجة خراية ذلك أيضا
قلت: «لا أنا سابيت عند صاحبى غليل حيث أوسع والراحة»
قلت «كنت وراحتك» وقالت أمى كالغشيرة لها: «إنها صاحب
بعل وحليق»، قالت: «أعرت يا صال»، ثم رنى نثرت على الولاد
كفهم عدد كبرها من البرابر والشلمات وأرياح الجبهات بمنظر
ذمك منه الولية وبأن فى صبيها قلب من الجسد، أما أمى
فارناحت وكادت تلح من طولها وتقطع شفتيها من العنصر عينيها،
وهناك فغمز لى لى لى لى واستفانة بار أكف من هذا الجنون
الذى أفضله، وقد أصابها الذبول من حصر ما فرقته على الولاد،
ولو طمت أنه القرب من الجنهات الخمسة لوقعت ميتة بما
يصوره السكة الذهبية فى الحال - أمال يا بوى. إنها ولية شقاية
طول صبرها من يوم أن خلفها الله ترغ أحمال الطين وراء حليم
قابع لحنها، وقد طم فيها الفخر وطمها كم للفرش الأبيض من نفع
مهم فى اليوم الأسود قلبى يرق لها والله دائما يا حال، سلمت

عليها وقرعت على يدها فرصة حفيظة أميها قائلاً في حجب
وابتسام. «ولا يهكم يا أم! تخير الله كثيره، وعرجته على زوجة
حرابة فسلمت عليها واستكثرت لها الخير من الله» وعضيت
موليا هو كوم سعيد

في منبج البلدة وأجهى فانوس مشتعل، يلقي على الأرض ظل
صورته العتيقة بأصلاعه الشبيهة بشكل الكاس، توقفت، وإذا هو
بالفعل. عم «صهيبة» المتصرف الذي يقمص مهاره عاكما على
العبيادة في حلوته وليلة منتقلا بين أضربة الأولياء في كل
البلد، يورهم باكياس من فاكهة القران الكريم يمشرها على
أعتابهم ثم يصرف ما هو يا قبل سموي بشكله الأمل الذي لا
يتغير رأسه الصغيرة المتصصبة بمعدل رفيع أحضر كالج. فوق
بقايا طربوش مغربي أسود امراره. وقامته المدهية للعتية قليلا
إلى الأمام بفعل الكهولة والسجود والعتوج لله. يتسريل يتلق
مرقع تقويع مع على الدوام رائحة المسك، يتأبط صلالة من المشم
مجهولة امحتوى، يمسك الفانوس بيضاء، والمصا ييسراه، يجعل
بصره الناهل في الطريق، مضمعا بصنوات وتسميمات غامضة

تذكرت يا حال أن عم «صهيبة» هذا هو جد صديقي «عليه
يعني» ميرسف التجاره ابنه، إذ إن عم «صهيبة» كان في الأحقر
تجارا للسواقي منذ زمن بعيد مجهول. سميت عليه قمم بلارد
واتخذت طريقي إلى دارة حيث يقطن صديقي «عليه»، وفي دعاي
خاطر يقول لي أن «عليه» مصيره سيكون كجده هذا بلدى الله، ثم
ضمتك عاليا

الثانية - قلب الراعي

يا بـ و و و و ي على تلك الفرحة التي القبي بهي
صاحبي «عليه»، كانت والله تسببه عظه فصار يهدى بكلام
الفسوق والحب والغربة والوحدة وصار من عتافه الطويين بي
محرم أخفى - روج أبيه - من فرصتها في عتافى. وصرت من
عليه له أحرم نفسي من فرحة عتاف أبيه لحظة من لحظات
الليلة كانت والله باخال. بعدما صرحت المسكين فرأجا وبطا
وهما، وأمثلا وسط الدار يدهان كبير له رائحة مسكرة. حتى
إذا ما جاء المغرب توسطنا وسط النار على مقربة من الكرائين
المضطحة، اللطافة بطل كثيرة، نفتش حصائر من السمار الملون،
لحمنا المساند، وإذا تحلقنا الطليبة وفوقها صينية العشاء حافنة بما
لذ وطاب مما جرمته في طول الليالي، سرنا نشط في تتابع
صوتي ونصيب عرقا، وبضرب بالملاعق في أكرام الفريك المكومة
في الألباق ندها نطرح بها في الأفواه والجميع يمسحون الطيور
المجردة ويرمون شرائحها أمامي وفي يدى وفي فمي، وأنا لا أرد
لاحد ظها ولا أكسر له خاطرا، ومكة الطحن شغالة على ستجة
صغرة، وكلما أزدحم حلقى بوارد البطح سلكته شفقطات المرق
الساحل فطبخ الفلفل في دماغى ثمرة، وفي عيني تفنجلها، ومي

عروق جسدى تريده التصف وبم يكن ذلك التوسع إلا لأن نفس
أختلى - وهو مندوب عن نفس أمي - كان يعطر هذا الطعام.

ثم إن «هليل» دعاني لفصل يدى ولدخول الحمام بثره، فلم
أكسفه بالطبع. وجدت في انتظاري شيئا نظيفة من ثياب «هليل»
في راحتها نفس أحتى كذلك، فبستها على جسد نظيف، فشعرت
والله كأن الروح قد ردت في من هذه اللحظة بحسب وكان الفلاء
الرحب في شوق إليها، فطعننا إليه نلتقيه ويطبقنا عند هديم دارنا
وقفنا، وشرعت أكلهم «هليل» في موضوع بيانها، فقال: «على الأقل
تقيم الجدران». شجعت يده صدى قائلا «بنيها على أحسن
وضع الحيز كثير والحمد لله» نظروا على عيني مستقهما عن آخر
مدى لهذا الحيز قلت: «مستورة والحمد لله» كله من نعيمه يا هليل
يا حوى! هر يده ليستريد التاكيد «تبسبى بداية» بنادية «قلت
بنفس التاكيد «طبعاً بداية بنيدة» وندوين لو أحببت». قال بفرحه
«إه! على بركة الله» من قد متوكل على الله».

لم نكتب حبرا الولد «هليل» ما أجده مشوار بسيط لحد
البنا من آخر البلدة، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركت كعب
لحد دار واحد يكرى لما أنقار تريح الهديم وتفتح للجديد، بضع
جسيمات نشرتها كهويون. فها! الله ما أتى الصباح بدوره الوضاح
إلا وفي دارنا أنقار تشتغل وطوب يدرل ومونة تصعد في القمصان.
بناء بالأسمنت يا ولد. أربع أيام والله يا بوى صارت الهار بعينها
واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبرن

ثم بدأ يشغل الحشيب، فم مضى أسبوع إلا وكامت مفتيح الأبواب
والشبابيك هي يدى. ولم يبق إلا الفرش الذى سألته عن
أسبوط الناس في بلد كثير يا بوى وأجره عرفهم «رخص شيء
في الدنيا، الواحد تشتريه حول اليوم بأكمله وشربه وكسوته بو
مكث في خدمتك حولاً كاملاً ما طالبك بشيء آخر الأشياء هي
الأخرى كثيرة لا تجد من يشتريها. ولكن لأن من هي عديم
يستغنون عن بيعها فهي مسجوبة حتى يظهر من يبر بالفرش.

على أسبوط سافرت أب «هليل» فاشتربنا عششا من كنب
وسرير ودولاب يصلح شوارا للوروس بنت العمدة ولكنى نويت
أن أجعل من دارنا داراً بحق وحقيق ذات مسرة يجتمع فيها القوم
بكل احترام ومعرفة، كنت أتح في عيون «هليل» كلاماً كثيراً بود بو
يفتت ليمت ويعجز معى فيه فيعرف من أين جاءنى كل هذه
الثروة هي ومن قليل؟! فلم أهرج له أبداً، عجز أنه لم يتركى! قال
عيب نحن بشد بفسين من الحشيش في عرره في مسدح الليل
«للهم يا بوعنى أن يكون ما هرفته على داركم فوسب جلالاً»
عشجحت به بيدي قائلا «نصك من مسألة الحلال والحرام هذه د
خوى! فواحق مخرج المصباح من الليل ومشرق الشمس أن البلدة
كلها تعيش حراماً في حرام وسعنا في سعنا! وبها هي هيب
ويطجة هي بلجة وتهلينا في تهيب! صمدنى د حوى حاميها
حرامها يا حوى! صرت أعتقد أن الله لا يبارت إلا في الحرام
ويحصى أهل الحرام ويرجع قدرهم في الدنيا مسجوع أن الله

سيعذبهم في الآخرة ولكن كيف أعيش أنا في الدنيا طاهرا من
العملية معدما من القوت في نفس الوقت؟ سأفوز بالآخرة؟ مت
يا حمار حتى يجيئك العليق؟ على الصعيدي لا يفهم كيف بحرمني
الله في العمياء من سمعة الدنيا ويعتج غيري بالجنة؟ إنك يا هليل
يا حوى نوبشت الحياة التي يعيشها ناس مصر الحروسة لوقعت
من طولك ميتا! اسكت يا هليل يا حوى لقد أصبحت والله أكره
الكلام في شعبة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شعبة الثورة هذه
أقصى زوالها من الوجود! حتى أبر عهدناصر نفسه بلدينا نفسه
صرت لا أحبه! صار قلبي يدرع كلما سمعت اسمه! دعنا يا هليل
نعيش لنا يومين قبلما نأكلنا الدئاب! إذا كنت تعيش بين اللصوص
والصرامية فلا بد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمار
وأيت جدي صغيرا يعاشر الدئاب ويعيش في سلام؟ حلال ماذا
وحرام ماذا يا هليل يا حوى؟ لقد حرمت الدنيا! أهل الثورة سرقوا
أراضي الناس وأسماعهم الذين لوهم بحرني جيبهم ثم وزعوه على
أهل لهم! وحرسوا عليه اللصوص والمفلسين ومن جاءه في
ركبهم!..

الحق لله يا بوى لم يراجعني «هليل» فيما قلته. كل ينظر في
وجهي ويشرب بعق ويكتم نفس الدخان في حلقه ليسر به من
أنفه ويحترنه في دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مسخ لبفهم
كلامى الكبير الذى قلته الآن. لكنه قال وهو يلفظ مقايا النفس:
«على كل حال كن مصبرا على نفسك في القرية» ضح عبيك في

وسط رأسك! قلت «هذا ما أنا به بالفعل فلا تقلق» قال «كم
صرفت حتى الآن؟» هرزت يدي ورأسي مبتسما في سعادة
وقلت «تصور يا هليل أن كل ما فعلناه لم يتكلف أكثر من ثلاث
مئات» بما في ذلك مساريها ومصاريفي من ساعة ما جئت!..
قال «بركة! بركة!» قلت «كله من حيرك يا هليل يا حوى لولا
جملك وحمارك ومحاب أبيك ما فعلنا شيئا حتى الآن» قال
«ففضل فضل الله» فهل بقي منك شيء من القرشيين؟ قلت
باسما: «كثير يا ولد» كان مع أمي الكثير مما أرسلته لها! وسأحد
منه معى عبد عودتي لحمصاء أروح الولد لهدته علامة لا بهساط
وقال «ومالذا ستفعل بها يا ولدا؟» قلت «سأضعها في دافتر
الثوفير» لكسي في جيبى قائلا «توفير ماذا يا عبيط! هاتها! أشتري
لك بها ماشية مربيهها وبيع وادها وتاكل سمعها وليها!»

تطفت اليمين والله يا خال أسى من فرحتي نظرت نفسي وانفعا
وصرت أحفمه وأنيبه لأنه افكر هذه الفكرة. قلت في فرحة
مولاه لأفعلن!.. بالمصادفة كان الدجوم سوقي في «صدفة» وهى
بلدة سوقها كبير، فذهبتا إليه من الفجر واشترينا خمس «دوس»
صبية ورأسين وراهما عجولين واشترينا حوالي عشر «دوس» من
الخدم وحمارا ينتفع به «هليل» في خدمة هذه الدوس واستخدمه
عند وجودي في البلد.

قلت «يا هليل يا حوى أنت عبيك التربية والتسمين وأنا على أن
الخصم الريح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكي أنا

وحدي: قال: «يأجدر فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا وسابقت لأمر بصصيتك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأتني الله لك بالاستقرار النهائي» ثم حفظتها رد هذا الكلام في دماغى فقلت لمعسى صحيح يا ولد ماد لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبية وبهائم وأصنام تعبد من ورائها: إنه لا ينقصك الآن سوى البيت «هنا» ما بين هي الآن يا ترى» لكن هنا الكلام حين أدركته في دماغى عسلج وأعسى ولم يدر بالمضبوط فحرفت أسى غير مرحب باللقاء في البلدة الآن على الأقل، فلأحضره والعصدة هذا سيجهلوسى سلوتهم وكلما وقع في البلدة حادث يجرونى إلى دوار العمدة ولابد أنهم يطلقون حول بمائى للدار بالبتن، وجور رأسمالي من الماشية الذي لابد سيظهر، سيقول الجميع من «ين له هذا وهو كحيث لا هنا ولاهنا»

اقتنعت أن ابتعادى عن وجوههم سببهم امرئ وسيتركوسى صو حالى وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتنى وصحت معى، وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمى عمه عن الجميع «ويطرمخ» عليه والأمر ماضية بالتكال، ثم إننى انقصمت على الحشيش، كالشبهون مشرب في آخر زاده، وبمعى تطلب الخلاوة المحببة صحت «هليل» قائلا «أنت الآن لست على صحتك فما الأمر» وبرفت في عينه نظرة حسنة شفقة.

فتجملتها قائلا «لاشى» لا شىء» قال في خيخ «يعنى ليس وركه أى مشاوير الليلة» ضحكت زعمدا عنى وتوددت، جئت إن لثت لا، أن يبقى معى ويعطنى، إذ إسى ورائى مشوار بالفعل. نظرت في عيسى «هليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال «ألم تشيع في مصر من هذه الشفلة»؟ انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليل» يصرف أسى الليلة على مؤهذ مع «كاملة»، حيث إنه ضاعبى وأنا أكلهما، وسمعها وهي تتواعد معى أثناء وقوفنا في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوى امرأة فائنة تلهى الشيخ عن صلاته لو مرت صبرتها في دماغه أثناء الصلاة هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال، وربما كان في البلدة أجمل منها، ولكن الفطر وحده هو الذى أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد مرقى عند صدرها فتنظر بهودها مثل شهنش من كور العسل يتبعنى البرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع الجلباب حقيق من الوسط من كثرة ما حيطت رقعه، فظهر لها حصر محيل وكفل مثل كتشب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تأكل ديه، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومديلبها أبو أوية متآكل وهي سهمة، فشرعها دائما مخروج على ظهرها قاحما كفل صفصاة على قضيب القمار أما وجهها يا حال ممثل رغب للبر العلامة الخارج نتوه من العرن مورنا بيك الدم فيه، عينان واسفتان كخبيى المقررة مكحولتان

وحدي، قال «يا جدي، شكك من هذا الكلام فلا ترق بس!» وسأبنت لأحد بنصبيك من الألبان كل يوم بيومه وساكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأتني الله لك بالاستقرار النهائي». لاحظتها حين هذا الكلام في دماغي فقلت لنفسى صحيح يا ولد لماذا لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماخ ملداً في الله قد أكرمك نادر أبهة وبهائم وأعيان تميز من ورائها، إنه لا يبقحك الآن سوى البيت «هنة» صابر في الآن يا نزي؟ لكن هذا الكلام حين أنرت في دماغي عسلج وأنعيس ولم يدر بالمصبوط فعرغت أني غير مرحب بالبقاء في البلدة الآن على الأقل، فالحفراء والعمدة هنا سيحفظون سكرتهم وكلنا واقع في البلدة حابث يجرونى إلى «دار العمدة» ولا بد أنهم يطقسون حول بناش للدار بالبيت، وحول رأسمالي من الماشية الذى لابد سيظهر، سيفول الجميع من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولا هناك»

اقتنعت أن «بتدائى» في وجوههم سيسبهم أمرى وسينركوسى في حالى، وعرفت كذلك أن حبة «لدييه» قد سحرتنى وفتحت معى وغيبوا متسع كبير لار يشرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع هبل الجميع يعمى بحبه عن الجميع «ويظهر» عيبه. والأمر مائشبة بالثكال، ثم إسمى انقصت معى الحشيش كالشهوان يشرب في آخر راده، وبغصى تعذب الملاوة الطمبية صحك «هليلة» فائلا «أنت الآن لست على معصك مما الأمر» وبرقت في عييه قطرة حسنة شقنة.

فتساءلتها قائلا «لاشى» لا شى». قال في خبث «يعنى ليس هروا، أى مشاوير الليلة؟» ضحكت رغما عى وتردبت، جفت إن لثت لا، أن يبقى معى ويعطلى، إذ إننى ورائى مشوار بالفعل. نظرت في عيى «هليلة» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال «لكن تشمع في مصر من هذه الشفلة». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليلة» يصرف أسمى الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه ضاعسى وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معى أثناء وقوفى في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوى امرأة فائنة تلهى الشيخ عن صلاته لو مرت مصورتها في دماخه أثناء الصلاة، هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال، وربما كان في البلدة أجمل منها، ولكن القصر وحده هو الذى أبرز جمال «كاملة» لتجميع، فليس عندها سوى جلاب وأحد مرقى عدد صدرها فتظهر بهودها مثل شهدين من كود الحبل يتحنى البرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع الجلاب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر محيل وكفل مثل كتشب تحت لقميب، وقد قصر الجلاب من كثرة ما تأكل ديله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فساتة صبيحة، وهديلها أبو أوية متآكل وهي سهمة، فشعرها دائما مخرج على ظهرها فأحما كظل صفصافة على قضيب القنار أم وجهها يا حال ممثل رغب الحيز العلامة الخارج نتوه من القرن موردا بك لدم فيه، عيانا واسفان كخيبي البقرة مكحولتان

كحلا طيبعا، لا ينظر عيهما مخلوق إلا ويقتوه ويتأكد أنها بحر يطلب الرى من ماء الحياة بغير حدود..

هذا الجمال كله يا بوى متزوج من رجل غلف حسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سمداوى»، يعمل سقاء^١ بالسوية، يحمل القرية على ظهره يملؤها من النخل يلف بها على البيوت يفرغها فى الأريار حتى تمتلئ، فى مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بصلة كيرار من البيرة أو حفنة قطن بأحدها عدد الحصاد، أو لا يأخذ لا يهم، هو ضعيف مثل كلب جربار فى حى غريب أنت وغيرك يشحط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يفعل شيئا أكثر من الجمجمة واليرطمة، وينتهى الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا النجس العجوز من هذه العجوزة الطرية الشبية، لكنها عجائب الزمن وما أكثرها فى بلادنا يا خال. غير أن الجميع يثقل ثقة كبيرة أن هذه المرأة المسكينة غير شبعانة من دهية الجماع، وبعضهم يطعم فيها ويستغفر الله له ولولايد، وبعضهم يأتيها فى السر، وكل مار من أمام بارتهم - إن كان من حى آخر - لا يد أن يكون قادما لـ «كاملة» أو من عندها وهى تسكن مع زوجها «سمداوى» فى دار فى نهاية حارة ضيقة مسجيلة ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة اسمه «حربوش»، كان يسرح فى الليل لاصطياد رفق وتلطيح من غيطان الناس وكانت كثيرا ما اضطره

لمساعدته ولا أفق عليه أبدا، كنت أيضا أحب شرب الشاي معه فى ليله كلما عزمنى لكى أتفرج - فقط - على هذه العجوزة الصالة

إلى أن من الله على بمقابلتها وحدها فى السوق تشتترى حاجات لناس طيبين تخدم عندهم فأحدثها على جيب وعرضت عليها الخدمات وقلت «أنا طالِب للقرية»، فقالت «يا مرحبا» قلت «میں» قالت «أنا لا أخرج من داري» ولا أعرف مكانا غير كنت تقدر على المجيء لى فى الدار فتعال» قلت «وروجك» قالت «سيكون دائما بهجورى ولن يمس بشيء» قلت «شوها» «لن أحسن أحذنه بالبومية على بوره أضمد لك أنفاس» فجعلت ضحكتهما ولكرتنى فى صدرى، قلت «يعنى هن آجى الليلة» قالت لى دل «تقدر؟» قلت «طبعاء» قالت «هلاص تعد من الجندار تجدا فى حوش الدار نألمين على الضميرة فثنام بهجورى تحت الغطاء» وأنا أمام باشا فى الطرف اليمى والباب فى ظهره» قلت وأنا منحنى القسامات «والله لأجيش أسيلة فانتظرينى بعد نصف الليل» فهرت رأسها موافقة ومضت، ومضت، ولكنى أيقنت أن ولدانا كثيرين من حارتها رأوب متواعد، وواجهوس بنظرات مسعومة، بل وتحسبوا شواربهم متوعدين، علامة على أننى لن أتحج فى الوصول إليها طبا شواربهم هذه قائمة فى وجوههم وعرفت أنهم سيرايطون لى طول الليل حتى يملحنى، فصمت على أن أفعل مهما كان الأمر

قلت لـ «هلل» وأنا أشطف آخر نفس فى الحجر «الحوحو» - أى الأخير - «يكفى هذا فقد صرت على سبعة عشرة» رعدنى هى

جيبى وقال بلهجة ذات معنى: «لماذا لا تخزى الشيطان وتمضى معى إلى الدار فندم هى أمان الله؟» قلت: «شف يا غليل يا حوى! لو لم يكن ولاد حارتهب رأوى وتحسسوا شواربهم كخنت سمعت كلامك الآن وجئت معك من سكات! أما وقد برموا لى فى شواربهم فزنتى لأبد لى البيلة أن أحيكهم جميعاً! أعرف أنهم الآن يتظلموس على راس الحارة! وسادعهم يتظلموس هكذا حتى الصبح فيما أكون راكبا أبهى مهمتى يسلام!» قال «هللى» وهو ينظر فى وجهى باستخفاف «كيف يا بوى؟ ولد فتوات أنت؟ أم لعلك ولد غاربت؟» قلت: «سنزى فى الصبح!» قال وهو يندارى وجهه بكفجه من شدة الضحك «مادمت قلت هذا فغالبا ظنى أنك لى تجمى» بها البر يا حسن! نظر نفسك حولى للجينية لكى تظفر بالعدوة على كل لسان! إخر الشيطان يا حسن فالعدوة تقصد حسنا أحر ليترك هو حولى الجينية بتاع رمان!.

تفطنت منه والله يا بوى، وصرت موشكا على الخلف فى حقه. لولا وثوقى من حبه لى، ووجدت أن خير الكلام ما قل ودل على رأى ذلك الصحافى المشهور الذى لا أعرف اسمه، فهضت واقفاً وقلت بهللى. «سامام فى دلزى هذه البيلة وفى الصبح أجى» لأظفر معك» قال هللى. «مادمت فى نارك الآن فسلانظرك هنا فوق هذه الكنية حتى تحلص من مهمتك الجينية وتعود!» قلت: «أهكنا رأيت؟» قال: «دعنى أكرى أول من يك بوش هذا الكتف لأجره لك فى النوم» قلت: «يريد شرف» ولكن احذر أن تقبل فوقه شيئا

على حس المهمة التى أنا ناهب لأناها الآن! صحك حتى استوى جالسا فوق الكنية وقال: «هل أمد متأكد أنك ستقوم بها حتى أبهى طيها؟» أوشك العيظ يركبى ركوباً تاماً، فلم أضحك معه، إنما راينسى القول له بضيقى: «أنت إيس تشك فى رجوليتى يا هللى!» فشوح قائلاً وهو يعود لتمدد على الكنية: «دهب! يذهب كل الله فى عونك!»

وذهبت يا خال

كان «مختار عريبي» الولد السابع ساكن أول دار في هذه الحارة قد قرش جوالا على مدخل الحارة بالحرم ودم متغلجا بجوال آخر كاشفا دماغه، وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عريبي» كلاما لا أتبينه، لبعذ المسافة بيني وبينهم، فكان الكلام يضيع كله في حفيف النسيم مكثت متفرضا ألف السجائر وأشعلتها من بعضها، مداريا شعلتها عند الجذب يكفي المضمومة مفسي حوالى نصف الساعة، كف بعنف صوت «مختار عريبي»، وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم إلا بشحير النوم، إننى أهرق أصواتهم جميعا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صابر» والولد «زيدان» والولد «سماعين» والولد «شعنة»، وهم كلهم عيال تمنية لكنهم أشقاء، لو هاجروا فى بلدة لأخضعوها.

مفسي نصف ساعة أحر، كف بعدفا صوت الولد «صابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقى الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويهتفون، وبعد حوالى عشر دقائق كفر عن الكلام شاما، فارتفع صوت نجيل الضفادع يقول يا أرض اشتدنى ما فوقك قدنى، أما قلبى لصمار يندق بصوت أعلى من صوت النقيق، إذ فكرت فى الفهم، والافتراق أكثر من الحارة. كنت مشغرا ديل جنسبى، لكنى لا يصبر عنه وشيش بيهم إلى وجودى، ولم أكن أمشى، بل كنت أمد سالى على وسعها، حتى شتقر قدمى على الأرض، فأنقل المسال الأخرى. وبعد برفة أمدف نفس المنة، حتى صرت على موه، سحر من الحارة، فلتوفحت، فارشا عيني على الأرض، حمى - يرب أشباح الولاد، متعددة فى أماكنها المتابعة وكانت

ثالثا- خطبة الإذاع

الحارة مستعجبة وراء حرفة محيل كبيرة، من قلب فى قلب النحيل ويرسل البصر بالطور يستطيع رؤية الحارة على طولها، ويرى كل من يدخل ويخرج منها أو يولى فاحتها، يرى الحارة بآيا بايا، وكنت قادرا على الوصول إلى الحارة من دارنا بفركة كب، غير أننى فى هذه الحالة لابد أن أمر على الولاد الساهرين فى انظارى فيحصل الاحتكاك بيني وبينهم، فتجئ انسالة غير ظريفة من بدايتهم ثم إن هدفى شئ آخر غير المراك، ولهذا لفت لفة كبيرة من وراء البلدة حتى سقطت داخل السحيل مباشرة وجعلت أترب الولاد من بعيد فى جوف الظلام، المحيل كخبر يا بوى، وكثيف، يطرح فوقى ظلما على ظلام، لكنى بعمو الله رقدت فى ملحوس مداريا جسدى فى جدد حلة كلنى مجرد انتفح فى نجاد، وأرست بريق عيمي إلى مساحة من الشارع العمومى الصادى للمحيل حيث تسقط منه الحارة إلى الداخل، فرأيت أربع ولدان شدد يتحركون مواجى السحيل، وأثنين من النسيم وآخرين من الشمال يتوقعون قدومى من جوف المخيل لأسقط مباشرة على الحارة

أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويصاعد شخير مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا في النوم، ما عدا «شعنة»، الذي كان في آخر حدود المخيل، حيث نادى عليهم واحداً واحداً فلم يرد أحد، فتعمد وتقلب، مغطياً وجهه للخيل.

رحلت متقرنهما، شيئاً فشيئاً، حتى صرت بين «زيانة» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلني عن كل منهما سوى بضعة أذرع من الهمس وعن الشمال، بقيت هكذا برفقة. ثم حشيت - أي والله يا خال - أن يسمعونوا دقات قلبي من شدة طو حسونتها، فبهضت وألقا، وعنى أطراف أصابعي ففرت، وهي القفزة، بكت أقدر على أن أدوس بقدمي فوق صدر «مختار هريبي» الراقد يسد الحارة بجسده، لكنني تحطيت به. فلما صرت في الحارة حلت فجأة من فكرة العصار، فارتدبت مذهوزاً، وخطوت من فوق جسد «مختار هريبي» ثانية، ومشيت في قلب الحارة ألياب «كاملة»، أمسكت في صدغه هذا، وشبعت في طوب التجدار دافعا بنفسي إلى أعلى، فتشكنت ساقاي اليسرى من الاشتياك بطوب الجدار، حتى استويت بكلى فوقه. واعتدلت. ورميت بنفسي في حوش الدار على أطراف أصابع قدمي

مدأت بقات قلبي لما رأيت أنني قد نجعت في الوصول، ولما لحت الأجساد متمدة فوق الحصيرة ومغطاة بالبطانية قلت لنفسى صبرت وثقت يا حسن، تذكرت قول «كاملة» بأنها غنام في الطرف الأيمن. هي إذن هذه التي تنام على مقربة مني. و...

يا بوي واه خطوة واحدة وأصير في حصنها، لكن يجب أن أنتظر برفقة، وربما يكون زوجها أو ابنها صاحب، بقيت متقرنهما في مكاني يا بوي، كأننا أنفاسي، حتى تأكدت أنهم جميعاً في أعلى بومة ويأكلون الأرز بالنس مع الملائكة، كل الأمور عال العال يا بوي، وأحد تمام، واه، واه من وساحة النحاس يا بوي، الولية يا بوي لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتبرك مع زوجها في هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجيء لتبببت عدد أحيائها سعداوي، السفاء، والولية - كاملة بقى - لم تقدر على أن تبعث لي رسالة يبلغني بما حصل، فسلمت أمره لله، ورفقت بجوار زوجها كالعادة، وجاءت عمتها هذه فرفقت بجوارها في الطرف الأيمن، وجئت أنا بسلامتي وضدت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحمني ريح عريب ليس هو ريح «كاملة» ولا غيرها، قلت لنفسى لعله ريح الدم. ومددت ذراعي وجعنت احتضنها فإذا بالولية تنفض مدعورة وتلا الشهل صراحا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم. صاحت الأصوات الغامضة في كل مكان، ونبهت صشرات الكلاب الشرسة لمربوطة حالف الأبواب، وملأت الدنيا زئيطا، وتيقظ كل الرجال في كل الصواري، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والبابيب تدق فوق ألياب طالبة تسلمي لتقطع جثتي. و«سعداوي» السفاء من شدة هوب ودهوله صار يهضم فيههم «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفره! أتم تنطون على في دارى! إني ساشكوكم بعمدة البيلة قبل العدة» أما أنا يا ... فقد صرت كأنهار في المصعدة أبحث عن حرم إبراهيم أخرج

منه، والكلاب جوار الباب تغرق، تريد مزج نفسها بالقوة من سلاسلها للاقصاء قوي راتحتي، إذ أنا متكور على نفسي في ركن قصي مظلم، إلى أن لاح الحلاص كشمس الصباح بعد برقة قصيرة، كأنني سقطت خلالها في فوة فيرو وحررت منه في الحال ذلك أنني كومة من تراب هديم بجوارتي، فادركت في الحال أنني لو تسفقتها صرث بقرة واحدة في دار صاحبي «خربوش».

واه يا بوي على فرحتي لحظت ذلك من كثرة الادة بالرامة تلكأت في التنفيذ، حيث رقدت على بطمي، وصرت أحلف كالشهبان فوق كتيف التراب، حتى صررت على سس الجدار، فاعتللت، وفزرت ساقطاً في قلب دار صاحبي «خربوش»، بجوار فرلشه بالفضبط، إذ هو يفرش وينام في الحوش بجوار هذا الجدار، تمسباً لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين يبطون على «كاملة» في داره، وقد تعود أن يربط للسكين الكبيرة على رننه ملفوفة في جراب وأريطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وخمها في لمح البصر.

انقض «خربوش» فأعده، ويده على رننه تنزع السكين فيحاً يصيح «ليشك أسود من شمر رأسك يا بوييل نجس»، وهم بالانقضاض على، دولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة. أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش»، أعاد السكين وتلقاني بالعصر. «يخرب بينك يا حسن! كنت عند كاملة»، قلت «إن الله حلیم ستاره» قال باسما «طب أجلس! مع بجوارتي» لا تفتح فمك»

تكرمت جواره مثل الكنكود العريار نحت وابل من الحذر فصار يهدري ويكتم صمكتة قائلاً على همس «تعمل سبعا ثم تكنتك بالصعر الرجال» فحاولت الممدد، والإيهم بأني سأتهور بفعل مجبور تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكارى، فصمط على كفتي قائلاً بصعيرة «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت الميابتيت رأسك الناشف دا» هو لا يستحق المشيشة أى دعم لكنه صالح لها من كثرة شغافه هذا ثاني مرة تبقى تسقيه شيف من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت، حتى تعرف ماذا يحصل في الحارة.

بقينا مصمتين وقتاً طويلاً وهياج الرجال يرداد حدة، ويتسع ثم يتلاشى قليلاً ثم يعود أكثر حدة فينشع كأل الكور كله يشارك فيه، وأسمى يتريد من حين إلى حين، ولكن صوت العقل كان ينزع وسط الصجيج قائلاً «يا جماعة لا تظلموا الجوع ولا تظلموا أحداً ما دام لم يخرج من الدار أحد» فيجابه صوت التكرير قائلاً «هن الفليجرة شحيره بالداخل حتى الصباح حولنا من المضيعة» وتعلو تنفث بعيدة من نفس الصوت «المضيعة حدثت وانتهي الأمراء تعلو تنفث أخرى، «تحتجر هشيقها خوف عليه من القتل»، فهطل الهياج من جديد وتنبى الميابتيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذي بالداخل، فيجأوبهم صوت «سعداوى» بالصر والصراخ واليكاء والتهديد بالعمدة

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوى» يصرخ لأول مرة في حباتي أراه يصرخ ويتصرع كالرجال، بل

إن صوته كان جعيراً ملتبساً بالرجولية والهيبة والوقار، فتعجبت والله يا حال عاية التعجب كيف يعنى هذا الرجل هذا الكثر الذى فى صوته؟ وهو الذى لم تكشفه من أول لحظة لحظى بمكانة كبيرة فى البلد. إنه صوت من قبيلة الباشوات واليكرات والعمد وملاك الدواير لكنه ضمن طريقه، فبدلاً من أن يصرب الناس بالكرباج ويعصو ذمهم، سمار سقاء يوردهم بالماء صبح مساء، لقاء أجر مؤجل، واليلة القديمة فوق رأسه، غير أن هذا كان من الأول يا «سعدواى»، وهيات أن تستقدم صوتك وحده فى صبح مبيتك، ثم إن سمك «سعدواى» وليس هذا الصوت بالذى يلبى على هذا الاسم، قامت إحد مزاة مع احترامنا لصوتك المجهى هذا ولكلامك المنفصل هذه: «أيها الناس الجبناء دونكم دارى هذه فادخلوها وفتشوا فيها من ذلك العشيق الذى تدعوى وجوده» حاكم يابى مفتوح فادخلوا واحترسوا وأنشسوا عرصى أكثر فربوا ألباكم من اللدم المسكين المسدباج» يا كضره يا من تدعوى الصوة والأش. فبالذى... الدرس؟ قسمه بالله ما اعتاكم هذه سوى انهصرم الله... ركبون مصرسور. إمدا الغيرة فاكل مزحواكم وأصراكم! حاكم تاجم وى فى عرصى متطوى على فى قلب دارى ولايد أن الله يمشحكم بمار جهنم النامية، مروصت فبكم أصرى إني الله! جسيبى الله وقمع الموكيل».

ثم سمعت صرير الباب وهو يطلق وصوت الكلاب يستلم الهواء، سكك الودج شيئاً فشيئاً. واستحب صوت العقل أسفاً

يستعيز بالله من الأشيطاني الرجيم، ويستغفر عن سوء الدواي، ويبقى صوت الحكمة واضحا، يبلغا بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فصيح خلق الله، مبردا الصراخ بان التولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس فى حقها وبهشوا فى عرضها، لقد بانث تعلم بأنشياح تهجم عليها فى عز اللين، ثم إن الصوت نفسه قد راح يتسحب هو الآخر مجهز كانت تصلى الحجر أمام درهه بين البخيلة وصار فى مقدورها أن يعرف أن ما بقى من جمع الرجال قد صلف على أبعاد النارة، وأن جمعهم قد أتجه زاحفا وهم يتكلمون، بما يشبه الاعتذار مرة، والتأكيد على وجوبى مرات، حتى شغب صوتهم عند آخر دار فى النارة، ثم اختفى تماماً مرة واحدة، فعرنا أنهم دخلوا دار «مفتار عريبي» ليكنوا الكلام.

هناك نهض «خربوش» وحفسى بخفة نحو الباب، فازاح الضبة بهفهو دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر فى الصارة، فتأكد من حثوها، فادفع حارجا كالمسدد المجهز بلا حفيف، بعد أن رد الباب خلفه وبعد بعد برفة قصيرة، ففتح الباب، وتسلل داخلًا، وقال لسه خطف رجله بعد دار «مفتار عريبي» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مفتار عريبي» أشعل الواوير يصنع شايًا. وسحبى من يدي، فخرجنا وأغلقنا الباب، بحلوتين اثنتين صرنا فى الشارع العمومى، منه بقفرة واحدة صرنا فى قلب المحفل، مضرب بجملى سرىعة، حتى لاح لنا

الطريق الزراعي المحاذي للترعة فامتدنا من بين المديح وامتطينا الطريق الزراعي، فباحرقنا مع المدخل الرئيسي للبلدة، فدخلنا فمصرنا في حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلا، أو من عند مأكينة المياه، التي كثيرا ما أخفوها أو يهفوها «خربوش» حتى لقد ارتبط اسم كل منا بها.

أخذنا نلثا في السير، وندهس السيائر، ونكلم وننتختر في سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة. يتقدمها صوة الشروق الفاتح «خربوش» رعم صياعته وشقاوته من عاتلة كبيرة. وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلا يجد من يوبس له على طرف حتى لو ضيقه بمرطقة. وهكذا ألقينا على الحارة نتجشتر، فوجدناهم جميعا قد خرجوا وترجعوا على مدخل الحارة، يتكلمون ويسفلون، ويصمهم بقلبي نفسه، وثيابه من القمل والبراغيث، وكان من الواضح أن حرما شديدا وعميقا جدا يخيم عليهم، والدموع لا تزال تسدر من مآكيتهم، وكأنت دار «سعداوي» مفتوحة، وعلى بابها يلف ماس كشار. ومن داخلها يجرى صوت بكاء ونواح، صاح أحدهم لما رأنا، وبدا من صوته أنه يعمل حساب له «خربوش» فحسب. «يا جماعة» يا جماعة! لقد ظلمنا حسن ولد أبو ضب، وما هو ذا قام من عند مأكينة المياه ياه! ياه! في السجون مظالم!

فنفروا جميعا فناء، ديهوتيس، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل قل الحزى يا حال، مع ذلك كان في عيونهم يريق حبيث، يحوم حولي بالشكوك، ويتشمسي في كل موضع، والأمرف تريد أن

تقفز، وتسقط في عبي، تتشغم رائحة الحياة تحت لباسي، وقال «خربوش»، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث «ما الأمر يا رجال؟» فحكوا له الأمر من طغلق لسلامو عليكم حيث صاح «خربوش» مصفقا كفا على كف «لا حول ولا قوة إلا بالله» الزجر معي من المغرب عند المأكينة وجاء يوصلي فحزمت عني بالضاي أنتم والله ظلمة ولا بد أن تصحفروا وتتأسفوا لحسن! من هو وجه ذلك؟ إنه ابن ماس طيبين وأعمامه شيوخ سبادة فحرام عليكم! كل منكم يحمي نفسه وكفاه ذلك فضلا بدلا من التعدي على حرمة الناس!، فصمتوا جميعا ولم يردوا، وجاءت الدموع تنهمر من هيونهم، مع ارتفاع صوت السراج القادم من دار سعداوي، السقاء روج «كاملة» فشوح «خربوش» وهو النار قائلا «وكي ما هذا؟» فلم يردوا وبعد برهة مطلق أحدهم من خلال بكنة «البقيّة في حياتكم سعداوي مات منذ ربح ساعة»

ماد: «! وشقنا بما كان سهم الله بول علي، ولم أدر إلا وأنا انفجر في البكاء واستدير صافيا نحو داري ومن خلفي «خربوش» يهدئ من بكائي ثارة ويلعني قارة أخرى، ولقد هزمت في هذه الصبحية الرخبة أن أمج من البلدة قبل أن تصبح سبرتي على كل لسان تقابلي في كل مكان.

الإبادة، المساحيق الخفيفة

وحتى هذه الليلة ومساءها أن الولد «يريش» كاد يقع من طوله في أن فوجئ من أبيض عليه كالقضاء المستعجل في قطار الصعيد مرقا يا «يريش» أصيبك في قطار الصعيد صدفة؟ ألم تقل إنك راحن إلى الإسكندرية لكن تنفخ فيها من نفسك بعض الوقت؟ تكون المكايه وردا وفلا إذا بار لي أنكم جميعا ستظهرون الآن في قطار الصعيد كصدفة من غير تنبير، ولأنكم أن الصدفة نفسها تخلى بكم وتوكلكم في المكشوف.

وصرت أضحك يا بوى وأعزم عليه بالسجائر المكشوفة وأشتري شيئا من كل من يمر حاملا شيئا يؤكل أو يشرب ويهرس في أن أحلف من «يريش» هول مفاجأة، إذ راح يظفر لي في ملادة طرية بعض الشيء عزوتها إلى كثة حشيش يكون قد تجرعها ولم تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشيء، فلنا يا بوى أعرف هذه الكثرة وعقروص منها كثيرا، صرت أطلب شايًا ساهما لزوم النسيج، وأدقيه وهو يأكل في السمارة أكلا، فيما يرمقني بشئ من الفدوة، فتعكرت قائلا لسمي لعل ورده أمر يكرهه هك، وبكى شيب إلهي صرب في صدري، قائلا إنه يتماهى على،

شفا منه أمي كنت أتفقيه، هانبريت في الحال شاكرا له على هذا الفتح، ورحل أضحى ليريش حكايتي مع السفر من منطلق لسلام عليكم، حتى أنه ابتسم هذه المرة من حق، وجرح كوب الشاي في لذه، وعزم على بالسجائر المحشوة، وعمرني بأن أجهن دواعي بالسجارة خارج شباك القطار، حتى تضع رائحة الحشيش في اللطيان، التي تجرى أمامها وحلف. وقت له «مادا يكره يا يريش؟» فمن واجبي أن أسأل في أحوالك وأنت قلت لنا إنك مسافر إلى الإسكندرية لأن كانت في الأمور أمور جدت علي غير حساب فإن رقيتي سبادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت في بعد فيممكنك أن تعرف الآن رجولية أضحك الجالس أمامك، مادا وإلا فأنت تتكبر في وجهي بالعنية ومحسوك ليس بالدق يتكرر في وجهه أحد يا يريش يا جوى أما ست تقيقة بل إنني في محطة القادمة سابل تاركك لك القطار كله مضطجعا بتدكرة جديدة في قطار آخر،

عليها وضحك المحكوت، تحلف اليمين إنه أفاق من سكرة غاشية إلى صهوة رائقة حصصى وطلب لي شاي. ودهس في جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاطة» قصم منه قطعة كبيرة عمرني بها، فما إن لقيتها من أفى حتى ركمته كربة الحشيش الراجع مطوحت بها في لحي متلفنا، حتى دبت في لبح البصر، وملا فمى حكة الحشيش بالشكلاطة لادعة، تجلد الألف وسقف الحلق، وصرت ألعب في طلب الشاي وإشغال السجائر، وصار الهواء بلع «قناعية» رأسى بفرارة، كأنه بش «بيد» في

المام الذي لم أعرفه بعد، فإني هي إلا محطة أو محطة، حتى أصبحت دماغى عن رأسى، وطارت، وصارت لا أستطيع اللحاق بها. فصرت أصمك على الفوضى واللباس، وأشقى في استبيان بعض كلام يحكيه «بريش» عن مشواره المفاجئ للصعيد حيث بعث له «الحاج السني» رسالة في عز الليل، يقع في عرضة أن يذهب إلى هذا «مشور» يستقمي فيه أمانة من طرف أحد أعيان الصعيد الجواني. لكني لمجدد هذا للحاج السني، أه مشور فيه لقعة طرية والخشب من يرد رزقا جاءه بعد عنده.

وكاد دماغى يتشب من الريح في الريح، فيرد إلى ويلتيس مكانه من رأسى، فألق ليذة، فأسال «بريش» ما عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فقولوا إنها مجرد قرشين، شيء إلهي قال لي إن هذا البريش يكيب على، ويسرح بي، يريد أن يأكل بمظلي حلوة، لكنني نسيت، ومضيت أضحك، وأحكى حكايات مضحكة. لكني لا أذكر شيئا مما دار غير الضحك، فلما فرجت بالركاب كلهم وقفا بهت واقفا مثلهم، ورأيت الخيمة تقذف بنفسها شيئا فشيئا، في أحصائنا، إلى أن صرنا في رحمتها، بين رصيفين تصدعها المنابت من كل مكان، فصرنا مدفع بعضنا بعضا نوصول إلى باب القطار. وقد ارتفع الرئيط شامة، وصرنا كما يوم نقيامه بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فإذا «بريش» يسحب من الرق حبة كبيرة. بدت للأعمى، وهو يسحبها ثقيلة ثقلا يوره بحمله حمار. قلت «هات يا بريش أحملها لك، فأمر دراعه بها في تصميم أكيد قائلا «لا لا» إنها حفيضة فخلّ عنك أنت، وكانت

الحقبة تأخذ كسفه وتزّل به إلى الأرض، فأقسمت يمينا أحسب عليه في بار جهنم، أن هذه الحقبة مملوءة بالسحيط والأحبار المنقوشة مما يسموه بالآثريات، تلك التي تلدها بطن الأرض في الصعيد بلا حساب ياخال، محي ناشف كما تعلم، لهذا تلكات في البرول، تحككت ساقى بجسم الحقبة، وتأثرت ملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يعملها الويد. ولو كان حجرا أحم.

الله وكهل يا بوي، لقد شعرت والله بعقد شديد على «الحاج السني» وعلى «بريش» معا، وحقدت على نفسي كذلك والله يا بوي، كرهتها، لشدة خيبتها، وتصركت الدماء في قلبي، وقلت لنفسي كيف يتاجر أبناء الرواسي في إخواني وأبائهم أقرج؟
معهم، نعم، فإني هذه الساحيط، وهذه الأحجار المنقوشة بالذهب، هي إخواني، ولئنهم بطن أرض الصعيد، كعب ويدني، فكيف يبرعها أولاد للخارج ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خداما بهم على طول الرمال؟ هذه الأرض والله لم تعرف الحد طول حياتها لا تعرف إلا المصعب والاحتيايل به عليها فقط، مدارسها تعلم ب العدل بروسا سمعها ولا ترى منه شيئا في الحياة، مملوءة أم كل من يتخلص ويتكلم عن العدل، والحق، والضمير والدم، وكل هذا الكلام للفارح، الذي ساكل به الأوطى، ويعيد يأكل الشهد المصفى!

لم أكن أدرك لحظتك والله ياخال، أنني وضعت والحج السني في رأسى وقلت إني لاند أن أجني بداعه في يوم قريب

الخاتمة - المسألة الأخيرة

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لى أن «برمش» يريد أن يسلط وجهه بن يه وقف مايا يده قائلا «أفوتك بماقية» قلت بلهجة ذات معنى «ومائه» وعانقت يدي يده، تجاهل فمررتي وقال: «ربما أشوفك الليلة في القاهرة؟ وربما لا حسب الظروف» فربت رأسي قائلا في عظم «ومائه برضه» ربنا عمك يا ولد» وتركته ومضيت.

وليت وجهي نحو دار «هندي» في حلوانى ثم الحلج فلما وصلت ضربت الجرس كثيرا، فلم يرد أحد؛ فابقيت أصبعي فوق الدار مدة كبيرة، وصوت الجرس يرقق ويحجل في قلب الحجرة، ويسمعه الريح والجاني. فعرفت أن «هندي» يشوف حاله في الشوارع ولويت نحو «قهوة صلفسف» وقد شعرت أنى حرمين، ومفسى تحبب الشائى والنداء، الله وكيل ياموى، عيسى وبني كانت على «قهوة صلفسف»؛ لكنني وجدت نفسي أمشي بجدا شدد «المناج الصمى» دون أن أدري مع أنى والله ياموى ما فكرت في الداء إليه ولا خطر في يالى أن أمر من حوار» وحتى لم أكن أدري أنى أمر بجوار الشادر أصلا؛ لكنني لحظتها

وجدت نفسي واقفا في الحلاء القسيح بعد انبلائي من العوارى الضيقة الملوية؛ والدور الساطع كان يغمز الحلاء ويدهمه بلوى صفار البيض، ودماعى غير موجودة على كتفى يا بوى، تحلف اليمين أنى ما كنت أجد لها أثرا على كتفى، وإلا كتب تفهنت إلى أنى في رحاب جامع عمرو بن العاص، الذى أعرفه ويعرفنى حق المعرفة، كان الظن لحظتها أنى مسيت دماعى تائها في السور الشديدي في الحقول التي اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماعى؛ وسألت نفسي بصفة سريعة أين كنت قبل هذه النظرة مباشرة؟ فم ففترت بجواب؛ وبقيت حائرا لوقت طويل كأن طائرة «هالوكيتر» رمتني من السماء في هذا المكان ولت؛ حتى فبناج جامع عمرو كانت مرهقة على غير العادة، مطانية بالمفوض تذكيري بأنى رأيت مقلها ذات يوم، غير أنى لا أذكر أين ومظرت فوجدت أمامي طريقا يمتد فيه النور إلى مالا نهاية ويجو رى طريق يتقاطع فيه نور بعد بضعة أمتار، حيث يجتمى بصيص النورين في مصاب من الظلمة مديبة، تشبه سما الجمل، سرمد ما فسنت إلى أنها القرافة، وأن هذا الأرجيف هو نفسه الذى يقع عليه شادر الحاج السمي، ذلك الشادر الذى مررت بجواره هذه مرات وفي كل مرة أتصور أن مكانا كان مقاما ههنا وبعض؛ وبنا لذلك فلابد أنى الآن في منتصف الليل إلا وصوت الأذان مطلق من فوق مشددة جامع عمرو، فاستهدت أنى صوت الأذان فعرفت عنه ولكن كانه الحطم، ورأيت المركبة تدب ميجان وندس يهوى ونسب

الجامع، ولدان يجرون بطاولات العيش، فلما حاديت القشادر، ونظرت الدور للجاورة له، ووجدتها صاحبة وصوت الراديو والتليفزيون يعوان فيها على كل الأصوات، تقطعت إلى أن الآذان هو أدب العشاء، وتقطعت إلى أن الذي يعمل لي كل هذه الأنواع هو قطعة «الشكلاطة» بالعشيش التي أعطاها لي «بريش»، فصرت أضحك وأتطوح كالسكران وأسمع أبا حاشه، وإذا بصوت ضحكات عالية تطلق من وراء ظهري، فتقرعني فأتلفت حولي مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، برشت بعيني في المصاحف، فوجدت أنهما «بريش» و«بشير»، وقال «بريش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندني «مالك يا متنيل على عينك؟ رايح فين؟» قلت «مالك ليه يا بريش يا مفترى؟ أنت الذي فعلت بي كل هذه النسخة» قال «كنت تمشي ورائي؟» قلت أبداً والله! إما كنت أسأل عن غنوي في داره فلم أجده! فقلت أذهب إلى القهوة أنشترك حتى تهين! فلم أدر إلا وأبأ ماش من هنا غصبا عني! وما أبأ كما تراني تلفظ خرفلي والسبب أنت»

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والعفير هو الآخر يحفر في الأرض من الضحك، حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فتفرقت على الأرض، وأضعلت سيجارة، ثم تذكرت، فرزعت عليهم السجائر. وجلت بالآه أن العفير يكون جدياً بحق وحقيق لو عمن كوب شاي يومه ثواب، العفير ما صدق أن سمع الكلمة ونهض قائلاً «هانا حتى غابر أشرب شاي! وأنت كمان ما بو على حبرك، علنا نسه منه مع عندنا» وحل

يعمل قشائ وبقيت شادراً في ملكوت الله وحدي، و«بريش» يضحك ويحاكستي بعضو من الطوب يرميه بجوردي حتى أهرع وأحاف إلى أن جاء العفير بالشاي فقبضت على الكوب بيدي، وشققت منه شغلطات مباحة وراء مصفاها في نده كبيرة حتى شعرت بأن عيني صحت من النوم ومن المشقة فصرت أنكلم بوعي، وهي انفساط لا مثيل له، في أمور كثيرة سببها «نك» «بريش» والعفير كلنا يصيحان بين وقت وآخر قنطير «يا سلا الم.. يا سلام على الحكم والكلام اللي رزى العسل»

وفيما كنا مدمج في الكلام الذي هو مثل المصن، ناديت إلا ولنا واقف أراصل الكلام والكوب في يدي، وأبأ أشروح وأمثل، وأخرج، وإذا به «بالحاج السني» مقبل من الجامع بين جمع من الأندية المحترمين يتكلمون في حديث نبوي شريف يقرب «تنكج المرأة لخالها وجمالها وحسبها وسبها» ولا أدري لماذا أيضاً وكان بعض الأندية يشير بأصبعه بي يلى وتصميم قائلاً إنه حديث «مدحول» والحاج السني يقسم إنه صحيح وأنه قرأه في البخاري ومسلم عن «وسار يرضى أسماء مثل قلائيل الطوب كأنه ألفها من دعاة»، والأندية يصلون عليهم طالين رضا الله عنهم وعهم كجملين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أنني لم أسمع بهم قط في دار عمي لفقير الكبير، ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبي ينالها

صرفنا جميعاً وقوقاً في استقبالهم، صامتين، إلى أن يعرفوا من الكلام، فتقمعهم «الحاج السني» قائلاً «تفصلوا، ممشوا وراءه

هي صمت؛ وإذا هو يتأملني مرة ويقول: «الواد حسن أبو علي»
إيه اللي جابتك دلوقت ما عكروت؟ جئت في وقتك والله تعالى
تعال!، وسحبني من أدمي قائلا: «تعال وراشي؛ فلك الليلة عورة»
واستقدر قائلا: «مع السلامة أنت يا بربش وتعال قابلني هنا بعد
بأكر بعد صلاة العصر» فقال «بريش» بصوت غير مبسط
«حاضر بإحاج» ثم أضاف: «أشوفك الليلة يا حسن» قلت «ما
أعرفك» قال الحاج: «لا تمتظره الليلة» قلت لفقسي: «بشرة خير يا
ولد» جاءت الفتحة على الطيطاب، ومشيت خلفهم مابعا دماغني من
التفكير في الأمر الذي يطلبني من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة
طيبة.

قرب لإسمان ولبيته يا بوي حاصة إذا كان إسمانا طيبا مثل
وعلى نيانه. وقد دلسي على أن هؤلاء الذين يمشون أمامي مع
الحاج هم من عليّة القوم ذوي المهابة؛ إذ هم يتحركون في صيغة
أمر وهي: حتي ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحتى الرأس في
تهذيب، وما صدر قلبي بربش فجأة، ويدق في صدري كالطبل
البندى، فنهجت أن هذا الدق بالثبات لا يدوي إلا لحظة مصداقة
الخطر الحقيقي الذي أصبح فجأة في قبضته، أم من هذا الدق يا
بوي، أعرفه جيد، يا بوي عمره ما خاب أبدا في أي إنذار وجهه
في بهذا الطبل الذي يهرس إبه يشبه التغير الحاسي والذي يجمر
كالباموسة علامة على مجيئ الماسير والضباط والملابس الالفة.
وأيقنت أن اللامع التي رأيتها على وجوههم هي ضوء الشوارع
الشبه، سبق أن رأيتها بنفسي مرة من مرات في مكابيل بل

لما كنت كثيرة لست أبريها الآن بالضيبط يا بوي، لكنني أرى -
وقلبي دليلي - أن هذه الأجسام المهيبة بظرائفها وملامحها
وابتساماتها وانحناءة رؤوسها المهدبة مربوطة في قلبي بالعلب
والرعب والصياح. ومربوطة في نفس الوقت من طرف مقاييل بالله
هي سماه مستويا على عرشه يراى ويرى كل شيء ولا بد أن
يعترس ويقف في صفى، وإلا فهل رأيت عمرك أب يلف في صف
أعداء، ولده سهما كان عاقا؟ هكذا يا بوي كلما دقت طبول قلبي
أرعدتني وفتحت محي على عرش السماء، في الحال أتمنى رؤيته
لتقيل أعتابه

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البروبة الصغيرة التي
توسط البوابة الكبيرة، وعاصت قدمي في السجاجيد من أوز
ضخمة، حتى السلم عليه سجاجيد محدقة قطعها نفس الرحلة
السابقة صغورا وهبوطا ومرورا في ردهات وممرات حتى صرنا
في غرفة الدرج، حيث الثابت والبنات والعمير الحشوية امجد
فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم به أوقف قائلا: «أحضرنكم
جلابيب خفيفة؟ يستحسن طباء» أضحوا جميعا في نفس واحد إلا
يتعب نفسه، وشرعوا على حلح أحديتهم والجوس على الثلبث
التربعة، مشاوهين من قرط القلند. حينئذ طرقت عيني وجوههم
واحدا واحدا: ومن واحد إلى واحد تنتقل الارعشة من قلبي على
مهم للطلول إلى ساقى عصرت في وقتي، المتحشبة أرقص رقصة
الفرخ، رقصة الدجاجة بعد دبعها، بن يسى صرحب فعلا يابوي،
ولكن من قرصه دامية في كفتي تقول، به كلاباب، من الحديد يا

بوي؟" إذ، بها أصبحني الحاج السبي وإذا به يريد أن يفترس مجرد عمر هكذا قال وهو يتنفس من الصحن كطفل عابث جرى.. والضيوف يصعدون لصحنه ولقروعتي. أنفك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المراء حسابا لهذا ثم إنه غمرني ثابدة عمرة أحف قائلا "هل بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبابي وإذا لم يهبطوا سأقطع رقبك!". قلت - مع أنني لم أعرف بعد كيف ساهطهم يا بوي. «رفيتي للبهوات إن شاء الله يكونوا مهسوطين آخر انبساط!». فقال - «أريد أن أرى شهامة الصعابدة! هم بلداتك على العموم؟» - ثم سمعني قائلا «عز أديكم!» فمضيت تحت إبطه كتمعة مدهذبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من حطب النهرج وحواليه بهارات منفصلة، لم أكن رأيتها في المرة الأولى، إذ هي في أسفل البرج، مخبئة قليلا في مربع كبير مستطوف بالزواج الزجاج اليميلون كالهرم. نزلنا حوالي أربع درجات سلم وكاننا نهبط داخل البرج نفسه لنعود بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما بهوى، هوذا يمينا فيمينا! لمنا بما فيما يشبه المطبخ، كل جدرانها بالزليزلي والقيشاني وفيها رفوف كثيرة كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وملاجات وموائد وأفران وفيه من حيرات الله مائل وطايه تحلف اليممين ولا معرض من معارض عمر ألفدي وشركة بيع المصنوعات، أربعة رجال يلبسون الطرايزر والجلاليل البيضاء، منهمكون في عرف

وشوى وقللى وتحريط ونوصيب ونصفيق، ورائحة الأكل تصررب في الحمرة تقلبها.

فتح والحاج السبي، نابا أسفل رف رحامي، فكار الحائط انفتحت مضطتت. حاجة تهوس يا بوي! وإذا الفتحة مليئة بمشترات الاحجام من الحلل مد براعه وبعيس في الداهل وأعدده نحس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالح وعيبه بطش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقية البهش، "سعد لي فقلت ليفسي دليتك فل يا ولد الصرام وأنت لا تستاهل لكل هذا النعم من الله ولايد أن تصلي له عند الأراء! رعب الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، هتته ونظر في الفتحة وشوحو بالمسح في وجهي قائلا «أترك هذا! أترك هذا!» فأعطيت له، فركبه، وسحب حليقة من حقائق المحسروات من النشمع، فيها جورة عند كبيرة كاملة، وحرمة من البوص الاحتياطى الذى هو عمدة عن أعواد من شجر اللورد مجوفة من الداهل كالبوصة، وحولى أربعين حجرا من النوع الجيد المزلط، ووجاق محاسى مشحور بالنفوش الأثريه، وبضع ماشيات من معدن مصقول بأحجام مختلفة حاجة تهوس يا بوي! مد براعه فانتزع الجورة وقال «طلع در! موق ونعال!» قلت محاضره، ولعلت! وبرت ماعطاني مشمف مطويا أمرى بفرشة فوق! وأمرى يار أسبخ الجورة وأعمرها ببيد المثجة وأصبط إقامها جيذا، ففعلت، ومدح ما من عشرات الأيوب في الحوائذ أخرج فيعة محسل مزاج كاس كبيره فيه عشرون ياكو،

سلمها لي قائلا اطلع، فطاعت، لأجد السفرجية قد مدوا طيلة
طويلة وسلموا كل واحد عوطة نظيفة فردها على ركبتيه وشرعوا
يجلبون الأطباق «محملة بالأطياب السائحة. فتسللت عائدا إلى
المطبخ، وقلت لنوافذ فيه «عشمي يا حوى قبلما تدخل في شغل
الفويط، وإلا حملوني من هنا على القرافة طوالي». قال الطبايح
«عشميك يا بر، نعم» اتفضل اقدم، وسحب ضلعة من الحائط ولما
هي ترابيزة كمانه استسوت وألغة على الأرض موصولة
بالحائط، وسحب كرسيا مستخدرا وقال «اقدمه» ففعدت فصار
يغرف ويصع أمامي حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق وحرث بين
الأصناف تكفي أكلت منها كلها كفايتي، وتركته فارغة تروح الله
لا تبقي عسيلة وبهضت فقال الطبايح ياسمًا «لسه الطرا»
قدمت مصفقا بيدي في طرب. «ما أحلى منك» فوضع أمامي
مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالسندق واللوز والجوز
والبندي وفيها كل ما ذكره لي الطبايح من الأصناف التي لم أكن
سمعت بها من قبل أبدا. حاجة تهووس يا برى. أكلت من كل تلك
كفايتي وقد استنشعت نفسي، وسبيت لي مطس لها وسع
معدن. بهضت مثلما فقال الطبايح ياسمًا «لسه الفواكه» قلت
جالسا «لم يعد في مطس حرم إبرة» قال «مطها يا بر، نعم»
وفي الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلها أطباقا كبيرة، عليها
برتقال مشقق ومغاح وحوخ ورماد وتين وعس، وحديقة كاملة
بأصناف لا تحصى، عند الأداة في الأسواني أكلت منها هي الأخرى
كفايتي، حتى وصل الأكل إلى حلمي وتكررت أن عمى للقبه قال

ثلاث مرة إن الجميل يحترق الطعام لى جوفه لوقت جوع لا يتوفر
فيه الطعام فيجئ به من بطنه ويمضغه ثابدة يعميش عليه
قابسط على الآخر لما تذكرت هذا القول، وقلت فلاأكر جملا
يحرى الطعام لوقت جوع قريب، وهو على كل حال مهمم رحم
معدني وأتعمي لونه إلى زوال. عرمت على الحب سيجارة فأبرر
لي علة أجنية وقال «يا بهيرش» حد أدت واحدة نظف بها
صدرك. «عاهدت يا برى، وبالفعل أحسست بنفسه الرطب يطفد
فى حياشمى ومعدري ناعما كالكلسوان الحواجات. ثم مضيت إلى
فوق أهرى ساقى. وكان الرجال يقيلوني عاندين بالأماني مالا
فوق بعضها

الضيوف كانوا متفرغين أمام البرج يمسكون أيديهم في
الطشت المحاسي والوكد يصب على أيديهم من يربور لأبريق
المنحاس المشغول بالنقوش الأثرية. تعدت طريقي إلى لشمع
فرشته في الزكن، وفردت عليه العدة، ولأت الرجاني باللحم،
جلهس ولد يقطع من اللحم المشغل ومسدنها في الوجاق وصرت
أمروح عليها بذيول جلبابي حتى هزلت الوجاق بالنار انعطت
على الحجارة لجلعت أنظفها وأصح فيها الحشو وأحشوه
بالبخار المسل وأرسمها بجوار بعضها، ويبي لا تكف عن التأمز
في الضيوف وتفحص كل ضيف بك واحد منهم عو الذي كان
مسف أبراج دماعي كلها من أسامها. إذ نسي زاه كثيرا ولكني
لا أكر منى وابن أواه، ولولا أنه يرتدى بجيب البلدى والطاقية

ويمسك بالعصا الأينوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات يعنيه الخالق الناطق حتى في الصوت والكلام والنظرات. أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كحلية الشوق. فتحتها ونفخ منها قطعة خشيش مدملجة صار يرضي منها تعامير في حجم المليم الأصفر يضعها على ظهر عليه سبائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج المستى يرمى في حجرى خلسة قطعة خشيش لا ثقل عن أوقية، وأشار لي بغمرة أن أرمي منها برجمة. ففعلت ثم بدأت سمعة الضرب يا بوى: أدور عليهم بالجوزة وأصب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك أحد دورى في توليع حجر مثلهم. سهل الجميع وتذكروا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم الحنينة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروى النكت الإباحية والسياسية وينفجرون في الضحك.

حجر وراء حجر ودور في أثر دور، نجحت دماغى في معرفة كل هؤلاء القوم واحداً واحداً يا خال، تيقنت من شخصياتهم يا خال: فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذى يلقب أنور السادات ويلتقط بشفتيه مثله وعند الحديث يراوئى مثله أما بقية القوم يا بوى فإياهم كلهم ممن حققوا معنى يوم أمسكونى أهرب الأسلحة هذا الذى يجلس بجوارى تحسب الفخدين كبير المؤخرة محدود الكرش قصير الرقبة تعينها ووجهه كالأورة المصرة، بشفتين غلظتين وعيين برأفتين تلمع فيهما الشتانم على الدوام حتى ليظهر كأنه شتمك وإن كان صامداً هذا الرجل يابى هو أول

من تلقاى يوم أمسكوا بي أما هذا الأفندى الجالس بجوارى، المحوك حتى وهو مشعر أكمامه موسع ربطة العنق فالكذ زربير المنديرى، بشيابه الطائع نحو الجسمين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشبيه بفرقة حمام رعائلى، بصنق عينييه وصفر رأسه، والشعر الحفيف الأبيض المتناثر حولها، وشفتيه الرهيفتين المزموختين حتى وهو يتكلم، وحتى ليحار مستمعه فى معرفة من أين يتجلى هذا الكلام الواضح المرتب للمتلئ بهيارات مش «حيث إنه والأمر يشوقه و» والقانون لا يحصى المغفلين» بصوت قوى رنان، وبقره الوفا الشديد حتى وهو يقول نكتة على الرئيس أبو عبيد الصاغر، هذا الرجل الملغور يا بوى هو الذى خلق معنى قمت وأبل من الكرابيج، حاجة تهرس يا بوى: سببى الذى أجلسنى بجواره الآن حجراً لمجر، فخرج البوصة من فمه إلى فمى، بالمر الذى لنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، الضيف، الذى تمير عن الجميع بأن أخذ راحته على الآخر، لسمد منادى وهوج الأخرى دون أن يقول دستوركم، بل وانعوج متمداً على فسطحه الايمن منشغلاً فى العبث بمؤشر راديو صغير جنا فى كفه، حتى إذا جاءته بوصة تجورة مد بوره الرفيع الشبيه بـ «عقدة وشبيطة، وصار يشفط الانفاس بهدوء وروية حتى يأتى على المجر ثم يصع كفه المستطيلة أمامها السريحة على فمه وأنفه تاركاً لدخان يعود من جديد إلى فمه وأنفه تدمع لدى ذلك عينا،» فيمسح على جبهته لتضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غريزة الشمر قصيرته. قصص السوالف، وحد تصليح الخلاق لاعم

بوضوح شديد حول أنثيه وعلى قفاه الخطوط بالسطرة. هذا الرجل يا بوى أه منه أعرفه ولا أعرفه، أرى صورة في الجرائد المفردة عند بائى الطعمية وماسمى الأحذية والحلاقيين. يظهر والله أعلم أسى رأيت صورته ذات مرة بالبنلة العسكرية فى بيوار على الحائط فى منزل لا أدري من، إنما أدري أنه منزل كبير، مهر إندى لاند أن يكون رجلا تحبب المركز يا حلال، والحاج السمى هذا اللعوب لا يريد أن يهوج باسمه، ويكتفى أن يناديهم جميعا يا - يا سمادة الببىء، ويا أفندم ويا سمادة الباشا، وحيى يكون الكلام من نفسه يقوى. حاتمكم للطبع أحمد السمى يقول لكم دمد إبنكم كذا وكذا.

دماعى لغت يا بوى، تحلف اليمين أن الهرج الذي كنا نجلس فيه صدر يطير فى الهواء الفجر قال الله أكبر وسجى مطفى النار فى الوجدان ونلم العدة والضيوف يلبسون أحديتهم ويردون ثيابهم ويشربون بعض المياه المتلجة قبل خروجهم للهواء. سبقهم الحاج السمى نحو الباب ملتفتا مصرا أمرا بأن ألم العدة كلها وأكتس المكان جديا وأطلب من الحادم أن يوصلنى إلى باب الخروج حينما أنتهى من مهمتى، وإننى لاكون جديا بصحيح لو غسلت أرسبة للفرقة بأداء والحيشة وكنت أظنه قد رأى الله - محششا من عيسى، لكننى تأكدت أن اليوم فى عيمى هو سيمعه من صلاة الفجر على الصو الذى يهوا. لكنه مضى أمام الضيوف فهبطوا السلم، وابتعدت أصواتهم، ثم احتفتهم ثم ظهرت من جديد، ثم ابتعدت، فته - تهى مهائى

المناسبة : الطريق المكى

تسلقت لأشباك ونظرت من الشوارع، فرايتهم جميعا يحشون نحو جامع عمرو، فقررت، وجعلت أمشى هنا وهناك رأيت الولد الحادم متوكرا خلف البرج فى الطرارة، مستغرقا فى نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة أسرعته بتنايىض الفرشة والأرض بصعقة لطافة، حتى متعتها جيدا فى دقائق معدودة، وجمت العدة إلى المطبخ، فوضعتها فى نفس الدولاب وخرجت، وبدلا من أن استدير يمينا استدردت شمالا ومشيت فاهضا الباب الذى منه أصد إلى الهرج لأوقف الولد، كي يفتح لي باب الشارع لأخرج

فإذا بى قد صرت فى عمر مسبق مضاعف بلمبات سهارى صغيرة، وعفوش بالمسجد فوق أرض من العشب، ترى فوفها الحطرات، حوائطه جميلة الشكل، مريانة باللوحات اسونة، الضرورة، والأنتيكات ومن كل نفع حشرات تبرر من أحد الجدارين حبة متكررة لعود عندها يمينا، وأهيانا شمالا وفى كل حنية عدة حنايات موفها زهرية ورد ينمو منها الضوء الوردى الحافى عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساحيط

السُّكُلُ يا بوى هيات لى أنسى ماش فى قصر من قصور الجنة
لا يعترض طريقى أحد فلاند إند أن يكون رصواسها الخفير
مسطولا هو الآخر حتى ندم ياكل أررا باللبس مع اللانكة. صوت
إلهى جرس يرن من صدرى قنالا أرجع يا ولد قبل أن نَحْوَه ولا
تعرف كيف تعود وصوت آخر حاد لعله صوت أبى يرغد هذا
الصوت الإلهى قنالا إمش يا ولد ولا يهك لصربها طبخة على
يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك، تفرج على هذه الأبهات التى لم
ترها فى حياتك من قبل، شاف كيف الأعباء اللصوص يعيشون
يتمتعون بجهنم المقيم فوالله يا بوالعم لا يحظى بهذه الجباب
سوى سجرة اللصوص أما نحن فنعال قابلى يوم القيامة لو
شلفناها إند فى فقر وعجزنا نسب الدين، سرق، نقتل، ون
نعطى بالجنة فى الأخرة مهما تبا - وهل سننوب؟

انتبهت إلى أنسى مع مفانرتى لكل حنية يتحيم على أن ابرل
درجة سلم صغيرة، فأتيت على أثرها أن كل حنية فى الممر من
عبارة عن عمود من الأسمنت المسلح المدهون بالزيت الأبيض
لاحظت كذلك يا بوى أن بعض الشبابيك فى أحد الجدارين قد
تحولت إلى بوابد دائرية صغيرة كنوافذ السجن فى أعلى الجدار،
ثم إنها احتفت تماما بعد عدة سنوات هبطتها على امتداد ذلك الممر
الدائرى العجيب إنه ينسج لشخصين أشهر يجوار بعضهما لا غير
وبالكثير ثلاثة زعيمين مرموقين.

على بعد قليل كانت ثمة حمية جديدة تقتررب فأحدثت استعد
مدول درجة السلم النابغة لها حتى لا أتمش فى الأخرى محفور

فيها طاقة ميطنة بالخشب من رقين منقوشين، على أحدهما رهية
ورد مصممة وعلى الآخر مسحوط من الفضة اللامعة وإند بالهواء
يكثر فجأة كالطر يتدفق من السماء، وسمعت أريج يشبه الأبن
ويشبه ريق صندوق الذهبين ويشبه كذلك الصرخ، سكوت، توقفت
متجمدا من الرعب بإحبال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء
وهذه الأنات من أين طلعت ثم إن الممر انفرش فجأة بالمرور
الربانى السملوى، فصرت أنظر فى السقف، فرأيت ندوة فيه،
هيارة عن فتحة مستديرة فى سقف مقبب يتساقط منها الضوء
والهواء جعلت دماغي تحت الفتحة مباشرة وتربعت فوق الأرض
ناظرا فى عمق الفتحة فوجدتها غريبة مظلمة من الداخل، فتمت
مسطوحا على الأرض ناظرا فى الفتحة مصاولا رؤية السماء فلم
أقدر، لأن الفتحة كانت تحتوى عيسى، فكأنتى أنظر فى جوف
منذنة مبهجة بعدة أدوار مبيجة، تنتهى فى ضامق البصر بمة
تضيق عن الجداريات فوق كأس البسكويت. قلت: لا إله إلا الله
واعندلت جالسا ثم واقفا، ولقد أحسست بدوحة كبيرة لا أعرف من
السطل أم من الخوف أم من التحير، فتسمرت لى مكاني يا بوى
وأخذ للهواء يشهد فجأة، ويسكت فجأة لكنه كلما أشتد أو سكت،
ارتفعت معه الأصوات التى تشبه الصرخ والأنين، فصرت أبطلق
فى كل شيء من الممر، ففعل لى أن الجنة التى تبعد عن مقدس
ثلاثة أمتار تهتر وتتحرك.

قلبي راح يرقع - أقصد يخفق بشدة عامود من المسلح
يتحرك؟

لا بد أنسى مسطوب سطة الجنون، لها هو ذا عامود الحنية يقف
 من جديد ثامنا في مكانه ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه
 يقبل نحوي، يكاد يطلع من الجدار ينكمس، يقبل نحوي، وا •
 يابوي. وقعت أنا في قسمة العفاريت بدون شك. شيء إلهي مطلق
 في صدري قاتلا إجمدا ولدي وكس رجلا قصرت اتحرك نحو
 الحنية في شجاعة مرتعشة، وفي ميتي أن أمسك العامود بيدي؛
 لكنني ما كنت أقترّب من العامود خطوة واحدة، حتى رأيتني
 ينفجس من الجدار ويقبل نحوي مدعما هذه المرة كالرياح الباردة
 المباشرة، يهيد في الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما ويداك
 «سد العصر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذي رلوف عليها
 ومسايط يعبث منها الضوء الملون لعظمتك ظهر لي بشكل قاطع
 كان المر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذي
 الشفة العريضة من عهد بنائه، أي والله يا حال قادر رينا
 بحرسي ما كنت أكذب اقتربت من العامود الذي صار في هذه
 اللحظة مرادفا لعقلي وضعت يدي عليه، فأحسست بهوخته وثقلته
 دفعته، فإذا هو ثابت ليوت المصار في المصار، دفعته بقوة، فإذا
 هو يهتز قليلا عندمته بقرة شد، فإذا به يبراج مبطه ليرتد أحدا
 مكانه السابق، وإذا المر ينفتح من جديد.

دلت السلمة المعتادة عدد كل حنية، وجعلت أنظر في أمر هذا
 العامود أحسست طرف شفته التي التحت الحائط فكانت معالمها
 محققة أجداد أشراف أظاهر أصابعي بينها وبين الجدار وشدحت

بقوة، فإذا بالعامود كله يمشد معي ببطة أول الأمر ثم بسرهة
 يجذب إلي الناحية الأخرى قاعلا المر من جديد رأيت وراه فراع
 فتحة باب، فإذا هو عامود وباب في نفس الوقت، إذا التعم
 بالحائط لا يستطيع الفريد من هذه الدار اكتشاف أنه باب.
 ونظرته من ظهره فإذا فيه «شئكل» سحري، على مكان غامض،
 يمكن متحه بعد اليد من الطاقة تحت الرمزية مباشرة، حيث تدفع
 اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية. لتخرج، فيصطدم كف
 اليد بالشئكل، فيفتح أو يغلقة .

رأيت هذا الباب السحري يغضى إلى سم غامض في الأرض
 قصار تكس برعق من «جذب في ضرباته. يهرس كاسي سافع في
 بئر فويط مع تلك شموت ديل جنابى ودرت آمال يا أبا الرب
 واحد والعمر واحد

السابعة: الإمبراطور

الفتحة من أساسها فتحة بئر، وعن حقل أن أخاف يا بوي، قالهمر ليس بعزقة بصرف النظر عن الجراءة. أما السلم الهابط فيه فمثل الربرك، يدور حول نفسه. حاجة تهرس يا بوي. ما هذه الدماغ الراقصة، التي حطرت هذا البئر الصعري في هذه الأرض وحطرت هذا السلم فيه، وجعلت له - شف الفجر - - براهيزيا من حديد ناعم، عبارة عن مثنات كالاهرامات، واحد مقبول، يهلوره آخر مقلوب مشدودة بين قضيبين، أحدهما ثابت في الدرج والأخر مطلق السراج يتلوي ويتلوج هابطا في حوض البئر إلى عمق غريب جدا.

رجلي تخشيت على أول درجة، وفيضتي استماتت على حديد الدرازين، وقلبي يرقص كائرة ذبيحة. المصعب يا خال أن صندري كان منتفعا كأنني فرعون بدات نفسه يظهر والله أعلم أن درجات السلم معمولة بالمصبة كي تجعل من راحتها هكذا قلت فما بالي أرتمش هكذا وكأنني مجبر على برول القبر حيا؟ قلت لامي لست بفرعون مصعدي أما وأعرف مشاير القراعين معرفة يباري، كما

أعرف أصالة المساحيط من ريعها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد عياب مائة عام؛ وأعرف منها مالو عرفته الحكومة لاحتلت الصعيد كله ولكن هيهات، ولحلت عنه مكانه ووضعت بدلا منهم حمراء بنيلبيت وأندية من هيئة الآثار، كذلك أعرف المقبرة من المقبرة من الصردب من المتخافة من الشرخ الجبلي الواسع، ليس هذا فقد يا بوي؛ بل إنني لأعرف مقبرة الأمير من مقبرة الفقير، مثلما أعرف جحر السحالي من جحر الثعابين لست في ذلك فارسا، خن بالك من هذا؛ إنما هي حجرة توارثتها عن أهلي، وتأكدتها من سعبي على ظهرها؛ أقصد الأرض، بل أقصد هي، المقابر؛ فالأرض هي المقابر والمقابر هي الأرض؛ والواحد مما يا حال مد يفتح عيني يري الأرض مباشرة، ونظا عينة قريبة منها مهما استطلعت قامته؛ ولا وسبط، لا عازل بينه وبينه يده في أحشائها، كما أن أحشائها في جوفه على الدوام. ولذا فالواحد مما يا حال - أقصد الجمويين - قد ررقه النواي الكريم عينا بطانة، تحط على هبات الجبال، وفي سفوح الأرض ومسحوبك بالذات - بفضل هذه العين اللصبية - عاش حياة الطيور وحياة الحشرات معا تحلف اليمين - لا كذب ولا عيب - إنني أصل في صندري وأقر دماعي بذكريات الحشرات وذكريات الطيور معا، وألغو على أن أفكر كاسي حشرة، وأفكر كأنني طير لا حياتي العائنة كلها لم تكن خير يوسين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير.

إن كان على المقابر قياما برلتها في أصناف النيبالي، لأحفي بداحلها مسروقاتي، بجوار هتسيم من عظام (موي) بن إسي أمام

شعوري بفظ الصوت وطلوع الصائفة ورمى النخلة في العلم،
شعلني الجور. فاستترجت امرأة عبيطة صالة، وميمتها بجوار
الهشيم، وشرعت أناك من رجولتي. فلما دريت إلا والميت يرتدني
بكف منمشية في جبني رعدة مؤلة ويقول بصوت مسلوخ
كسوت صرخة البار المكتومة «يا أمي اغتشي وحل عندك بابية»
بقي راجل أنت؟ أما الصبيطة الصالة صابجرت ضاحكة بصوت
هائج، وأما أنا فقد اندفعت خارجا أعوى، والشرر الأحمر يتطاير
من عيني، بعد إذ اصطدمت جبهتي بسقف باب الفلسفة، وما كاني
صراحي وهوائي حولها من أليت الذي مطلق، بل حولها من درقلطه
قاطع الطريق، الذي يعرف جميعا أنه يخاوي جنية تؤويه في دار
لها تحت الأرض، ولم يكن يحظر لي في بال أنه يستوطن هذه
الفلسفة بالذات.

حسرتني هذه النواذعة وأبا في وفقتي علي أول درج من سلم
البئر صبرت أضحك بشدة، أي والله يا دوي، وغتف بي هاتك
بئر الشيطان وأرجع يا حسن لهذه القفيرة الفرعونية مقبرة
موكية صالة في الخلاء، وهذا البئر ليس مسقورا بل ميمية بالصخر
حول هذا السلم القولي، الذي لو تكسرت أصابع الأمريكيان
والألمان والبريطان وكل المتفرغين عليها هذه الأيام، لا يخرج من
يدهم سمة واحدة من المقابر الملوكية خطر يا حال، كلها خطر،
في الخطر ديات نفسه، في حجر لخطر الموت يا حال رشه
الفرعون قبل دفنه معه نمار منقأ أمد الدهر في مكانه من
يستشفه يموت حتما أهلتا القناسي كانوا هي غاية النجاسة،

يعرفون أن لصومهم مما عينهم لا يصدقهم، ولا يحافون
من أبيهم الله، الذي يقول مرعون إنه أبه، واسوف يتسلون
لصرة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال، ومن هذا يا حال، لجأ
أهلنا لثلوك إلى حبل جهمية، منها تسميم الهوء لا أقول هذا من
دماغ يا بوي، ولكنه شيء جربناه. ودعا موتانا في الكتم، ومع
ذلك لم نتوقف عن بزل المقابر والإتيان بكنوزها نكي يعنى بها
صلالية كبار مثل الحاج السني وغيره من لصومهم أهر العطاء
لكن قولوا لي بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار السني؟
لأنك لو أن دار الحاج السني هي التي بييت حولها عدد زمن
سلطاني بعيد

جئوا حلوا ما دامت هذه المقبرة في دار مقصوف التربة، في هذا،
لأبد أن البرول إليها شغال على الدوام، وبها في دى بقايا
وساحات الأقدام وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه من
خذ أيام الفراصة، أم نزام كانوا يعرفون السجائر أيضا ربما يا
بوي، محتمل، فقد مرعوا كل شيء في الدنيا والآخرة وندلبي على
ن البرول هنا شغال هو وصولي إلى هنا في حد ذاته يا بوي، إذ
يوجد طريق مسلووم وباب مرسوم، ومن حسن حظي أنه كان
مفتوحا مما يؤكد أن أحدا كان هاهنا مد وقت قريب ومن بهوجته
سسى لي مطلق باب الممر المكتبة بو أنه قد ترك الباب اعتمادا على
أنه قريب من هنا وسيعود بعد مرفة، أه اعله موجود الآن بلهله،
للقبرة وسيطلع منها بعد قليل

حاجة تهوس يا بوى! للعرشة هككت تيس قديمى، فلاستا،
وتحركت يماى بحر الهبوط، فقلت والله لأزلن، هي البشر شقاظ
قوى، مادريت إلا وجسدى كرشة تهبط فوق الدرج مسحوبة
بالضبط مره ملوية مررت كسياحة فى حلق الثور حامل الأرض
على قرنه ويداي فوق أرض مبلطة بالقوش والرسوم والاكول
الثقيلة اللاصقة، كارض حمام فى سراية مشغولة بالورايكو
مخميت أظفر فى هذه الأرض، لئلا بإمكانى المشى فوقها تحت
سقف تتدلى منه لجنة كهربية من أمانا، وإذا مساحة الأرض
عريضة توارى مساحة البيت المقام فوقها، فى الأركان لمبات أخرى
مضاءة كالأبلح الأبيض رايت فى الركن الوحيد بلها كالأبواب
الأضرحه خلقت رجلى إليه، دفعت، فانفتح، فلما بسلم آخر
أمامى ونفذ مفتوح، كلف تساح جوفه مظلم، لا يلح فيه سوى
أطراف الدرج كالأبواب المعيلة جادى هاتف يقول إنسى سارنى
بنفسى فى جوف التمساح لو برات هذه المرة لكن الدماغ التاشف
ناشف يا بوى، صررت أتحمس المحيطان بيدي، فضلاقت بزد سرور
آخر لمسته فالحظه السلم كله لئلا هو قصير لا يريد عن خمس
برجات فى مواجهتها باب، إه، العمر واحد والرب واحد تزلت
مددت يدي متحسسا جدار الباب السفلى، فلمست زر نور
فاصبنت الدنيا كلها أمامى

صدق أو لا تصدق يا حال، الدنيا كلها كانت أمامى. حاجة من
ناجات الجنة جيلدها حمراء ورقاء، وعلى كل لون، رسوم

بقوش لا مثيل لها على الأرض قواعد رحامية، يقف ويقعد
موقها تماثيل عظيمة من الرخام والحجر الصوان ومسلات
صغيرة وكبيرة من الرخام عليها نقوش ورسوم هنادقى باب
على اليسار، قشعته، عيشت يدي فى الجاهل بحثا عن الرز، فلما
لمسته أصيبت بالحيرة، لئلا بها تمثلى بالصناديق المشغولة بالذهب
والأحجار الكريمة بعضها مطلق وبعضها مفتوح، والتماثيل
الذهبية والفضية واليوروبية والمحاسية مرصوفة فى كل مكان.
ارتمت يا بوى! اسرعت صررت أحشو جيوبى بالتماثيل الذهبية،
وأحشر فى ذكاة السرورال، حتى سمعت حصرا سميما، ومؤخرة
كبيرة، وقلت والله ليهكوس لى نصيب فى هذه البقية مهما كان
الامر

طلعت أجزى على الباحة. دفعت بابا آخر، وأضأت النور، لئلا
بى فى حجرة مليئة بالفتارين، والدرايب الزجاجية المتشقة، كلها
ملأمة باللهى وأدوات الرينة والسرايش والفرايم ولا تراط
والحصى والنشأت ومراوح اليد والنياشين حنجة تهوس يا بوى،
صررت أكجش وأصع فى عيى، بعد أن حزمت وسطى جبدا ذكاة
السرورال، حتى انتفخ جسمى كله طلعت أجزى كالمدور. دفعت
باب المجرة الثالثة. صابفتح لئلا بها تمثلى بأنواع من بكراسى
والأسرة الذهبية، لها أرجل كالحيوانات المفروسة بعيون تبرىق
بالأحجار الكريمة والذهب ارتفعت دقات قلبي كندبة الحبول على
الأرض، وهتف بى هاتف يصحك، ينهس أن الشخص الذى من

المفروض أن يموه زمانه ألاي قد عاد، وقد يخلق الباب الفوقاني
مالف، فأنحسب فما إلى أن يبين لي أصحاب

دورت على قلبي بين ضلوعي فلم أجده حبيما دلت إلى
البحة الكبيرة، فإذا هي قد بعيرت؛ فاللحة التي دخلتها لحقة
قدومي كانت حوضا من حيطان الجنة، على حيطانها كتائب
النفوس الحاوي من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها في سراقبة
جدرانها من الزهور أين دعمت النساوير يا بوي؟ تظل آلاف
السنيين عالقة بالذائمه المانط نفسه مشكول بها، فما بالها قد
اختفت في مح البصر مسامحة ما دخلت العرفة وخرجت؟ كيف يا
بوي؟ أما مهما أسطل من شرب الحشيش لا أعيب عن الوعي أبدا،
فالسطل هي مروج المسامرة وليسست بمج العمليات، هذه ماحة
أخرى غير التي دخلتها عند درولي من السلم مباشرة

صار قلبي مثل الدلو يفيض في بئر قدمي، وهزت أشده
بجبال مقلوع بها أنفاسي وجوار الأعرب يشبه قدمي من كل دم،
تحلف الهميم يا حال أنس شعرت - حل مالك من كلمة شعرت هذه
- أن جئتني كلها أبت إلى عرق من العشب اليابس، ليس فيه قطرة
ماء ترحد ربه، امتلأت فيما يظهر! ولكن حد علمي أن للشطول لا
يقدر على التحرك ومد اليد والقدم، والتعس، وما أبدا قادر على
هذا، وما هي دي حبال الدنس التي أشد بها قلبي من بئر قدمي
تقوى، ويكرتها تكرر عن سلامة، ومكنة الجسم شفافة أربعة
وعشرين تيزادا الكس - فيما يحيل إلى أيضا أشعر كاسي لـ
أردت رفع يدي ما أقدر أو مد قدمي ما تمكيت

الذي حرا على دماغي لحقتها يا حال أنتى وقعت مسمر، أصع
دراعي مجوار جدي، وقد نسيت تماما كل ما تحت جليابي من
كنوز محبة، بل والله وبالله نسيت الدنيا وما فيها تقرب يا حال
إنني شارب لتوى ألف حجر من الحشيش المعتبر مع سئ جليلة
القدر من الأفيون الخام، حاجة تهوس يا بوي وكنت أذكر فقط
أسي جعلت أنظر كيف دخلت هذا ومن أي باب، وأحاول استدكار
الحوادث التي اتبعها منذ درولي خطوة خطوة، فلا أرداد إلا تأكدا
بأنني تهت، إذ - لابد - دخلت من باب مسهرى موجود وليس
موجودا في نفس الوقت. ثم فوجئت بأسي - صدق أو لا تصدق
يا بوي - قاعدا القرفصاء على الأرض مثل شمال شبح البند،
الأكلة أسي ولست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أسي
منذ برهة كنت واقفا مسمرا أنقل البصر في الحيطان بهشا عن
الباب الصحيح الذي دخلت منه لكي أخرج منه في الحال لكن، لم
يكن ثمة من باب سوى الباب الذي خلف ظهرى والذي من
المفروض أنه يفتح على عرصة الأوسمة والنياشين والعصى
والجفاريين والسيح الذهبية والحوائم والعلى على شكل صلبين
وقياب وعقارب وحيات هذا الباب الذي حلف ظهري - إذن - يجب
أن يفتح على هذه العرصة وعلى البحة التي يطل عليها مجموع
أبواب القصر المظلة عليها أين بالله دعيت بقية الأيوب إد، ما
أعتبرت أسي إلا في الماحة العمومية، وأين بجوانب المسقوشة
بالألوان؟ "وأي السلم؟"

يا ربى، ما بهاية هذه القعدة المتقرصمة التي وجعلتني معها كأنني صرت تمثالا حجرياً هكذا قلت لنفسي قبلة وقد بدأت أسمع دقات قلبي بعد عياب طويل. وقالت نفسي متى أبهى لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهري؛ لعلني أكتشف أن دماغى هو الذى فى رأسى. إننى ما دمت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسي وأضفا فرأيتني أستطيع تبعاً لذلك أن ألقف ثائية وأن أستدير خارجاً من الباب أو داخلًا منه إلى الغرفة التي كنت فيها. وأن هذا يجب أن يحدث الآن فوراً. إذ أن حائطاً فى دماغى أباننى بأننى قد ثقت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التي تقضى إليها بواب سرى لست أراه وليس يكتشف نفسه لئلى، إنما هو يستلبنى إليه فحسب.

صدق أو لا تصدق يا حال إننى كنت لاحظتها أشمر بباية البهجة والراحة النفسية، لا يخالني أى درة من خوف أو رعب، بن تشوقت لرؤية الجثث التي هي مدفونة ها هنا، بل صرت أشمر بالمئين لأن التجم بها وأفسى فى عروقها وأثرتها تنصى فى عروقى، أى والله يا حال ما هو بيمس ولا فليسة للفتار

واضعا كلى على ركبتي ظللت متقرصما أنظر فى فراغ الياحة، غير قادر وغير راعب فى تحريك أى عضو من أعضائى. حاجة تهوس يابوى دماغى - مع ذلك - لا يتوقف عن الشغل فى ملكوت أفكار تفوس تحت الأرض وتطلع ممسلتة من بين القجرات، تتسلق الآبار، لا تريد أن تبارح هذا المكان أبداً، لا تريد طعاما ولا

شراباً ولا يوماً ولا هواء ولا غطاء ولا شمس ولا قمر! فكل ذلك موجود الآن بوفرة بين هذه الجحور الأربعة تحت هذا السقف الجيرى الأبيض، الذى اتصح لى الآن أنه مقبب كسقف الجيابة بعد أن كان مسطحا مستويا منذ بوهة. ونكى أية بوهة؟ إننى لم أهد أنكر متى جئست للقرصاء هكذا فى هذا المكان؛ فمن فرط ما مر على دماغى من الأفكار والرتيات ها هما لابد أن أكون مكثت فى قعدتى عشر سموات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والراقيم الذين ماموا فى كهفهم مائة سنة عدداً فيما كان نومهم من هذا القبل الذى أنا فيه الآن يوماً صاحياً وصحوا نائم - حاجة تهوس يا بوى!!

الخيال الذى رأيته يرحف أمام عيني جانبا من خلفى كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبيت فى شكله ثور يقربى بفرين، ولحظة انتهت إلى شكله كنت قد صرت لى قعدتى القرصاء تحت بطن هذا الثور الضخم، وهى تضغط بكلكتها فوق دماغى؛ لكننى كنت - مع ذلك - قادراً على تحريك رأسى البليل على ذلك يا حال أبى القفت مدحوراً إلى اليسين وإلى اليسار، فلما رأيت ظل الشغبين الأحيويين للثور تمران بجوارى أدس شعرت أن... أبى إحليلة قد تمسر كالتسمار فى قنائة رأسى؛ أى والله يا حال، فعنيت رأسى إلى الامام بفعل ضغط الإحليل الحديد عليه، مشعرت مدبل يلمعنى، بلسمعى، ثلاثه بالاله العظيم يا حال تعنف اليمين أن قفاى كله أحد يلتهب ويوجعنى ههالك شعرت مضبة الرعب يا حال، فما

هضمت إلى أنسى أشعر بالعرب أيقنت بأنى موارث حياء، وحينئذ
جاءنى الفرج يا بوى! بغضت نفسى قائما فى الحال واقفا
وصرت أنكت جنبى نكتا وأمرها هرا، وحينئذ انتبهت إلى الأشياء
التي أخذت تتساقط من بين خلفانى! فإيقنت بأنى قد أفقت تماما،
وعدت إلى الصواب. فرحت أجمع ما تساقط منى وأعيدته إلى
خلفائه. وكان ثمة باب وحيد أمامى، انتبهت إلى أن شكله ليس
كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراع بين حائطين
محكومين بأرض وسقف دلت منه وأجوسى حائط، كسر
وجهتى، فوليت يسارا بين حائطين، فى ممر طويل كالسرداب لكن
أرضه مرسوفة بالربط والمصباح، وسفله كبلك، واللبى
البرتقالى يلعب فى السقف والأرض والحائطين بكل درجاته

بعد سيز طويل فى هذا الممر البرتقالى، فطبت إلى أنه ضوء
الشمس قد شرف قادمًا من نهاية هذا السرداب على مبعدة
خطوات قليلة. همت بالجري ولكن جنبى كان ثكيلة كالرصاصة
يا حال، تحلف اليمين أنى كنت أحتاج أن يحملها عنى عافانى
الله فرايت الضوء البرتقالى يتسع شيئًا فشيئًا ويعمل بمرح كبير.
سبحان الله يا بوى كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء
شمرت باليزود والارتجاف وأحيروا مرجئت بأنى صرحت فى
ممر كبير دائرى الشكل كمشدنة كبرج عال كبير، أرضه مصقفة،
وسقفه شمس وسحاب، وجدرانه الأسطوانية أطول من قامة ثلاثة
رجال يقفون. فوق بعضهم، ورابعهم هو الذى إن تساند فوقهم

يتعكر من حافة الجدار، ليروحه عمق الشهادة السحيقة خلف
الجدار

أخذت ألق فى فراع هذا الممر يا بوى كلمة الحلقة البقية، أكاد
يصيبى لطف والعباد بالله من حائط الدور الدائرى يعقل تبسب
نلكا من مراسيل الشمس والقمر والهواء والنساء والمطر يالك
من فرعون ابن فرامعى يا من سبت هذا هكذا دورية الجدر فيها
لهجات عبدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن
العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومنجورة ومثابعدة،
وكلها لهجات فارة يفع مسها الظلام إلى يسارى كانت فجوة،
على شكل فتحة باب لا تعبرها قامة الإنسان إلا مصيبة

قلت لا عبرتها حتى ياتشف يا بوى؟ طب مايا أفنى غير هذا يا
بوى؟ حلها نوبة بثرقة، حتى يصل إلى ميفس رحمت ما إن
أحييت قامتى ولبت على عتبة من الحجر الأملس كسجهر الجدر
الثمين المروق بقطوط دليقة، هى المسافات الفاصلة بين حجر
وحجر! انجذبت لاسلم حاروسى من الحجر، يدعوسى للصعود إله،
يادار ما دخلك شر درجة فدرجة. بسطة وراء بسطة، حودة إثر
حودة، اصمامه قامة عقب استقامة حافظة، يعقبها رلح صدر
تواتيه وفرة من الهواء. وكنت أرى على يمينى وعلى يسارى كثيرا
من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التى رأيتها فى دورية الجدر
قبل أن أكلل البرج ببعضها يجلب عواميد من الشمس، وبعضها
يسرب كتلا من السحاب فحسب بصفت من فتحة وجهتى
موقعت بصفتى على أرض الممر وقد عاصت فى قرار مكين

مضت مرة أخرى، رأيت سماء مشعشة شاسعة تتكفى على أرض حضراء تناحسها - على البعد - أبنية كثيفة، كما رأيت شربعا يلعب كراتية غربي متطاولة متلوية، سرعان ما طفت إلى أنه نهر النيل الحبيب يجثم فوق جناحه جامع عمرو بن العاص بجلالة قدره كفيفيل من طائر أبي قردان يحط على شطه لبرهة وجيدة ولن يلبث حتى يخلق في الهواء حاجة تهوس بآبوي.

واصلت صعود الدرج، وكلم صالحي في الصعود من فتحات كبيرة تقصى إلى معرزة وأبهاه يجري الحبل فيها للفرط برأحها، كهف يا بوي؟ من أين جاء كل هذا الوسع وكل هذا التأسيس؟ وقد حاصرني والله خضاير للدنول في كل فتحة علي هذه؛ ولكن شيئا إلهيا كان يدفعني إلى تسلق الدرج في سمت السحاب، الذي بنا يظهر متكررا على الدرج الحوري. ثم ما لبثت السماء كلها حتى باتت شبكة حديدية مستطيلة فوق فتحة دائرية، تظللني طاولتها، وصار بإمكانني أن أذهب إليها مئسرة في السقف معاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت في السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق.

صبرت فيها رأسي يا حال، وكفى وكفى، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا حال، وسبحان من يطعها يا حال، لولا حدوث بومل وتنهك وتشتت في حجر السقف. انطلعت يا حال، إذ إلى معاشق كثيرة خرجت بمعشوقاتها عن شت السقف، مما أتاح لي أن أرفع جسدي كله معها، لألقيها على ظهرها، وأحرج إلى السقف يا حال، راه راه والـ بابوي، مما رأيت السقف كل ملحقا مسقف الخار.

بل ها هي ذي الحجرة القمرية التي كنا نحشش فيها مع ضيوف الحاج وعدت فطرت في قبة الجرج الذي سعدت من جوده فحصف بي الحوق والرعب من العمق السحيق الذي حبل لي أنه يشيني إلى القاع، فما كان مني إلا أن غطيت الفتحة بكل قوتي حتى رجع الفناء كما كان..

رجع لي قلبي يا حال، وسمعت وقع حملواتي في صدري، لكنني وقفت مطرعي، أتمكر في كيفية الخروج من هذه الدار وحدي بدوي أن أترض للثوهان مرة أخرى، رت حول الحجرة القمرية مرتين، ثلاثا، وبدي كس يرتجف، أسدت مرفقي على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكي ورأيتها يا حال: نعم رأيتها، فركض قلبي من الفرع، إنها الهجاري التعتية الصاعدة حتى أعلى السطح ملتفة بدورة مياه المجرة القمرية عاشرت في جدار السور حتى شكلت الماسورة وحضنتها في صدري، محوطة عليها بدراعي، وتركت جسدي تهوي إلى الأرض بكل سهولة

استقرت قدمي على الأرض، فأخذت أمشي في هدوء وترو خلف دار الحاج السبي، متجها نحو عيش الجبارة وكان بعض الأطفال قد رأوني وصاحوا صهيبين، لكنني سرعان ما اختبأت منهم في إحدى الحوائز الخفية، لأرى بعضي متجها نحو بوابة الحديد مغير إبطاء ومي عرسي الرحيل إلى البعد، لأتأوى هذه الثروة في أرض ناري.

رأيت وفهمت ما مهمت وعرفت ما عرفت من أسرار في هذا البلد
يشيب لهولها الولدان. حقا حقا هذه مصر أم العجائب يا حال
ولن أمل من تكرارها هذا والله ليس مثلاً يقصد به التكرار، ولا هو
من قبيل الالتفاتات والعممية، فلو قدر لك أن ترى ما رآه العيد له
وتشقى شفاؤه وتعرف ما عرفه لا يفت أن قرية صدق لا يجيئها
الباطل من أي مكان فيها. والحاج السيدي أحد هذه العجائب يا
خال! إنا قدر لك مرول هذه البلد لا تنسى أن تمر عليه وتتفرج،
دعك من الأهرامات وأبي الهول وسقارة بل دعك من البطلمي
والقبطي والإسلامي والملوكي وكل ما تركه أسس امريشدين
السياحيين، وانظر في عجيب الحاج السيدي وحده. ففيه - أقصد
فيه - كل الأرملة والاستبكات، عافاه الله وأعصاه من العمر حتى
يمسك من مص كل ما في العروق من دم، وما في الأرض من
رخيق، وما في السماء من ماء، وما في الجو من هواء يقتل الفجر
في كل يوم ويمشي في جنازته معني الرأس من فرط الشروع
والقتوى. وتباركه الشمس صباح كل يوم، تبرم في عوده وتصليه
كعود الخيزران.

شف يا حال! حدها من العيد الفطير إلى ربه تعالى «حسن أبو
علي» ولد أبي ضب هناك مهران يا ولد العم لامصر وحدة
حمر للصعيد والوجه للنحري، ومصر القاهرة وحدها، عليها
اللغة إلى يوم القيامة شف يا حال! لسب متعلما وإن كان
أعماي من الفقهاء البهلاء، إنما أستطيع أن أقول لك ما لم ألبس
أن مصر كتانه الله. لاني ورد ذكرها في كتابه العزيز هي الصعيد

الثامنة: خطبة علي إبي

ما أجلاها يا خال حين تكون مواتية وجائبة على الكيفه أقصد
الظروف الملوثة. ظروف الإنسان للشقيان يتخبط في بحر من
التعاسة ألا قاتل الله أيام النحوس يا حال! إنها حسيمة خبيثة
هذه النحوس، لا تستضعف إلا طيبى القلوب الأبرار الأبرياء. نوى
النفوس الحسنة والصنوبر الطاهرة والأيدي العفيفة: تستكرهم يا
حال، تضربهم على أفتيتهم بالصرمة القديمة، لعلها أهم بلا
خرابيش ينشربونها في وجوه حاسديهم وعزالهم. والله إنها
لنحوس وأى نحوس، تلك التي تتحكم في رقاب البشر الضعفاء،
تخفقهم على مراجعها يا خال من قبل أن يولدوا. طبعاً يا بوي، وإلا
فما معنى أن يكون رجلاً شرموطاً كاللحاج السيدي يسهل كل
المؤقت من ورءه لمة ممدودة ومسبعة مطرودة ومائدة مضودة
وحداثي مرودة وسيرة محمودة ولقي بالها ممدودة. أليس ذلك
يدل على ظروف في الأهل مجدودة وخيراتها غير مجدودة؟

رُدنى يا حال إن كنت تراهي جمعت قلمت والله براك. فرسا
غير فرسى فما أبا الآن بجامح أبناً حصوصاً بمد أن رأيت ما

والوجه البحرى؛ من مصر ذلك الرمان، التى تعهد الله بحمايتها من كل شر وحراپ ومن كل معتد أثيم؛ أما مصر القاهرة هذه، استعنت عليها بالله أن تحيىها شوطاً تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجرى الرمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر البید.

مصر القاهرة هذه يا بوى فى التى لبتناها على القوم من الفاتحين الأجلاء - شب الأكادة - فمن الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعرية - السهيلية واليمالية - إلى القاهرة الإفج من عموم الأربكية حتى ميت عقبة هذه كلها كانت مجرد سكنى للمعكم الجديد ولأسرته وعلى القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئین، ومن وكيل البیة الذى كان مسجوباً مسمى، حتى بریش وفدى وعزولى وهبوسه يهرقون هذا من غير قراءة فى الكتب. وحيث يسكن لأمره والحكام والمرفهون لابد أن يلف على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تنفدى على حسابهم الكل هبید ولا أخلاق لبعید ورن لبسوا فاهر الذباب من طلع أسياهم وأكلوا شهى الطعام من فضلاتهم ومهما تقلد العبد خطير الماصب أو جلبها يظل العبد الذى فى داخله يسبح بعمد سيده، يوجه كل همته فى تقوية سلطانه وتعليق جبروته وتثبيت طغيانه. حتى ألفوا مثلاً سيثا يقرن من أكل حبر اليهودى يخرب سيقه إسمع كلامى يا بوى وصدقنى أن اللص فى مصر القاهرة هو السمء الحقيقى

مهما تغه شأنه وقت نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركبه ما بوى، هو وشطارته، ولربما يقع فى قبضة الحكومة فى كل يوم، ويمثل أمام المحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزعة يقوم بها، فهو واثق أن الديندار سيد الأخلاق، إفس ما بدأ لك فى هذه البلاد يا بوى، صانت أن تستطيع رؤية الديندار وهو يغلدر يد العامل داخل فى ذمة الحارس أنت يا بوى فى هذه البند لاتستطيع أن تحكم بالقانون، ووالله لو وضعت على رأس كل فرد قدمى شرطى مدجج، بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطى قدمى شرطى آخر، إن الفساد ضارب فى كل النفوس يا بوى، البيرة نفسها مسومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يا بوى؟ إنهم قوم لا ينفخ معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن النوع والإرشاد والردع عندهم فى حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يا بوى؟ كيف يا بوى جفك الله؟ تحلف اليمين يا حال لهم قوم يشجعون اللص وينفصونه ويمكونه من كل المناد حتى يشمكى منهم أنلسهم ويمس دمههم بصلمة لطافة أو بمشونة المافية. وبا حلاوة اللص فى مظهرهم لو كان ظريفاً إنه والله ليوشك أن يكون ثيباً بينهم.

أما لم أقرأ الكتب يا بوى؛ ولكننى عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك إن بلد الألف مشنة هذه تهرى من دود الأرقه والصناريو الوخمیة والحنافيش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به فى مكان آخر واه يا بوى واه، تحلف اليمين أنها مصر للندارة والإذك والردود والتجهتان رغم مظهرها الوديع ولحيثها الطويلة الساجية

ورغم رائحة بحورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها هؤلاء الذين يعيشون يا بوى ويطافون بكل شيء فيحصلون عليه بالطيبة أو بالقسوة ، ألم أقل لك إن الديمار سيد الأخلاق وأنه مفتاح ملك الذي يجب أن يتفتح لأي غفام حول أي شيء عن أي شيء ستدفع كم؟ والكلمة يارية وعى طيب خاطر. لأن الجميع يشغلون ويهزون ويبيعون كل شيء يحطر على مالك وما دام قد أصبح لنسجم أسعار لعل على الدنيا يا رحيم يا رحيم. الأكلالة أهم بالمعنى كل ذلك يا بوى. في سهولة شامة يا بوى وتضمن مع ذلك الحياة هادئة كان شيئا لم يكن الذي تعرف نيته افعله هكذا يقول المثل عندهم يا بوى!

أفتعرف يا بوى من هو الذي يقتل كل يوم وكم عدد القتلى؟ بالطبع لا تعرف يا بوى. أم أنا فأعرف وجوابي أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يردد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يمشي بحال أو بالكرامة في سبيل مقيم شخصي ولا تنس أن نصيف نفسك في عداد القتلى يوم تضبط نفسك مستلبا بفعل كهذا مما تصطر لعله كل يوم كي تبقى - فقط - على قيد الحياة يا بوى!

أفتتظر مني يا بوى أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يا بوى؟ اتقيني بين الشعابين السامة وتطلب مني أن أكفهم شر أديتي لها ولأدية ليست متولعة إلا منها كيف يا بوى؟ ألسنت أنت يا بوى القابل دائما في كل وقت إن لم تتناوب أكلتكت الدنا؟ وإن هذا مثل وارد في الكتب مثل الآيات القرآنية هالدا أعصم بصيحتك وأناكذ أن البرك في هذا المثل وعما

قريب أفتوئب واحد في البشر هالدا يا بوى أنطبع بشخصية الحاج وأتخلق بأخلاقه وأحوى بعض صفاته، حتى أكلت منها وجهها وبقي الوجه الآخر. أما وجه الحرفه في السرقة والنهب والتلهيب والتعريب فإن لم أفعله كله فإني مؤنس في نفسى القنرة على أضع منه منذ أن كشفت أساليب الحاج السنى وعيزه. أما الوجه الآخر، وجه النحية والمسحة والرفول في ثياب سمعة جيدة تجتذب على القوم والحكام وتوسع من الصلاقات وتكوى من البهونه. أما هذا الوجه فأنا بسبيل تأسيسه ويحدث سبب الوصول إليه بكل هدوء وأطمئنان بال. كل ما هنالك - وأدع لي يا بوى - أن يقبى الله عقوبة السبى إلى الأبد. فالسبى ليس اللص الكبير في بلادنا يا بوى إنه عقوبة السبى الصغير فحسب، كلما ثقلت مسروقاته عظمت عقوبته. لهذا أعدك يا بوى أسي لي أكبر هذا اللص أبدأ! إنما ساكني ذلك الكبير الذي يعمل بفنونه فلا تطاوله هامة القاموس، ولا تعرف طريقه عربات المسكر

التسعة: حساب على تخدم الجحيم

ذبت ما حدث لي في جوار قبر أبي، وهذا كل ما دار في خاطري من حوار أمام شاهده كيف يأبوي مودت على هذا القبر وأنا ملغم بالمموعات وليس من المصواب أن يراى أحد أو يهتك بي أحد، فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذي جئت من تلقاء ذاتي أم أمه ناداني فجئت مردجرا؟ أد بينهما أدمس البلدة كانت الشمس حارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرتدة الراحلة نحوها كالنول يمشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير لخييب كلنا في جوفه المظلم مع الغارب تيمقت لليلالى الفاتحة التي تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه حمل لي والله يا بوى أن أبى طالع من الخس الذى يحفر فيه ماكينة المياه يستعمل قدومي في قلق. شعرت والله بالعنين إليه، الدم يحس يا جال. قلت، لقد طلعني إسن ولاكوس بدلا وابن حرم إن لم ألبه ماتما أحضاني، هي تخريمة قصيرة عرتها إلى سفع الجبل فصوت أمام القبرة. وشعرت وانه أمى كنت في حاجة إليه يصبرنى في هذه العملة الكثيرة

الثى هلتها، وعلتها مى من؟ فى سبع من سباع الكهن والنوم
والاصوصية وله بين كيار الحكام أرعاط من الاصدقاء والجار
والعطاف والمسامرين، وهو البائل فى كل حال هندا من الانتيكات
والأثريات وفلوسا رحيمة ينجح بها بعد وصمات لا حصر لها

وهند أن جالت كل هذه الحواطر براسى ولجعت من بطلى
لفكرت أبى لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجب ثم تابطى
الليل حتى وصلت إلى دارنا والباس كلهم مشغولون في صلاة
الغشاء فلم يحفل بقدومي أحد فلما فتحت الباب ودخلت واعتقته
من ورائى بسر هادئ أيقنت أن روح أبى قد حضرت وباركتى
فما لسانى الله إكراما لقاطرها، إذ هي مد لحظة صعودها إلى
هاؤها - كما يقول عمى الفقيه دائما في كل ماتم - صارت من
جعيد نفسا بريئة طاهرة في رحاب الرحمة الواسعة الضال
الخصى يفضى حسنا إلى النهاية، هكذا يبدو الجواب من عبوده.
على ضوء هود الكيريت رايت لبة النهار مرة عشرة متريمة فوق
ولها الحششى يغطيها التراب ولكن الجار فيها واضح حتى
متصفها. الحمد لله، خلعت حلقامى كلها، نفخت جسدى من كل
ما حيائه فيه من تعف ثمية وكثور نفيسة، غطيتها بحلة كئاتها
فوقها. ثم جئت بكريك ومنقورة مصفيرة، وجعلت أحفر في الأرض
بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا يبعه إلى وجودى إلى أن وفقتى
الله فاصططعت نثرا صغيرا محمدا مربعا في حجم صندوق
جديتى. ياما انت كرم يا رب هذه شكارة أصبحت باقية من أيام

البناء، عجنتها بالونة، وليست البثر من جميع الجهات قليلاً جيداً كائس صنعته له حوائط مائتة تركته حتى يجف ثم احتلقت لوجح كبيراً من الخشب سويته على قد حلقه صار مؤكداً أمس في الصباح سادس ثروتى هي هذا البثر الأربع الكبير وأعطيه بلوح الخشب هده وأردم فرقته مسويها به الأرض وفى الآخر وضعت السرير فوقه فى هذا الركن ليحتفى البثر عن الأنظار تماماً ويمحو من تعبس الأقدام الفضولية صار بإمكانى أن أرتى فوق السرير متمنياً على الله ألا يهين بوجودي أحد حتى أتم العنية فى أمان الله

مسيت على الصباح، غلُمُ حيمة ضوئه وابتمها، تاركا بصيصاً يدل عليه مديريت إلا وعسى الفقه الكبير المتوفى قاهد على تقوم الحائط الجاور للمصباح بكامل هيئته ارتحت يا حال، يدى تكاد تمتد لشفافه غير أنه لم يكن ينظر لى أو يشعر بوجودى، بل كان كمادته مستغرقاً فى حديث العشاء الذى يحظ به الناس كل يوم فى دارنا عقب صلاة العشاء كان يقول عن يوم القيامة كلاماً عجيباً يا بوى ما سمعته منه إلا وشعلتى ريشة الخوف من يوم الحساب فى الآخرة إنه يوم تشع يا حال والمصايد بالله، وسحار المسجى من عذابه الأليم يوم تكون كل الأجساد التى على ظهر الأرض قد فطيت وباتت تراباً فى تراب ولم يبق من الجسد إلا فسفوسه كالسمسمه كائنه فى أسفل العمود المقرئ للبنى آدم فوق الدين مباشرة واسمها عصفه الدراج حينئذ - خل ملك يا

بوى وفتح محله - بدأ هذه الفسفوسه نبتت من جوف الأرض ولكن إلى الداخل حيث ينمو عودها فى بطن الأرض قدر ما ينمو وإن ينادى المادى لحظة المثلث أمام الحائق هي ذلك المشهد العظيم، تنقلت كل هذه العيدان المائنة الطائرة فى الهواء دهية من سمعت النداء، هذا إذا كانت فى الأصل لمخلوقات من نوى الأصول الطيبة والأعمال الحسنة ممن هم بلا ديوب يا بوى، أما المندوب فى الدنيا ماء على مجنتهم وما يجرى لهم يا بوى، تظل العيدان المذنبه تحاول نزع نفسها من باطن الأرض الملتبته نور جدوى، فسبقى هكذا يسقمها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم.

حفت يا بوى، وسجنى الحوف فى جوف الفراش فلم تقو على احتوائى بل صاعقت حوفى، دلت رأسى فى ثنية الضدة، وأقيت بنفسى عوة فى قلب الظلمة المدهشة، لا أبهى رؤية شئ ولا التفكير فى شئ، صرت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة، وسورة يس، وآية الكرسي، حتى انقطع سياق الآيات فجساء وكف طيبه فى حماي- وقد انجابت الظلمة فجاءة، فظهرت السماوات، وظهر الضوء والندى أمامى سداح مداح، لا بناء لأررع لا ماء لاشجر لا طير لا بشر لا حشرة، لا شئ سوى الضوء والفراغ والرمال والرعب الهائل لأعظيم أنا - آنذ - مربوط من مؤخرتى فى مرتفع من الأرض، كان مسماراً مقلووظ قد ثنت فى مؤخرتى أسفل الدليل ومن جوف الأرض ومربوط من الطرفين بمأمولة حديدية قللمة بكل ما فى من جهد وقوة جعلت أعماق وأعماق، أحاول

مرع نفسى من الأرض بدون جدوى. وروحي متعثرة متحيرة
 فى حلقى، لاهى تعود إلى صدرى ولاهى تطلع بهائياً وترىصى،
 حتى الصراح يرتفع داخل جمجمتى ولا أقوى على إطلاقه ومن
 حوالى ومن كل ناحية أرى عشرات المئات من الأحساد كالآعوان
 تتطلع بسرعة هائلة عن الأرض، تمطر فى الهواء شوائب فرحانة
 فى سمع النداء. وقد ظهر لى كائى الأرض كلها لم يعد فيها بيت
 معذب سوىى يا حال، فصارت نفسى تترقق. وصرت أحوال
 وأحوال حتى كلفت عن المحاولة بدءاً للوجع العظيم الذى يعرقنى
 عن المرافقة. كنت أرفرف فى صيحات استغاثة دليقة رحمتك يا
 رب علو ك و. هناك يا ر. ب. حتى استجلب سبحانه
 لدعائى، إذ ما كنت أشعر عن المرافقة من جديد حتى وجدنى
 منتزعاً من الأرض غير أنسى لم أطر بل صرت أمشي على الرمال
 وحيداً، حيث لا شئ حوالى أو أمامى كنت متيقناً بيمى وبين
 نفسى أن لا أفر من الحساب، وأنه لم يبدأ بعد. وأنسى ناهب الأى
 إليه. وكنت ألتشم أن الله سبحانه لا يد أن يدهر لى رحمة، إكراما
 لظاهر أعمامى الفقهاء مثلاً، أو تقديراً لظروفى يا بوى. حماة وقم
 بصرى على بنايتين متجاورتين على طراز يشبه المساجد لكنه
 ليس بمسجد، البناء جديد ولا مع ومهيب إحدى البنايتين تمتد إلى
 الأمام بضعة أمتار عن الأخرى. ولهما بابان يفتحان فى إنجاء
 واحد. جعلتهما فىلبنى يا حال! فلما اقتربت منهما تبنت أن النايبة
 المنقذمة لها باب عتيق كآبواب المسجون الحديدية العتيقة المقرحة
 بلور الصدا والرطوبة شكله والعماد ماله محيط مربع أمامه

يبيب بأسا كثيرين لاحتصر لهم يقعون فى سنده قسحة أمام
 البوابة فى حالة انتظار أما النايبة الثانية فقد ظهر لى أن شكلها
 فحيم، وليس لها باب يفتح، وحمال الورد الحصره، تنذلى
 بورودها على أنحائط ظهر أنه سور عظيم يا حال ولم يكن أمام
 هذه النايبة ثمة من أحد، فتقدمت من بابها، وهمت بالدخول فإذا
 مجسد عظيم مسدود يظهر مائلاً من وراء الجدار، فيترصص
 بعينين ما كربين قائلاً رابع حين؟ قلت مرتجفاً: تسمح لى
 أدخل؟ وأشار بيده نحو النايبة الأخرى قائلاً شوب اسك هناك.
 فأجبت أنص نفسي فى الأرض يا حال أصرخ صرخاً له ما
 يفيقنى، أصوات كالنساء كالحوانات يا حال وكلما اتجهت نحو
 طابور العشر ارتدت مصوتاً مرعاً أظم وجهى وركبتى بكفى،
 والدموع والعرق يبتلان جسدى كله حذر صوابى يا حال! فصرت
 أجزى مبتعداً وأنا متيقن من أنه لا أفر من الحساب، بعضى بالعربى
 لهم حقوق عددي لا بد أن يأخذوها. وليس هناك مكان أهرب إليه
 لكن البنايتين أحسنتاً وعذبت اندباً سدح مدح كما كانت. رمل
 وسماه ودحاى قائم، إلا ويظهر أمامى بهر عريض فيه قارب
 كبير حريت نحو القارب أصبح مشوحاً بكل عرمى، الموتى كان
 رجلاً طسماً، حرف بور القارب نحو الشاطئ واقترب منى. فإذا
 فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكشون فى معصهم من
 شدة الريح والخنزى رغيح مسموس يوحوح قائلاً وهو يمد لى
 سقالة أتشعط فيها تعال دفينا يدو المم ورعم أنسى لم أس الماء
 فقد شعرت بحلفاتى غرقانة فى المياه ثقيلة على كفتى فلم، ركبت

واعتدل القارب وحمار في وسط النهر بضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واقفاً أنا ربما نكون داهيين بهذا القارب إلى المنطقة التي يتم فيها حسابنا وتسويبنا على الجميع؛ إذ لا بد أن يكون كل ما ههنا يعمل لحساب الحساب، فندح الآن فيما لاح لي في منطقة الحساب وأيما توجهت تتلفك أيد تجرك إلى الحساب

الهم جعله حيداً، لم أبر أنسى كنت لا أزال في قلب سريري إلا حين وقعت منتظماً فوق تراب المفرة. وكان الضمى لحظتها يركب الحيطان، لقد أفزعني منظر المفرة يا بوي؛ تهيئتها قبرى الذي انفتح لأطلع منه إلى الحساب؛ فنكت جسدي في الحال ونزلت؛ دفعت الخنيفة كما رسمت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويته بالأرض. بعدها فسلت وجهي وسويت الخلق على كتفي، وحلعت أسأل عن صديقي «هليل»، وعلى إخوتي البناي وعلى أمي

على أن قلبي - تحلف الهمسين يا بوي - كان يتلوى بين جنبتي ويزعق في صدرى من شدة الألم. ذلك أنسى صرورت بجوار حاية النحيل في طريقي إلى «هليل»، ولما «هليل» طريق آخر من وسط البلد عبر حوار وفروپ خميفة وخلال ميسوت حررت من أيام الحريق ولم يبق أصحابها على إعادة بمانها لضيق بلت اليد، غير أنني لا أبرى ناداً نفوت من هذه للطريق نفرة شديدة ووليت نحو الغيطان ملتحاً حول البلدة، لعلى كنت مشتاقاً للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولكن يبدو أنني كنت أضممر القنوت على دار «كاملة» بمجرد اقتروسي من غابة النحيل تذكرتها، فانقبض قلبي

وشعرت بالرجفة، وأسعرت خطواتي حتى لا أساور قلبي لجنون في الذهاب إليها مع خطواتي عدويت أن أساء، وأنسى أنني كنت أسيب في موت زوجها يا حال، كرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن ترائني هي، تقدمت على الفوت من هذا المكان

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله في طريقي عصياً عني؛ بعد أن كنت قد جاورت النحيل كله وشعرت على مغربة من دار «هليل»، محي المسحدي لم يكن يعرف أن «كاملة» موصوعة في طريقي وليس في مكنتي أن أزيها

كانت قادمة من بعيد حاملة زلعة للمياه فوق رأسها، وفي ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران تحلف اليمين ياخال أبني عرلتها من حيالها يوحف على الأرض متميزاً عن حيال النحيل، كظل مظلة أيمية مشوشة القد على صدرها عرجون بلح يتهدل ييسلي الوصول إلى دم الأكليل. سمعت قلبي يرتعش وأوصالي كلها ترتجف، تحلف اليمين ياخال أنسى لينة اقتحمتها في عقر دارها ما كنت خائفاً هكذا..

و يا يا حال، كيف بالله كانت هذه الفرالة الوديمة الحانية مظهراً على الأرض تمام في حضن سقاء محني القامة طوب عمره، قد رطبت مياه القرية حتى بات - يقويون - يحض كالسقاء؛ حظ أعسى بعيداً هناك، ولكن، لولا أن هديني الثفلين يشبهان أبيهما للسقاء ما ظننت أنه اعتلاها مرة واحدة؛ إذ يقول جسدها ذلك يا حال، ويقول بكل طلة من عينيها أنه لا يزال عندها لم يحترقها

أحد وإن كانت قد جعلت وولدت مرتين. حقت والله على أبيها ذلك العمد السقاء المح. كيف رضى أن يزوج ابنته هذه من السقاء المضجع، الذي لا وراءه ولا قدامه؟ أكل يرمى ابنه رمية؟ أكل كاهرا بعمه الله هكذا عبرتها ليدوس فوقها الكاهرون فثشروا وإن كنت منهم؟ وه يا حال! لقد مات عائلها ونشرت بسببها، دون أن أدومها ولو بعيلة بصفة واحدة، كل صياح البلد ركبوها في أمام الله وأكلوا من العرجون حتى شيعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليهم ظرف سحب طاريء، أما أنا فلا إبنى أعرف حظي المهيب ببيوتى، ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله على كلبا يفرغنى أو يهشمى فارتد محروما أطلب السلامة مقبلا الكل يركبون وأما أحرن وأنعمل الورر، فلا بد أن يكون للمولى الكريم حكمه فى ذلك يخال، وكيف يكرمنى ولو بنحسة من هذا الطعام الجيد يستباح وأما دائم العناقى معه ولا أفعل حتى الآن شيك يذسى؟ إن الله ليس غافلا يا حال وهو سبحانه أراد أن يكيده لى بيلة رزت «كاملة» ويسوف يكيده لى على الدوام كلما أردت لرشف العسل قلنى يحدثنى الآن يا حال أن أعانده كما يعاندى، أن أفعل مثلهما فعل جدى العميد آدم عليه اللعة، أن أكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلا ركنى الجوى ومشى على إلى غير رجعة - طيب يارب، أنت سبحانه حرمتى منها وفشعتها لأصبع خلق الله وبعضهم أعرف أنه حدثى

يه. يه به الآن فقط فهمت قصصك يارب صدقنى أسى فامك وقام الأعيك معى بالحصوحى فى هذه الشقة أنت

سبحانك تك على لكى تجمعنى عليها فى الحلال، على سنة الله ورسوله، أليس هذا ما تقصده بدمك يارب؟ شف يارب، لف على كما يخلق لك، ولكنى أعرف أن هذا ما تديره لى، تطبى مادمت صعيديا يعنى مخي مقبول، تمشى وراء أولاد القضاة من أهل مصر القاهرة الذين يشيعون عما سحيف الفكت والإشاعات، طب والله والله والله يمين أحاسب عليه فى دار جهنم أنك دبرت لى هذه الشقة فى ضربة معلم مضبوطة لا تحر منها المياه جعلتنى أقابلها فى سوق بلدة (صدعة) وطمس لى بعضنا من غير أن يسمى أحدا إلى الآخر، وجعلتنى أبحر عليها بجرأة فأكلتها فتواعبنى بكل بساطة مع أسى اسمع أنها تدوخ الرجال قبل أن تؤام لهم وتواعدهم وقد وصعب فى قلبي الشجاعة والمرجلة حتى قويتنى على ط جدار دارف والبرول إليها لأصير لآب قوسين أو أنى من حصنها، فلما جتنى بالفضيحة الكبرى وثوشت أن نقتلى، لكك برحمتك عزاتى فحسب، وجيتنى بحكمة تريدى أن أعياها، وهأ أبدا الآن قد وعيتها لى أساهها، ثم إنك سبحانه نعت فى جسد السقاء فماش رجلا لمدة عشر دقائق فى حياته كلها ومات بعدها، أنت سبحانه تريد أن تميته فى الأصل، لأدخل لنا وأحل محله مهائيا من أجل هذه الولية العليانة انصرومة من سعة الدنيا سبع طويلة مع السقاء جعلتنى سببا لموته، حنتنى الورر، ووضعت مصبة الوثية على قلبي موالله والله والله لا تزوجها، حتى بعفك يارب نعم ساتزوجها، هل أحد شرىكى؟ هذا ما موته وعزمت عليه لى بردى عه مخلوق، لقد مهمتك

يأرب حق المهم، وسوف أؤدي لك هذه الخدمة، فأنت وحدك الذي سيقدرها حق قدرها، هذا جعل أتضمن أن تذكره لي كلما رأيته في واقعا في ضيقة. أنا يأرب ساتزوج هذه للولية القلدانة لأمعها من فعل العزام، ساتزوجها أنا، دع هذه المهمة لي فأنا البهر الذي سيفرقها حتى لا تنص لأحد غيري؛ سألتها من الشارع وهذا للطفلا ساكون لهم أب، فمن أجل الورد يسقى الملقق

مسحت على وجهي بيدي كأنني أوقع بيصمته على هذا العقد الذي أبرمته لأتري مع الله وشعرت في الحال أنه سوف يسامحني على كل ما ارتكبهت في حق من لطف، تهيات للوقوف في طريق كاملة، وصافحتها في هذا الموضوع من غير لف ولا دوران، لكنني حين رفعت كفي عن وجهي لم أجدني يابري، كأن الأرض انشقت وابتلعتها تفجرت، صرت كالطفل الذي ناه من أمه، ودخل في رومي أمي لى أراف ثانية، فبقيت في مكاني الف وأبور وأرسل النصر أكاد أجبر بأكنيا، خطوت مسرعا حيث كانت من دفقة، أطلقت عيوني بين صفوف المحيل، فرأيتها تدخل دار العلم «جرجس غطاس» فسمعت أنها تعمل في شغلة روجها، وتعرفت بين جدرع المحيل استظرها جعلت ألف سيجارة محلولة بالحشيش وجعل قلبي يستريح لما استويته، وحين سري دهان الحشيش في محي تيقنت أن الله قد أكرمس المسريقة الأخيرة وجماني من حظرها إكراما لهذه للولية والمؤكد أنه سيجبه حر رجلي إلى البلدة لكي أكفّر عن دعوي وأفضل ما سالف

إلى وهي قائمة. والبالص مدد فوق رأسها، وكان وصفا أنها قد تغلصت من طفلها حتى تسرع في جلب مريد من المياه، ولأيد من الطفل انشغلا بالعلوى الكثيرة في دار المقدس «جرجس غطاس»، إذ إنه صاحب دكان بقالة كبير في بلدة «صنف»، وله دكان آخر في قتب السوق على مقربة منى توقفت كالذمرة، فنهضت واقفا «إريك ياكامة» فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير في عينيها وكانت المصاراة في وجهها تؤكد للأعني أنها بدأت تأكل الوجبات الثلاث كل يوم، وثمة شيء لا أقدر على وصفه كان في وجهها وهيكلها يوحى لي أنها قد نظفت من شغلة اللبث التي كانت ماشية فيها، وجاءني يقين بأنها التصلت بهاتبة بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة وأنها رحبت بذلك لطفا تجد عريس يفرحها ما فات وتتنوب هي بديه هرت يدي يحرارة وهي تقول «إريك ياحسن واري مصر» ثم غابت الدموع في عينيها بيسمة أجدارك الله من لسع نورها، وقالت «من يوم المرحوم ما حدث شاك، قلت وهو تي يرتش وليس في استخاطعي له، أنا جئت اليوم من أجلك وحدك»، بدأ كأنها توقفت من شيئا يقضب الله حيث قالت «كلاك ما حدث أنا الآن واحدة أخرى غير التي كنت تصرفها إسال عسى لو أهدمت وحل عسى الله لا يسيبك» أنا ناشتعل عند داس طيحين لا يهلون على بعيرهم» فإن كنت تهشى الله فلا تسبب لي فضيحة جديدة أنا ما صديقت أن البلدة سبت ما حصن، قلت وقد أوشكت على العاص «حتى ولو كنت أطلبك عسى سنة الله ورسوله»، شهدت

الولية يا حال ارتاع وجهها، فارتد الملاص للوراء وقالت كأن صفة
 دار سعتها. «به أنت صاح لمعك؟» قلت بكل حرارة «وحق
 من جمعت على غير ميعاد أمي مويت أن أدعوك على سعة الله
 ورسوله» عدت فما دار مبنية بالحق كغفار النعمة» وأقدر أن أحدث
 معي إلى مصر واستأجر لك ثارا».

وأنا يا حال: ما كل هذه الدموع التي انهمرت على وجه
 الولية؟ لقد وقفت مدعولة لا تنطلق واستعجلتها الرد قائلا «قلت
 به يا بنت الناس؟ أنا أحب وأريد أن أصلح غلطتي معك» وسوف
 أميك وأستنتك وتشرط سأفقد كلامي في الحال».

شوقت الولية بيديها في يأس قائلة «هل يوافق أمك؟» وأمك
 قلت مشوها «أنا أرعى صرتي من دماغي» ليس لأحد كلمة على
 وإذا وافقت أنت فإسبي من الليلة معاصم الرجال إلى أبيك
 لأعطيك منه»

فما نطقت بهذا إلا واندفعت هي تبكي من كل عين حمار.
 فتذكرت سبب أمها يا بوى، نعم، فإني «كاملة» لم يعد لها أب فقد
 مات أبوها وهي طفلة. فربتها جدتها لأما، ولما كان «سعداوى»
 السقاء يمت بمصلة قربي جدتها لأما، فإنه تقدم للزوج معها
 فوافقت جدتها ويعد رعاها على السقاء مشهور قليلة توفيت
 حديثها، تذكرت هذا صكيت أنا الآخر أي والله يا حال مكيت أشد
 منها «قلت لها» «أنا إن أحطبك من نفسك» قالت وهي غير
 وثقة «بى كنت تريد تتروجى حقا إنك تقدر أن تحطى من

اللقس جرجس» إنه الآن ولي أمرى! قلت بكل حماسة «وماله»
 لها أجىء بالرجال وأفل «قالت وهي تنصرف» أفوتك بعافية»
 ومضت

بقيت في مكاسي، وحتى لا يراى أحد أمشى، وراءه، تفرقت
 حتى تحتلني هي، ألفت سيجارة أخرى محشوة بالعشيش، ما
 كنت أجلسها واستمع من أنفاسها حتى طبعت الشمس تمشى على
 قدمي، قادمة وسط النجيل، هائل على رأسها حزمة حطب،
 ارتعت يا حال فأنشفت واقفا، وبلا حياء وضعت نفسي في
 طريقها، محاولا معرفة هذا القمر الذى لم أعرفه من قبل في
 بلدتنا.

شبهنا معا، بل صرخا في نفس واحد «أهو أنت؟» كيف هذا
 يا بوى؟ من يصدق هذا؟ حنة؟ بنفسها؟ بعد كل هذه السنين وكل
 هذا العذاب في انتظارها، أخاها بها هكذا أمامي بكل هذه البساطة؟
 لقد كنت مستعدا أن أسافر إليها في الهند والسند لو قالوا لي إنها
 هناك، قلت «كيف حالك يا حنة؟» قالت «بحير» الحمد لله، قلت
 «أين أراميك؟» قالت «اشتغل في دار مقدس ميخائيل إبراهيم»
 قلت «تزوجت أم لا؟» قالت «مارت أنتظر أبى الحلال، رما
 بسوقه» قلت في الحال دون أن أدري «بعد ساقه بالخمس يا حنة»
 نطقت حواشيها صاحكة في حجل، قائلة «أين هو؟» قلت مشيرا
 ميمدى إلى صدرى «ما هو واقف أمامك؟ هو أنا» قالت غير
 مصدقة «أنت؟» قلت «وعن هيرى؟» والله لن يقرب منك أحد

سوائى، قالت باسمه كأنها غير مصدقة «ربنا يعمل ما فيه المصيب»، قلت «والسمنة؟» قالت متبعدة: «أولاده اغتفروا على»
 لئلى المقدس ميخائيل، أهدم سوانه وبارء ويموش لى الماعية
 كل ظهراً ويطعمنى ويكسونى» قالت «هل أحطبك منه؟»، قالت
 «لا أحد غيره». قلت «إلى» كلميه فى الأمر» فهرت رأسها
 موافقة، ثم مصت وبعد حملوات أدلرت رأسها محوى ونظرت،
 فابتسمنا، وقالت لها: «لا تنسى ما قلته لك يا حبة» هرت رأسها
 تحت حزمة الحطب، ومضت تتلعيط كالبطية فتكرفست من
 جديد أدعى السجدة وقد ناب محى فى الفراغ بين اللحيلى،
 وصرت لا أعرف ماذا الفعل لكننى بهضت متوجهة إلى دار
 هسديقى «هلل» وكنت أجز دماغى كأنه مربوط بسلاسل فى
 قدمى، غير أنى حين تملك الطريق، لم أدر إلا وأنا متوجه إلى
 محطة «صدفة» لأركب القطار عائداً إلى مصر القاهرة

عجلة الحظ عشرة

الأولة - بركة دعاء الوالدين

ربها سهل، وتم كل شئ على التعمد كما رسمت به يا بوى،
 وعدت إلى هذه الملمونة - ألقصد مصر - ألقصد مصر القاهرة - من
 جديد، لا من شاف ولا من درى، عيسى كانت قوية يا بوى، ويعلم
 الله إن كان ذلك من وحى مزالى البهت «حبة» بعد طول سهر
 والنياح، وللأمرأة السائلة «كأمنة» بعد طول شى واشتياق، أم أن
 الأمر راجع إلى قرعة عيسى من الأصل؟ الله أعلم، لكننى كنت فى
 حالة فرح واعتباط لا مثيل لهما فى حياتى، فنادى أو بعد قد أمام
 على سرير ذى جناحين، على يمينى «حبة»، وعلى يسارى «كأمنة»
 ولقد حلمت برأس أبى لأجعلن بينهما فى سرير واحد، نعم يا
 خاله، إدر لا مغر أمامى غير هذا الحى إلهاء لوجع الدماغ، وإلا
 فديرمى يا حال، لو كنت مكافى على رأى ما يجرى فى الراديو،
 تقول إننى يجب أن أكبر معى فأجعل لكل واحدة يوماً معلوماً أو
 جمعة محروقة، حتى يتجددى الزمن ولا أقع تحت طائلة المنس،
 فبدلاً من أن يكون لى بيت واحد يكون لى بيتان، أؤزير هذا وأخرج
 على ناك عونا على بدء، وأحيط كل واحدة بحميلى الخ

انت - لايد - تقول لي هي نفسك هذا. هذا - لو هسيفتي -
صغر مع يا بوى عدم المؤاحدة، والداس إلى ذلك يقولون من
بتروج اثنتين قهر إما قادر وإما عاجز ومن ينزوح ثلاثة أو أكثر
فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يا بوى. هي نظري
على الأقل يا بوى، الأمر أبسط من ذلك بكثير، غير أنه اللضم
وثخانة الخ يجعلهما مفتوح بيتين، لتعلق لافسما جيبيتين
تتارعا مع تنهاسما حتى الجماع وفي النهاية تتعاركلى حول
عظاما البحرية، كل واحدة تنوهم أن وراء العظام البحرية سرا
دمته الأخرى، تفتح بينين يا بوى تورج نفسك بالعدل والقسطن
ولن تصيب مع ذلك هذه أو تلك ستبقى الواحدة مهما طول
عمرها تعتقد أنك تعطى الأخرى ريادة عنها من الحياء الذي لا يراه
هي وستبقى فيها لذلك تضمن لك مؤامرة سرية عامضة تنوى
بموجبها الاستيلاء على أكبر من بقاياك. مجبور أما يا بوى كى
ألفس هذا؟ إن امرأة كاش عظيم الشأن ما تقول في ذلك شيئا،
لكن يحتاج لحلمية فائقة الحد في معاملته، إنه كالقط يالغب الدفء
يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرغ حصارا على ركنه عشه
وين لقط عابر يقتحم عشه ، انظر إليه يا حال وهو يتقمص
وينقض عليه صارحا، دعرا ما تعرف أو فروسية ماتعرف، لكنه
رعب مرق لومة إرياء ورماء من البالدة.

الفسد الفقير ليس مظلما ولا دياولو إنما أنا شقيان، ومع ذلك
شرقان، روحى من الحرمان متشفقة طافحة بالرغبة وليس فى

حكنتى أن أضع دلوين من البلده. ومع نفس الوقت أقدم هي مصر
القاهرة كيف ذا بوى، لسوف ننتقلان معي إلى مكان رزقي
وتبقى الدار فى العلية دورها كلف فيها هوذا نذكريات النقي أى
أنى مجيب على دار واحدة في مصر جبر جبر فيكى بلسريز
الواحد جبران خاطر هو الآخر لأعرق أنا هي لمعنة كنعما اعق
ليكى سماعا بينهما في عدل مزاجي وتكفيفى على الجنين ومن
تستأثر بي منهما تكون حداثتها حائل لإبداع الأخرى، أو كسرا
لهيبتها. نلكنما الأنا لى نريا سوى جصصحة الحق الصراح

أحلام يا بوى. ولكنها وقود تعديت به، طرت على جماديه حتى
أسى من فرم السعادة، سميت عملتى المهيبه فأتجهت إلى سرادق
الحاج السمس مباشرة كتبت باسميا كل شيء كتابه لم يقع، وكأنت
شهقتي المصايغة يعمو السحيان حين أنقض على مافوى بكأ
الحادث حجة لرولى التذكر المدجن فكنت أولى الأديار بولا أن
عين حعيه كانت قد وقعت على قلب عيسى مباشرة، فيما هو جالس
مجالس الباب من الداخل يرقب الطريق بعيني الصقر الوقف لايد
على شاربيه

شيء إلهي قوى عروى فى الحال، والقيت بنفسى فى حالة
السرور القتي كتب معها. ووسعت من سميتى كبرية تحية أرسدها
للخفير الذى سبق وكلف جدعا معه، ثم عبرت عن اشتياقي
فجعلت أجد سميتى نحوه. فلمحت على وجهه شيئا من القرحيب
استشعرت على الجهد صدقه - ما أبأ إلا ولد روانى أيضا يا بوى

كما معروف - فحطوت نحوه بلهفة أشد؛ فما إن شحله بظي حني
هب واقفا «أهلاً أهلاً هينك يا أبو العم» - وكانت الحرارة في
قمحة يده، فقلت له يهدوء شديد «في الدنيا» ثم عرمت عليه
بسمجاة فأحدها وسرع عائداً لتقليدنا أقعد يابو العم، هكذا قال
فجلست في الحال يا بوى بكل كلالحة ودور أن أتردد، لكنني
شعرت بحفلة قوية في فؤادي إثر خاطر معاجز ما الحفيد بدبر
لي كمياً أحبس فيه حتى يحى سيده عقيبض على بكر سهولة
تحلف الهمس يا خال أنسى لاحظت الرجل مشعرت أنه قد تورط
من استجابتي الفورية للفقود، فصار يتلفت حوائيه مرتبكاً فلما
لاحظت أنى لاحظت ريكته عشي من ثبوت تورطه، فاستدار نحو
خصمه صائحاً «اعمل شاي يا مرة» بر سرعة واحلهمي من
الن في إيدك» ثم استدار نحو «شرفت يا أبو العم» «هال» عال
كيف حال الحاج» قال «بحير»، وأضاف «جاء منيب ورتج
فير» قلت «كنت في مشوار بسيط» وذهب إلى بلدياتي المعلم
شندوبس «أضاف «في مصر عتيقة» قلت «نعم» ثم همت
بالهوى حراف الت والعصر فيما قد لأحمد عقباه فلما هو
يقبض على دراعي بقوة فيعبدني إلى قعدتي فوق صفيحة مقلوقة
بوقه جوال مطوي. الرب دوى في مفصلي يابوي، فشككت في
حدفان المفير» والله ما تمشى قبل ما تشرب الشاي، ثم عر
حلفان صائحاً «الشاي. ياولدة» فحاء صوت الولة وأجنا من
الداخل «هو على النار». ويظهر يا حال أنه فهم من لهجتها هذه
شيئاً، فذلي أدنيه في الأرض وما كاد يرأس أمهس ثامية حتى

نهض هو الآخر قائلاً «باب مع السلامة» يظهر إن الولة ملحومة
جوه» - فقلت باسماء «كان الله في عوبها»، وعرمت عليه
بسمجاة أخرى؛ فقلقها بين أصبعيه قائلاً «كتر حيرت يابو
العم».

لدماء جرت في عروقي يا حال، وصرت أكاد أتنط في مشيتي
من السعادة والفوقان صرت أصرب الحطوت كيف اتلق أو
هكذا حيل إلي، لكنني وجدتي بعد قليل أمضى بدحلا مقهى المعلم
«شندوبس». وكانت الأيام اثني لا أذكر لها عدد، قد مرت دون أن
أرى المعلم «شندوبس». وكنت أراسي بالفعل مشتاقاً إليه والله
يابوي؛ وصرت أؤنب نفسي على عدم السؤال عنه في الزمن
الفاقت. المعلم «شندوبس» كان أكثر اشتيافاً مني حول هذه جند
يابوي، ما أن لحني من بعيد وهو حنف النصة مائلاً لم يتغير ولم
يثبل، حتى خرج من النصة فاشها حنك المحرب فاردا دراعيه
المروقه صائحاً «وبشك ولا القمر يابو العم» شيك ونين
أراضيك»، لاحظتها كنت في حضمه أتله في فحاء ذات اليمين
وذا اليسار؛ فلما انقلت قلت «وأحشمي قوى قوى يابو العم»
والله ما تعرف مزتك عدى». جلست على أقرب كرسي مجاور
للنصة؛ أما هو فتركني وجلس بين النصة، فمص واحد شاي
على مياه ييضاء، وجاء فطس بجواري متجاهلاً نداء جرسونه،
قال وهو يقلب لي الشاي «عيبه طويلة قوى يابو العم» إيش
أحوالك» قلت «بحير والمصد لك» الأشب مصدر؛ ثم أخرجت
عطية سجانري البلصوت العشرين - التي اشتريتها، حميصاً من

اجل هذه الولاية، وقدمنها له فاحذوا شغلها من بقايا
 سيجارة كانت بين أصابعه. قال وهو يشد النفس في اشتياق
 وحرقة «تأخذ لك ستة أفغور» هتقت «أحب النبي» من خلفه
 إذما جاءت أطراف أحاباه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكها
 وزج بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قريباً من فمى متلفتها
 بطرف لسانى وقد تغير مراحى في الحال فصار أعلى مما كان
 درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلى» وهو يلقى في ممة سلحقة
 جديدة من «أفغور» ويتلخظ في تلدد مرير «يتشتغل بين دولقت
 يابو العم». قلت «على باب الله» لكنها مستورة والحمد لله
 مانعوره نلقاه قال: «فاين تسكن يابو العم» قلت «مع صاحب
 لى» ولد عترة يسكن في شقة صغيرة محدقة في كهان مجرى
 العيون هو يتركنى أبيت معه بنور مقابل» قال في جدية كبيرة
 بلهجة من لا يحجبه الحال المائل. «كيف يابو حاله» ذا كلاماً إنا
 كانت مستورة معك كسا تقرب بعين قوية فلم لا تنور لنفسك على
 مطرح! الجدةنة ليست في الشغل ولا في المكسب يابو العم!
 الجدةنة أن يكون لك مطرح تثبيت فيه لا يتحكم فيه أحد غيرك!
 من ليس له مطرح في هذه المدينة يلقى الهول» لا تفردك كثرة
 المأثر ولا براح المساجد ولا لعمامة القباب وليس تحتها من شيء
 سوى الزمير المسحوق! يتتهك عرض الشريد وهو حائم حتى ولو
 كانت على رأسه ريشة الذهب! شف نفسك مطرحاً يابو العم!
 احذر نفسك قل أن يزدرك الغير مذالة! إن كنت بنوى للشغل هنا
 فالمطرح أهم من الشغل بكثير»

ثم قام فأتجه إلى النصية، قاعد كمية من المشرب المطوية،
 رصها على الصواني، ضغط على زر الجرس مبادياً للجرسون
 كل ذلك في ثوان قليلة. ثم عاد مقدماً لي سيجارة مواصلاً كلامه
 «مينك كام يابو العم» تقدر تدفع كم؟ أنا سوف أعاونك على حل
 هذه المشكلة! أحب أن أقفل الحير دائماً مع بلديتى بنوع خاص
 كما تصرف! إنهم عروة لى من عربتى في هذه المدينة لولاهم ما
 فلتحت بين أولاد القسباء من دون الأرقه منى هم من سلاله الذين
 نستعمروا على النوام» الحقيقة أنت هكذا بالفعل يا معلم
 شندويلى، أشهد لك بذلك وأحتم بيانشرة وأنت لست محتاجاً
 للقول. هكذا قلت فى نفسى وأحسست بحال كان للذنب تنفتح
 أمامى على وسعها. صحيح قول المثل: العبد لى التفكير والرب فى
 التفكير! والمعلم «شندويلى» هذا فيه شيء بله يابوى وأنا لم يكن
 يحظر ببالى أن أسأله عن مسكن رغم علمى أنه من النوع الذى
 يمكن أن تسأله عن أى شيء ليقضيه لك فى بساطة مدققة وإذا
 هى كنت قادماً لأحد صمببى الذى جهرت لى المقادير وقادتني إليه
 بنور أن أدري. قلت «والله يا معلم شندويلى يا حوى أنا وقعت من
 السماء وأنت تلغيتنى» شوح لى كأنه يحتصر الأمر قائلاً «معك
 ألف جنيه» لو معك ألف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحداً
 من البكرات! قلت دهشا معد أن قات أوّل الشهقة من هو المبيع
 المطلوب «كيف يا معلم شندويلى»؟ قال «تسكن فى شقة على
 النيل مباشرة في الدور الرابع» أربع غرف كبيرة وصالة يجرى
 فيها الحصى ولها باكوانات من ثلاث واجهات تطل كلها على ندين

وكل بلكونة تتسع لقعدة عائيلة كبيرة^{١٠} عر دابو العم^{١١} آخر عر^{١٢} لو يملكها لمن من لصوص المدينة يبيعها بالشىء الغلاتى^{١٣} وإيجارها ستة جديها^{١٤} فقط^{١٥}..

محي دار يابوى كالمربك ظلت أن المعلم «شندويلي» يقول ذلك من ياب الحيال^{١٦} على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لمن سليم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد امال - لكنسى - من باب الجيال كذلك - قلت له - وابى هذه الشقة يابوى^{١٧}؟ قال ببساطة - «عدى أنا» هي عمارتى^{١٨} ألم تعرف يابو العم أننى هويت بناء العمارات في الرمن الأخير^{١٩} وقد أصابى الكار بفسس الحظ فاشتريت عمارة على البيل^{٢٠} أشهر وأعلى عمارة على النيل^{٢١} لو قابلتني قبل اليوم بفثرة لكنى سمعت^{٢٢} كنت أشطب في همارتين على قد حالهما في بولاق الذكور وارض اللواء أجرتهما لبلدياتى بماليم^{٢٣} كل ما هناك امهم شطوفا على نفقتهم^{٢٤} أصلمهم كلهم من العائدين الماوديين^{٢٥} وعلى الموم فانا قد أحببت اللعيا^{٢٦} أشترى الارض في كل مكان واسماها^{٢٧} طول عمرى فى^{٢٨} هذه الحصلة^{٢٩} وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط ارضى أسرع في يمانها^{٣٠} الارض كانت بالتقسيم المربع وأما البناء فيالجان لم ادفع فيه مليما من جيبى^{٣١} العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أحط فيها طوبة واحدة^{٣٢} من يكتب عمقاً يدفع حلو أكبر من شها^{٣٣} لو بيعت له^{٣٤} البركة في العائدين يابو العم^{٣٥} وأنا رحل متاع رمتا لا أحب الجالوات^{٣٦} إسنى أخصم شىء تكاليف البناء والارض سقط^{٣٧}

والدافى يسكن^{٣٨} به^{٣٩} كل العمارات سهل ربما بها وأنا واقف حلف هذه النصبية^{٤٠} فالمقاولون كثار^{٤١} والأفاد أكثر^{٤٢} كل بلدياتى أنفار^{٤٣} والمونة متومعة طالما لافرش حنالب حينه^{٤٤} القرش هو الرئيس الأعلى في هذه المدينة^{٤٥} يعود إلى هذه العمارة التى لو كانت أمك داعية لك فى ليلة القدر لسكنت فيها^{٤٦} لقد «شتريتها من أبى شقة أحببت أن أسكنها^{٤٧} تلك هي التى سامعها لك هدية^{٤٨} بكر الرياح بائنا تلتنى بما لا يشتهى السفى يابو العم^{٤٩} الدور الذى فيه هذه الشقة^{٥٠} والذى تحته تسكنهما طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين في شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر لملقة^{٥١} غير أنهم جميعا من البلطجية واللسوس^{٥٢} إننى أقول لك المراحة يابو العم^{٥٣} اشتغلوا لى لى الاررق وفي أمور البلطجة^{٥٤} هفت أن يفسدوا لى أخلاق العيال^{٥٥} وهفتى كلها بنات ما عدا بك واحد صغير أعطاه لى الله مؤخرًا^{٥٦} المهم يديو العم أسى أرحت نفسى واستأجرت شقة في مصر الجديدة^{٥٧} بنى جيران على مستوى كبير^{٥٨} دفعت فيها مبلغا جامداً^{٥٩} وأنا هذه الشقة فقد خلقت لأجيبن لجيرانها الوحوش هؤلاء مولد يكسر أنفهم^{٦٠} وأنا مرادى أن تشك لى هؤلاء الجيران وتدلهم أشد الدل^{٦١} أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بألافة^{٦٢} لكننى لى أحد مثلك سوى الألف الواحد بكراما للعشرة القديمة^{٦٣} وأما لى أن ثديى هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم^{٦٤}

قلت وأنا قى عاية النضوة^{٦٥} «عمرت تحتار باسمهم شندويلي^{٦٦} ثلاثة ماله العظيم لارينك^{٦٧} مؤخراتهم عارية وأجبتك تنسق فيها^{٦٨}

على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون في عر الليل تاركين الشفق في سبين النجاة بحياتهم! اتكل على الله يا معلم شندويلي! هذه الشقة لم يسكنها سوى! اكتب عقد الآن وأنا اسيد لك المبلغ على ثلاثة مرات بالكثير أرعة! وإن شئت للسرعة فأنا اكتب الآن جوادا لصاحبي هليل في البلدة وشريكي في سبوبة تدبر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أى مبلغ نطلبه»

شوح صانجا «أكتب ما تشاء» ولكن هك مفتاح الشقة! انهب ودم فيها وأقم كيف تشاء» وحين يجيبك المبلغ ماته وتعال نكتب العقد والذي معه! وعلى فكرة! في الشقة عطش استعمينا عنه» تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ! هو يساوي ألفا ولكنني أبيعك لك بثلاثمائة لا غيرا أنت! يا ما خدحتني»

كدت والله أفبر يده وهي تقترب منى بالمفتاح. لكنني اكنيت ياغتضابها قائلا «سابقى طول عمرى حاذيك يا معلم شندويلي» ربت على كتفى بيده» وجعل يصف لي مكان العمارة وموقع الشقة معها. وجعلت ادعوه له بالستر. وشعوري يقول إن ما حدث الأب هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول بل هو بركة البنت حمة التي ستتقدها من الوحلة، وبركة الولية كاملة لثني ستقيها شر الترمزل بين الوحوش للكاسرة. فأرحت نفسي وقلت هي بركة الجميع، وعصيت أجرى إلى العمارة أقول. يأرض انهدي ما فوقك قدى.

والثانية: القبة العالية

هنا هو الجور بعينه يابوي. أنا حس ولد أبى ضيب الذي كان عاية ما يتبعاه محبة يسكنها في حارة، أو بالكثير شقة في بيت هرم. أسكن فجأة في هذا القصر الخفيف! أنا ادخل هذه العمارة يابوي كل يوم! ربما ارتاب سكانها من أمرى، ربما بمعنى الباب، وإن البوليس لمسه - لو استعس به الباب - لن يسطق أبى يمكن أن أسكن في عمارة كهده وأنا الكمين الشقيان

ما هذه الأبهة بأحال! بلكونات على الكورنيش! حلم أم علم هذا! وما هذا البراج يابوي! وهل هذه حيطان شقة أم حيطان مسجد أم حيطان من الجنة! كلها منهومة بالرسوم المونة بالمشجر والزهرف! وفي الحمام «دش» يابوي، أخيرا ساستحم يابوي، سافتح هذا الدش هكذا، لتدفع قتائف المطر الغرير هكذا فلاجرس، خلعت ملايسى ورحفت تحت البش، وتركنت النشوة البالغة تمص على رأسى من «الدش» ثم ما هذ يا حال! لايد أنه ما يسمونه «المانين» إنه حوص ينام فيه مستحم. فلاجرسه، ملأته ماء وبعث فيه. كان في الحمام بقايا صابون بريحة، وبقايا صوط قديمة، وبعض شياشيب متهرئة الممل.

ليست شيئاى وخرجت على عاية من اللوقاى عظرت فى الغرفة
المجاورة. هذا مطبخ له حندرة يتصاعد منها بقايا بوائج ثوم
وبصل وأصناف عطارة مفعلا فعلا ياحال. هذا مطبخ يليق به
«كاملة» وهذا حمام يقيق به «هنة» وهذه دار تليق بهما معا
يرعاه الله ياعلم شندويلي، ولكن، المصوف أن يكون المصوب
مرسوما على قد المهمة أضافى له السكان وأنتقم منهم وقى
النهاية يقول لى مع السلامة للبنى راح يدسول لى أن افعل
شندويلي لى يفعل، وأسى يجب أن أعتبر الشقة شقتى. وأنا الآخر
ساورطه سادى لانيتم عرعى فى البلد وأجىء بالعروسة قبل
أن يرجع فى كلامه. ويمسك الله ساقسىء له أصابعى المشرة
كالضموع حتى يرضى ساقطل نفسى فى خدمته مقابل أن يترك
لى هذه الشقة، والله لن أتركها إلا على حثى يابوى.

تجولت فى الصالة البرجة جلست على كل كرسى واخترت
أقبيقت أن عثرة بسيطة عند التجار. وأخرى عند المهند. تصبح
هذه الصالة بعدها كصالة اليكوات الذين كنت أبيع لهم السمك فى
المعدى. ثم دخلت على حجرة مجاورة، فإذا فيها سرير قديم، لا
ينقصه سوى دهن وتنجيد فرش. بهواره دولاى مقصص ومحص
ضلفه مغلوقة ومركونة بجواره. تتصاعد منه روائح العطور
العتيقة والصابون والنفثالين. وهذه امرأة ذات كومدينو على
اليمين وآخر على الشمال، ولها كرسى تجلس عليه المرأة لتتريى.
كسبنا صلاه النى، بشرة حير يابوى، ضمنا شوار للعروسة،

مكل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة دخلت
الغرفة الثانية وجدت بها توليفة وسط دائرية، حولها بعض
الكراسى الجلدى، القتريرة سليمة أما الكراسى نكلها عاصت،
بعضها منقعر المنظر وبعضها مهيب الساق وبعضها قصيد
وبعضها هشيم: هى الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك
الله ياعلم شندويلي، لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك
فسافعل. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هى حالية تماما، إلا من بعض
أوراق جرائد قديمة وهلاهل شبح الأرسية دخلت الحجرة
الرابعة، فإذا بعض الكراكيب والروبايكيا. قلت: هل وإذا
بالشبابيك للظلة على التلكونات قناديسى، أصبحت أنظر من كل
شباك نظرة. وأكل فى كل بلكرنة طلة، وأنتكأ كلما رأيت جيراى لى
الشبابيك والتلكونات للقبالة يظرون فى، فحبيش أنتلخ كسانى
أشعر بأننى البيك الجديد الذى سكن هذه الشقة.

رحت وجئت عشرات المرات بأحال، فتحت أبواب الغرف
وأظقتها عشرات المرات، حتى يكاد يشق فى المطبخ وجدت رفولا
رغامية مثبتة فى الحوائط، وسبرتاية نطاسية قديمة. ووجدت
تحت الرف وأبواب جار محترم، قلت: طسب لقد تقدم المعلم
شندويلي وأصبح يشتغل بالبروتاجاز..

حفت أن يصيبنى المصون فى الشقة وحدى بأحال: فخرجت
ويكل لدة أغلقت بابها نافلتاح، وصرت أنتصيح وأنتكأ فى مشيتى
على السلم وأثير صجيجا هائلا أتحدى به أى كاب من سكان

الورديين تسور له بعضه الاعتراض. لكن احدا لم يعترض التخاذل. صادقى على السلم كثير من الحلق صاعدين وهابطين؛ وإذا هم أشد منى ضجيجاً وصحياً وجلية رعيت بنفسى فى الشارع. وأول خاطر دأبى أعطافى هو أن أحقق أمر هذه الدار عن كل من أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طفى على ذلك الخاطر خاطر أقوى؛ هو اسمى لادى من الشروع فوراً بالبحث عن المبلغ المطلوب للمعلم شندويلي؛ بل لابد أن يتوفر بين يدي ثلاثة آلاف جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين قوية وكان الشوق للولد «همدى» قد مرجح بى، فأتعنت طريقى إلى داره فى كيمس مجرى العيون. وكان الليل داحلاً على المدينة كأحلى ما يكون، ونور القمر يحسف نور الكهرباء ويسقطها حتى فى الحرارى الضيقة سبحانه الله بياوى؛ عبرى ما أحببت هذه الحرارى فى الليل، فما بالى أحبها اليوم؛ مالى أحب ليلدة كلها وفنتابى الضئيلة عليها كأننى قد صرت من بين المستولين صها

وصلت إلى دار «همدى» مددت أصبعى لالاس زر الجرس فإذا بالباب يفتح قبل أن أمس الزر، وإذا به «همدى» لايس خلفاته النظيفة كأنه من مفرق من طيبة القوم؛ مصفف شعره على سمة عشرة، ورائحة للعطر تلوح منه، معرفت فى الحال أنه يلعب للشل لا نلفسحة ذلك أن «همدى» ولد مكار بياوى، حصيف وناصح، وهو صاحب النصيحة المشهورة التى روى بها ذلك يوم وم أستند منها بعد ولكنى فخور بصرفتها وسب النصيحة

أن «همدى» انسلل ذات يوم وشتمشع فلما أبدت إعجابى يومها بشعره قال «عرولى» بقعة من عينيى إن همدى به فسقة فى سويح الشعر تعتبر من احترامه؛ وظليت من همدى أن يشرحها لى فاستغل همدى يومها وقال لى جدية «أعلمك وأكل من بيتنا! أعلم أن تخفيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد! ولكنى لست أعتنى به من أجل هذه الفوائد» مع أنه يدر الوجه؛ ويروي المزج؛ ويمسح للحشرات؛ ويعجب الفتية؛ إن أمأ أعنتى بشعرى فى مشاوير الشغل؛ إذ أننى بتسريح شعرى أحطف الكاميرا من عين الحكومة والمباحث؛ فأبهم يهرمون المتشرد المشبه من شكل شعره؛ وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر فى رأس النبى آدم ليرى حال شعره؛ ربما يراه مشعنا أكثر فيتجاوز عنه لأن شعره مشعن نظف أو أكثر مصفف أما الشعر الذى يتراكم عليه التراب والوسع حتى يتجعد مظهره كغمية المجدوب المافد العقل لمن ضابط المباحث يلفشه؛ يعرف أنه لا ينام فى مكان به ماء فهو إن أفاق! وليقتطف الضابط ليشرى عنه؛ أن يحسب شيبك لكنه قد يكسب قضية لم تكس على الببال؛ ومعظم اكتشاف المجرمين الانكباء وقع بهذه الطريقة؛ أما أنت يا صغيدى بأقصد لمن كنت تريد أن تصرف عك عيس الشرطة فمظف لبدتك هذه على الخوم أو اليس عمامة بشال أبيض تجعظ نظيفاً دائماً حتى لو غسلته كل يوم»

بغنى «همدى» بصدره وهو يقصر إلى الشارع ثم تلقانى فى حضنة وسلم على وقيلدى وقيلته، وسألتى عن غيبتى فقلت إسى ذهبت لزيارة عم لى يرقد مريضاً فى مستشفى أسيويد وأسى

مكنت يجوره حتى طاب قليلاً ولم أعرف إن كان قد صدق
كسلاي أم لا، حيث إنه لم يعلق وإنما قال لي «وراء شيء
اللية»، قلت «لا» فأشار بيده أمامه أن اتبعني، فحاذيت
ومضينا عبر الهواري والدروب، وكنت ألاحظ أنه يحتال كالقود
الشلي، فاستعجب من كساحة اللس في مصر القاهرة، لقد مت
ياحال أعتقد أن الإسد في مصر القاهرة يستمد لحاره وكبريائه
وشرفه من لصوبيته، فكلمنا كان ولدا حريفا في السرقة واللص
بالقانون وتضليل دمم الموظفين الضممار وشراء دمم الكيثار كلما
استيق في مشيته وأصبح له المقام الرفيع في البلاد، قلت لنفسي
وأنا مالي ياعم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفسي أنا الآخر ومشيئي
بروح أقوى من روح المحارب المنتصر، فضحكت بعمق حتى
تمايلت على هدي، فدفعني بكفله قاتلا، اصطبعت ميكرا، قلت
«لم أدق حجرا واحدا بعد»، قال «فلماذا فشكت ضائقة»، قلت
«من الضرم»، قال «ملك حجرين»، قلت «جيب السبع ما
يجلوه»، قال «داسطيك حشيشة كنتك التي هي أعلى من حشيشة
صفصف، يهوى أن يبيع القرش منها بلربحن جنيتها، هربت منه
هيرة كبيرة، كله بتمه»، نقلت له أفتين في حقيبة حضار من بلبس
إلى مصر القديمة، أخضت حقي طبعها، جئت من بلبس راكبا
الأثوبيس وسط الناس وشحنة الحضار فيها برتقال وأوطة
وجرجير وبطاطس، استذوقها الآن..»

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف» والشفة كلها متجمعة
«غرولي» و«بريش» و«مسبوسة» و«صفصف» هو الآخر جالسي

بيهم سلام عليكم، عليكم السلام، ميث يا ولد العم؟ ووصلت
بوصة الجوزة إلى يدي فأعفيت نفسي من الرد ومضيت أشعل
الحجر، فالكلام ملحق عليه أما الحجر فيحترق، بعد حجرين
آخرين بهض صفصف يجرر ساقيه متأوها، وصوت طلققة
ساقيه يتكرر خلف خطواته، لاحظت أن صفصف لم يكن على ما
يرام، فمراجة غير معتدل، مع أن الحشيش عال العال، قلت هذا
يصوت حفيض، فهمس برهش قبالا إن البودرة التي يشمها
صفصف قد تأخرت عليه، وإنه قد أرسى في استعجال طلبها
مراسيل كثيرة فقال بسبوسة وهو يتعسس ثدييه الكبيرين
«ماله حق يتمكن» لو قال لي من البارحة لأنقذت الليلة بمسفرة
جرامات بالأمس وقع تحت يدي ولد نيجيري دمم بطرمان كامل
ويود بيعه بسرعة هربت منه شدتين خفيفتين فثقيت أنه
كوكايين أصلي ولرد بلده تركت الولد النيجيري جالسا في مقهى
المالية وحطفت رجلي لحد الحاج على إبراهيم فاربه الغنية وبعدت
له وقضيت ثم عدت للنيجيري فرعمت أن التجار كلهم لا يطلبون
خير اليهودين والكروايين أما الكركايين فليس له سحر عدنا، قل
إنني سارسته على خمسمائة جنيه لرق سحر، وكنت أرى أن
أرسم عليه لعبة الحكومة لأفد منه البطرمان كله بلا شيء، لكنه
ولد ملقط وابن جنية، فلهم أمي فرت بصصيب الأسد، وعنى كل
حال سأعمل الآن وأجبا مع صفصف، إنه أخونا مهما كان ممي
حقي الماشف الذي اجتاسته من البطرمان قبل تسليمه مصفا إلىه
ما أحتد من صاحبنا حلالة المشوار،

ووضع يده على جسيه، وهم بأن يشير بالأخرى مناديا
صفصف، لكن يد غرولي كانت أسرع منه إذ أمسكت بيد
يسبوسة لتضعه وهو يقول بصوت أجش «دعك منه» من أولي
بشم هذه الصفة؛ دماغا محتاج لها تروح تشتغل وحديك من
ورثنا ولا يوبى من الفصل لحسه»؛ هانتبه بریش وقال مشوفا
في وجه يسبوسة بدعوانية أمرة «هات ما معك كله دور أن نفتح
فمك»، وأيده هندی قائلا «دعكم من الشم واليبوسة» إنما مرید
حقا فيما قبضه من فلوس؛ نحن تعاهدا أن نمسي في الطريق
سوية» هنا قال يسبوسة وهو يلوح بكفيه نحو صدره «أنا
غلطان أنا غلطان! كنت أروح! لم يحدث شيء مما قلته لكم» غير
أن غرولي كان أسرع وأشرس مما ظننت؛ إذ هجم على يسبوسة
فجأة، ودب يده في جيبه كييفضا انفق ويسبوسة يتلعبط بين يديه
مصوصوا إلى أن تكنت يد غرولي من الجيب الذي فيه البورة
فامتثل يسبوسة «سأخرجها» وبالفعل أخرجها، فإذا هي ورقة
كراسة ملفوفة فتحتها، فإذا فيها ورقة ملفضة من ورق غيب
السجائر، تحوى حفلة صفيرة من مسحوق الكوكايين، طواها
بریش في قبضته ونهض قائلا «تعالوا ورائي» قمتا ورده
مشى حتى دخل على صفصف فراه انتحى ركنا قصيا وسلم
عبيه للفراع كالخارق في محالهموم حتى التدهول جلس بریش
إلى جواره، فجثا بالكراسى النش وتحلقاهما وأخرج برمش
عليه سجائرة البلموت العريضة، وبثر على سطحها أسطر
الكوكايين متجاوزة كردريق الأرض، وضعها على الماييرة واتى
ببريرة ورقية جديدة، مزرها جعدا، قدم كل ذلك نحو صفصف؛

الذي ثع التدهول في عيسه حتى شله تماما عن الحركة فلم تمس
في الكمية ومدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح
بإستهوال «يا ابن ديك الكا ل» «باء» وحشى يسبوسة أن ينسب
فضله لمسيره فصاح «فضلة حبيرك يا معلم إنت لو شورت لى
البارحة كان بقى عراجك حل؛ لكن كل شيء بصيب»

تناول صفصف البريرة المبرومة ووضعه في مسعره الأيمن
وشفط سطرًا كاملا في جديبة ولجدة ثم يترك منه شبرة؛ ثم نقل
البريرة للمبرومة إلى مسعره الأيسر وجذب سطرًا آخر، فدمعت عيناه
ونظر في عيني يسبوسة كأنه يحسد النظر فيه، وتعرف طريق حنجة
بابسبوسة؛ قال لهاشعا حنكة هي أسنان لوبية بيضاء ملفوفة
«بظروفها والله» ما كان قصدي وما كنت أبهى؛ نكس لقمة العيش
للمصومة لك ترمي نفسها عليك حتى وبو كانت مع ولد بيجيرى
جرطى بكلام غير مفهوم» عند ذاك نظر إليه صفصف نظرة شباها
الكثير من العتاب القاسي وحول عبيده إلى العلية في يده؛ ثم جذب
سحريين آخرين فدمعت عيناه أكثر وأصاحت ضجوده تقول تساح
يابوى؛ والله عانت إلي إسمائيتة فجأة وظهر يابوى كأنه أخيرا
بدأ يجلس معنا. وقال لبسبوسة «سأجدة كهده ولعت تحت يدك
هانتها وتعال؛ الأقرباء أولى بالمعروف» أتراك بعثها للحاج على
إبراهيم؛ طمعا؛ فاعد هو للساقطة واللاقطة؛ على كل حال حصل حير؛
ثاني مرة لا تفعلها»؛ وصاح مناديا «هات بها يا ابني» بحال قص
بتاع المعلم»؛ وورع عليها تسمية الأميين كل واحد قطعة كبيرة؛
ودمى مربع أوقية حشيش أمام برمش وقال له «ده»؛

مضيقاً مشرب يابوي كانتا يشرب في آخر زائدته وصورة
صفصف وهو متهاك على الكتبة تحت قدمي ووجهه كقار الجبل
لا تبارق دماغه فيدعني يتقين بأن صفصف المسكين ليلتذلق
لم يكن شاماً، ولهذا كان مفكوك المصعب ككومة من اللحم لا تفتح
ولا تفتح لسانه الذي يستحق للقطع تسلق على هذا الحاطر
الحديث وصاح في بهجة «لو كنت مفكوكاً بعد كل هذا الانسياط
لذهبت إلى انداز من بسوري»، ثم انتظرت بهجة وأكملت: «لكن
أنا كالفيل»، فإذا بصفصف أول الضاحكين، وإذا به يعلق
قائلاً «صدقت يا صمدي» إن الانسياط يكون أحلى من كل شيء
في الدنيا، فرأيتني أصبحت جيباً إلى قوله هذا يا حال حيث قد
عقلني من جوانبي كما يعلق عارف العود أوتاره فإذا بي أصبح
في ألم، وأنا لم أصير كفيفاً لهذا اللامع أبداً! حد الله بيني وبينه
هو والأفيسون! إلا في لحظات أس كهد كل حين وهي: «لكن
صفصف أتى بأصعب حركة بدنية في الهواء قائلاً: «كيف
يا حيشة» بكرو مشوفاء» فاقسمت بالله العظيم بيبي وبين نفسي
ألا أصبح حالاً كحال أبداً. وبقيت شاردة طوال بقية المسهرة
حتى نسيت أننا سطلح الليلة في مشوار ندعو الله أن يعود منه
مجبوري الحاطر فلما تذكرت ذلك فجأة ميئت على عهدي وسألته:
معي تتوكل على الله؟ فقال هامساً: «بمجرد ما يجيء الدليل» ثم
غمرني أن أسكت فسكت.

وكانت ساعة الزاوية تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب
في حوالى الثلاثين من عمره، محيل القوام مستليل الوجه أسمر
محروق، فاسى الملامح رغم أن عييه فيهما الكثير من تودد

العسل مساء الحير يارجله، هكذا قال بعد أن وقف أهلاً أهلاً
وردياً، هكذا قال بريش، ثم أضاف مشيراً إلى كرسي على مقربة
«إنعد مارودية» فجلس فتدسم صفصف قائلاً «الاح ميكاسكي».
فقال الشاب بسرعة «أحوك سيك» اسمي فيصل وشهرتي رودية!
أصل الشهرة أن أي صواميل قديمة لا تفسخ معي أفكها بعون
الله من أول مرة، تحت أمرك في أي وقت بأعلم، عفاً صفصف
وهو يرمقه من تحت إلى تحت بمظرة نفاذة شكاكه «ربنا يكرمك
يا سطى» ربنا يكرمك، غير أن لهجته كانت كأنها تقول «أبعد
هي ربنا يكرمي شرك» وقال له بريش كأنه يعتذر عن معرفته
لهذا الشاب «عندما عمرة في مواسير البيت قلت ما ينفع بها غير
رودية» لكن لماذا تأخرت هكذا يارودية؟ قال الشاب «كل تأخيرة
وعيشة حيرة» فالشغل الدقي يلزمه الهدوء والآن يمكن أن يقطع
التيار على راحتنا والناس ميام» قال بريش «سأشفي كلامك» ثم
راح ينظر في طاقم الحجرة مستعبراً عددها ثم صاح في طلب
حشمة جديدة تحوى طاقماً من عشرين حجرة» لروم تحية
الأسطى رودية حينئذ مهض صفصف قائلاً «ليلتكم فل»
ومضى نحو النسيبة صائحاً همس يلقح حلفها: «أف في البيت
الفوقاني ماولد» ثم احتفى وبعد لحظات سمعت وأبور عربة
المرسيدس يرار قبل إطلاقها به دقائق أخرى مضت أجهرب
حلالها على طاقم الحجرة الجديد اعطز بريش في رودية وقال:
«يا هار» فقال الشاب «ها هار» مهض بريش قائلاً «بنا، قلنا
جمعنا «على الظالم» وحضينا حله بصوب في حوارى مصر
عتيقة

والثالثة: صباحية مباركة

رربية إس هو الدين الذى كنا منتظره. والصفقة كما حكاهما لما شابه ونحن فى الطريق إليها، عبارة عن فيلا قائمة وحدها وسط المزارع والخضروات فى منزل حى المعادى. صاحب هذه الفيلا دكتور لكنه دكتور فى الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه رربية منذ سنوات طويلة، وقام يشغل السباكة فى هذه الفيلا مرات عديدة، حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها. وفى أحد مرة اشتغل فيها فى الفيلا كان يعرف أن لديه النية فى اقتحامها ذات يوم. فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ، أى أنه حين يتمكن من تسلق النواشير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فيفتح بسهولة، ثم يدخل هو. يجلس أولا على حافة النافذة حتى يأخذ وضعه المستريح ويعدا يسقط فى قلب المطبخ. ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قلعة النوم. حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مذكراته فى دولاب الملابس، وقد رأها بعينه كثيرا، ملوس بالبوياكى مرصوعة كما حورية النك. ومجوهرات خاصة بزوجته الموحاة المسافرة على الدوام. فإنا انتهى من جمع العنوس والمجوهرات والملابس العرو الشنية أستلار على

أجهزة التسجيل والتدقيق ويضع السجاجة الصغيرة التى يقال إن المتر منها يريد ثمنه عن الألف جنيه، وعنده منها الكثير. ناهيك عن العاراب يابوى - والمعائش والتحف والأمتحكات الموسوعة على الترابيزة والدواليب.

الدكتور - كما يقول رربية - مسافر منذ ثلاثة أيام؛ راقبه رربية حتى تأكد من ركوبه الطائرة ومنذ ليلتين وهو يمر على الفيلا فيجدها مظنة ماث ولا تكاد تتيح بين الأشجار والحشائش. وعندما اقتربنا منها أوصاب رربية بأن يجعل بالنا جهدا، وعين لنا أدوارنا على السحابة التالى هو سيدى، ويفتح الباب من الداخل لدخل نحن براحتنا، فإن لم يستطع فتح الباب فسيبرط الأشياء الثقيلة بسحل وبدبها من أى شياك واسع فنادحها من، بحيث يكون برش وغرولى فى كعبه مباشرة. أما هدى وسوسة فيتولان تستيف الأشياء ولها وربطها. وأما العبد لله فمهمته التوقف على الشارع العمومى فى مكان حلى لراقية الطريق وإعطاء إشارة التنبيه

رغمنا بهذا التقسيم يابوى. وانكنا على الله. غطسنا فى عيشة الظلام المتكاثف حول الفسلا معن الأشجار والأعشاب التى ناهى. وشمر رربية عن ذراعية وبطلونه. وبصق فى كفيه مسميا سم الله الرحمن الرحيم، وقبص بيديه على الماسورة، وتخلص من هدانه مسلما إياه لغرولى منبها عليه أن يضعه فى جيبيه، حتى لا

مصطرحهم العجلة إلى ميسان فرده منه تقود إليهم. وصح قديمه على المسورة ودفع نفسه بدرجة مائلة يابوي كأنه القطة. صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجها لنافذة المنح. عند يديه مسكة بجانر الشباك ليستمكن من ملطه برأسه لكن العصاة انشبق فجأة عن صرخة مهولة ياحال كان حيوانا بريا قويا يجار. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هرة أرضية حطيرة. وكل جسد رربية قد اندفع وارتقى بعيدا في مكان خفي.

ركب الربيع يخالص فصرنا مجرى هنا وهناك كالسياري في المصيدة، حتى اصطدما في الظلام بجثة رربية ملقاة على الأرض بلا حراك صرنا متحسسا وبوس بيصها. فإذا بها فارقت الحياة يابوي واتضح لنا أن الدكتور العميد قد كهر شبائك مطبخ وجميع الأبواب والبوابات القريبة من الأرض.

ولفينا في المنطور يابوي، لكننا لم نُسج وقتنا حملنا جند رربية وصرنا نجري بها حتى غابوا الفيلا، وصرنا على شاطئ مياه أثر المهي فوصعنا الجث وجلسنا في مسطاح النهر نتكر في الطلوع من هذه الورقة المهمة كنا صامنين كالموتى لكن الرعدة في أوصالنا تربطنا ببعضنا أشعلنا السجائر التي راحت تنفص بين أصابعنا قال بسبوسة. محممل إيه في الليلة السوداء؟ قال جربش وهو ينظر في مياه المهر «والله ما أما عارف؟ قال عربوي «مرميه في النين وحلم» فقال هدى. «لا تنس أن صعبش شافه محلا الليلة وبعض الرماش كذلك» همص مسئولون

هذه. وهنا قال جربش في حسم «إذن هلرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط» في الصبح يعثرون عليه مرميا. سحقيق الشرطة في أمره! واستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيلا وأن الكهرياء صمقته! قلنا جميعا «والله فكرة» وحملناه من جديد. وأحدب لجرى به حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع فعدديه في مكانه وعندما مجرى حتى إذا ما وصلنا إلى شاطئه نين صرب نمشي في ثوبه والله لا بدري كيف خط عيب كل هذا الضحك، الذي راح يغرقنا طول الطريق كأننا متفجج على مسحة وأعرب الظن في حال أننا كنا نتحلى أما مضحك، حتى لا نلق من طولنا وحتى لا يتشكك في أمرنا أحد.

الفجر كان بعيدا عنا بحوالي ساعتين. وقد صعب علينا أن نضيق القبلة مدرأ يابوي. ألا مجيء حتى بصصايف الشبني والمصل الذي طفناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد ولها رعب ششم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا حير ممسى في الشارع ونحن ننظر في كل شباك مفتوح على الشارع. مجرد نظرة ثم يمضي.

لقنوبنا من شبك في حارة خفيفة، بينه وبين الأرض بقعة لشمر وكان مقسوما إلى نصفين بالطول: النصف الأسفل مفتوح أما الأعلى فمفتوح على مصراعيه التمسقت بالحاظ وشببت على أطراف أصابعي، ونظرت في الحجرة، وقع بصري على سرير حديد بعدنا، وبجواره دولا قدم محدد مفتوح على مصراعيه

هو والسرير مدهولان باليبوية جدينا ومطر الملاء والعرش يؤد
أما أمام عريس جديد، هو على وجه التعبد ذلك الرجل الذي نيام
وفي حصصه عروسه الإنسان عاريان تماما ومستغرقان في نوم
عميق مع الرجل فوق بطى المرأة. وثراهما فوق رقبتهم

جاء الصحاب فيظفروا، فصرخوا بصحك صحك مكتوما. دور ان
يدري بما احدث، لفغانى طويلة، قلت «أكل العيش من فلاجرب»
ودفعت الباب، فجاءوا بنشامك مديا به يفتح فسدلت داخلا إلى
دهليز مستطيل مظلم. على اليمين كان باب الحجر المظلة على
النسارح وكس مواربا دمعته ودخلت، والرجال من خلفي بقيت
واقفا ليرمة طرية وتسمعت، فلم يتحرك احد، ففكرت جالسا
أمام الدولاب وبهوارى تصرف غرولى وفي الدهليز وقف
همدى؛ وعلى باب النسارح وقف برش وفي أعماق الحارة جعل
بسبوسة يروح ويجهى على صوت اللسة مرة حمسة المعلقة على
الحناب مددت يدي في فخر الدولاب، سمعت صحننة كبيرة
سلمتها لغرولى، فسدسها في جيبه ثم سمعت راديو بلاستيك
أخفصر اللون ماركة صوت العرب، وسمعت علبة صغيرة فيها
فروع وقراط وأسورة من الذهب، سلمت كل ذلك لغرولى هدمه في
جيبه، ثم جعلت اسحب الملائس قطعة قطعة وأسلم لغرولى
فيسمنها بدوره لهندي؛ اندي يسلمها لبرش، وكان على الارض
نصف رجاجة حمر رديئة، صعب على ان اسركها فأخذتها في يدي
وأنا خارج، وصرت حلول الطريق أعب منها.

قال همدى «اطلعوا جنا على بيتي» قلنا «وجب» ومصيب
بالفعل إلى بيته والفجر يقول الله أكبر ١.

فنجنا للحظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبصع براير وشيدات
وقال بسبوسة ان النعب يفرمه وأنه سوف يحاسبنا على ثمنه
بالكليم وأما الملائس فقد يرعابها وطاع الراديو من مصيب همدى.
ما كاد النهار يطلع حتى استفتحتا الصائغ يعرف المجرى في
مقابل ان يقدر لما سعر الذهب، لقدرة بثلاثمائة جنيه، دفعها
بسبوسة محتجرا بمصيب منها، وعندما شرعنا في الانصراف
استقبلنا برش قائلا «أعورك في موضوع»؛ فاستأدنت من
الصحاب ومشيت معه نحو شوارع قم الضيق.

استنظف مقهى حرد عليه. جلسنا طينا الشاي بالحليب
وعينا قارنا الانتهاء من شرب الشاي مال برش نحوى قائلا
«الحليب الذي أريدك فيه بسيط» ستأخذ عليه يوميت جنيها كاملا
يمسى أكثر من عافية لودير في اليوم لكن امهم ليس الأجرة على
كل حال، امهم جدعتك في عمل ما سأطبخه منك على أحسن ما
يمكن، أتعرف الرجل الذي يقرع عربات اليد في هذه العاهية؟»
قلت «أعرفه طبعاً» قال، «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد»
وهاك ثلاثة جنيهات تخرى بها شروة تصل أو شروة أى شيء
من السوق، مصعبها في العربة؛ وشرح بها في الحارة التي سرقنا
مها ليلة البارحة، وكنا يائسا بحق وحقيق»

الدهشة لعيكت وجهي كله. قلت «كيف يا أبو العم؟ ماذا يفيدني لو فعلت هذا؟» قال «ندخل بالعمرة حتى البيت الذي سرقناه» تقف عنده مبادي على بضاعتك عندك تستمتع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة فتعرف بذلك الأحيار وتجرى بها لي، لمت العكرة في نماعي يحال عقلت مفاجئاً «يا أبو الحنة» ولكن ما فائدة كل ذلك يا أبو العم؟ قال برش «من الذي أخرج المحطة من الدولاب؟» قلت «أنا» قال «ففتحها قبل أن تسلمها لغزولي؟» قلت «لا» قال «راقبته وهو يضعها في جيبه؟» قلت «لا» قال «راقبته وهو يضعها في جيبه؟» قلت «لم أجعل بالي» قال «اليس يحتل أن عزولي خصم الغزولي من المحطة؟» قلت «فرعاً» أبلغ ذلك؟ قال «ربما به صنف لا يؤتمر» قلت «أي صنف هو يا ترى؟» قال مستدركاً «لا» لا أفهم صنف الحرامية؟ كما يعني «ربن والحل أحسست أنه غير صادق يا بوي، فطبع الفار في حبي من جهتهم معاً هو وعزولي» بل جاهدني عاتق يقول لي دهنس يوان من الاثنى. وقلت لبرشي «ولكنني يا أبو العم قد اشتغلت معكم والأمور تجري بالبركة والصدقة» ولو حدث الشكوك بيننا يا أبو العم ستغير الصدور، فدعها لله» وكان برش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمسح أطرانها مقلتها، أراح بظفر إبهامه سمسة أميوس قريبا من قمى قائلا «يا صعيدي يا قصف» من قال لك إن الأمانة والصدقة والخدمة مضمونة بين الجرمية وبعضهم؟ إذا كانت هذه الأمور غير ماثية بين الناس الماديين فكيف تكون ماثية بين الجرمية؟ تظهم قرءوا القرآن

وأعادني الرسول وتزمتوا بمكارم الأخلاق؟ هذه أمور لا يعرفونها، وبحر لنا إلا حرامه، يمكن جلدك شيع وعك قطبا ولاكن أنا متعلما في المدارس ليكن غيري ابن ناس أنقياء لكن مادما صرنا حرامية فعند ابن حرامية وكفى! ليس هناك حرمي بطي وحرامي شريو حرامي ابن حلال وحرامي ابن حرام. الحرامي حرامي لا يشفع له أهل ولا طيبه قلب أنت مثلا سرقتك لستكس ولهذا تستعجب الآن من كلامي أنت تسرق وهي ذهنتك الله والرسول وشجع عك الفقيه ولا تزال تنسج نفسك مميزاً عن فئة الحرامية؟ تفعل أعمالهم وتنبأ بهم؟ وبذلك لست وحدك هكذا فاهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتدربون من الحرامية في سبيهم أن يكونوا من كبار كبار الحرامية؟ فالحرامي البسيط يا صعيدي يا قصف هو بحر أنت ولنا وغزولي وهندي وبسبوسة حرامي من يعرف أنه حرامي ويسرق من وراء ستار حتى وإن كد في الليل! أب الحرامي المربك فاجارك الله ما لا يعرف أنه حرامي لكن يعرف فقط كيف يتجرباً من الحرامية؟ كيف يرسم صورة الرجل الشريف؟ كيف يعلم على الناس حمة كلما عات «أي حكة تجرا ماعيا» وكلما كثر عدد الشرعاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلا على أن عدد الحرامية في الجبر يتزايد والسرقات على وده! كل واحد في هذه البلدة حرامي على طريقته الخاصة وكل واحد يحدح الأحر ليسرقه على راحته ولكن ميرة الجرمية البسطة أمثالا في الوضوح لست أقصد وهوو كل منا في نظر المارقين إما

مسموماً في مكاني وقتاً طويلاً وصوب الهاتف يهتف بي والده إنها
فكرة! لماذا لا أجرب هذه الشطة التي أشار بها برنس؟ إنها والله
شيء حريف عسير للحمل

وفجأة رأيتني أستدير عاتق، نحو ذلك الرجل الذي يُؤجر عربات اليد فأجرت عزمة نعتت به رهنهم، وذهبت هامشيت شروء بعض كما أشار مرش، كومة من فوق العربة، وعبرت بها من فم الطليح إلى مصر عتيقة، وجعلت أمشي «ناديا بصوت حافت، ولا أستجيب للبيع إلا قليلا حتى لا يبعد البصل قبل وصولي إلى الحارة المقصودة، علما وصلت إليّ بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام. وقفت بجوار مقهى على ناحية الحارة حينما لفت نظري أن الجالسين هنا ليسوا في حالهم كالعادة من أنهم متجمعين حول بعضهم يتكلمون في حماسة وحمية وحدة، فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد وقت لنفسى بس لا يد أنهم يتكلمون في حادث السرقة فزينا بالناس كلهم على المقهى مندحمين في قول العجب يقولون إن شمر عبد الحكيم أبو عامر له مات؟ مات؟ الشير أبو عامر ٢٠٠٠ «نعم يدبوي رجل في كل هذه الآفة والعروء موت؟»

تركت العرب ومصلحتها. وأندفعت أسال الجالسين كأن المشير
من مقبة أعلى كيف يليو العم^{٢٤}

رد اٰدم من مقام من منابرہ ومعہ قلت کلام جد سادو
العم^{۱۴} کشف مابو العم^{۱۵} فلم يرد عني احد جلست فطبت شايًا

أقصد بالوضحوح أننا جميعاً نعرف أننا حرامية ونعامل مع بعضها على هذا الأساس' والمشكلة أن الواحد منا يسمى أخيه/كثيراً أنه حرامى' ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى وعلاؤه الحرامية يعاملهم هكذا أيضاً' ولأنهم يسرون مثقه، فإن الأمور تخصى فلا أحد يحاسب أحداً' والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليسمى يوم يصبح فيه لصاً مركباً يحترمه الناس ويصلحونه ذروبهم! وعلى كل حال يا صغيدى أنت لو قمت بالعملية التي رسمتها لك فأنت ستتعلم وستعرف أشياء تفعلك عند اللزوم! ستعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام فتتعلم حكمة بالغة ستعرف المساحة التي ستتحرك فيها المباحث والحكومة فتعرف كيف تتلقاها! وعموماً أنت حررسي ما قلته لك كانت لم تسمعه!

ثم إنه اشتمل سيجارة ووقف مصفيا للهرسوف، الذي جاء
مهرولا مع ورقة ربيع الجنيب المعلقة بين أصمعي مريش، ثم أحدها
وصار يبعث في الفكّة في جيب الخريطة لكس بریش - مثل البيك
الكبير - أشاح بدارعه نحوه علامة أن حلّ التناقى ثم سلم على
وعشى، فاستندرت أما عائدا في اتجاه لم الخليج، وليس في بيتي
الموددة إلى بيت همدى أو إلى بيتي قلت فلأذهب للمعلم
شدوولي في المنهى أعطيه ما تجمع معى من هلس قبل أن تفتد
عليها يدى أو يد الزمان، وهكذا شرعت أفق لأنتظر مسافة مناسية
بين سيارتين حتى أعبرها إلى الزمريض الآخر في اتجاه مصر
متبعة بكل الحاطر بملكن، فوقت على مرصا كثيرة للصور، وبقيت

من الولد العرسوى وسأته ثاية علم يره فلقته وعمرت عليه بسيجارة فاحدف وقال «المشير هو الذى انتحرا ابتلع حيوبا معبرة بقصد الانتحار مات» هتف على لساني صوت قوى «الامر فيه إني» وعدت إلى العربة فجعلت ادفعها داخل الحارة متاديا على البصل بصوت عال.

قرب دار العريس المسروق تلكت ثم توقفت مواصلا النداء «كيف التفاح يا بصل» خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه خضعة كأنهم صارت تزحف معوى بيده قائلة «يكلم البصل يا عم» مع أمسى فى عمر أحفادها قلت بثلاثة تمريرة «قالت» «الاشنان بخمسة تمريرة يفع» قلت «يففع» مضت تطلب فى البصل وتتقي طائبة كفة الميزان. قلت «لا بهك» رى عند اى بائع وتعالى «أب راضى بذهنتك» بعد برهة فأتت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر فلما وجدت أقل من السوق توقفت وراحت تنتقى ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تطفى وجاءت ولقتها بجرار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموم «من المصيبة التى حلت فجر اليوم بدار ابى اختها وزينهم» حيث سرقة اللصوص ففششوه وشلوا المحفظة وغبها ثمانية جنيه كان قد ثاها فى الصبامية وكلى يابوى أن ينفذها ناجر الموبيليا هكذا كتب العريس فى محضر الشرطة التى جاءت وعانيت منذ قليل

كتب من رأيك يا حال أمسى هددت أن التمحطة كان فيها ثمانية جنيه الله وكيل يابوى أما الذى تأقت المحفظة وكانت حقيقة جدا

يابوى هددت أن فيها هذا المبلغ الكبير ولو كان غرولى أمامى لى تلك اللحظة لطقت من زماره رقيقته وأكلتها مع يقسى أن الفرصة لم تسمح لغرولى أنى أن يستخرج المبيع من التمحطة خلصة قبل أن يدسها فى جيبيه إنما بنى آدم يابوى «طماح» شكاك. وحين رأيت الاشك مسنگ بتلابيبى أيقنت بمسحة كلام هريش وأمتت بأننى صرت حراميا رسميا أشك حتى من نفسى وكاد هذا الحاضر يعمى عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يابوى إذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامى وأبلغ عنه إنه ولد صليح زميل للعريس من شغلك تبع مقال سبىء

وحيما شعرت أن البصل قد انتهى وأنى عرفت ما يهمنى معرفته دفعت العربة عائدا بها لكن استود الزهر لورا وما كنت أصل إلى آخر الحارة من النهاية الأخرى حتى رأيت فلاحا ظيما يعمل على كتفيه قمصا صغيرا من القصب ويمشى متاديا فى طلب الأكلة كان مظهر العيب مشرقا يا حال حتى اسأل بغايى فتوسمت أنسى أستطيع أن أسمع هذا الرجل الفيس بقرش ريادة لهعطى أحلى عقود فى القفصى ولسوف أشلى بقرشته مع رفيفين وقطعة حب أبيض وهكذا افتريت من الفلاح الغليان «أرى عندك يا عم» فحط القفص عن كتفيه وتلقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف قلت «كم الكيلو» قال «بالبركة» قلت «كيف يابوى» قال «قال باسم» «هات الشن» قدرت فى نظرى أن العقود يساوى سبعة قروش قدفعت إليه بالشل قائلا «معك ورق لفة» قال بحشوة حمراء «طماح يا صبيدى يا قحف» أنا لعم

وتفوتنى هموة كهنه! ثم انترع من تحت إبطه قرعها من الورق
لف فيه المسقود يحرص وعساه وأعطاء لى قائلا «اتكل على
الله»

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شديولى وهو بطوى الجنيحات فى قبضته بإفعال
شديد لا يليق بالهرق الذى سفجته فى لمها قرشاً قرشاً «باقى
هلهك حمصانة جيبه يابو العم! وهل بالك يابو العم = اهتسم
فأشما حنك على الآخر - لن أكتب لك عقداً إلا بعد أن تزينى يوم
فى التكاك أولاد الفقهاء! مضى عليك حور وحول وأه أمهلك فى
الذبح وأضحك على كفوف الراحة وختنى الآن لم أسمع حناقة
واحدة! أحشى أن تكون قد استأجيت الخوى مع المؤسسات
للجسارات لك فى نفس الدور! إنهم يملقن أننى شجب أنت لا
تعمل منهن ضربة رخش! بعده ثمر صريعا يابو العم! أنا نفسى
كلفت لك! هل أكتب عليك يابو العم؟! ألمكأدى عيظنى فيه
أولادى من أجل البحث عن مطرح جديد لما! إنما كان سببه حرهم
من لى أجر حريعا تمت شباشب القباوات اللانى يشاركتنا فى
سكنى العماللى! ولو وقعت تكون قد طست! يصبح عليه العوض
ومنه العوض فى مالى وصحتى وعيالى! ربنا والحمد لله بجانى
يابو العم! حتى الإيجار يجيء به البابوا لحد عدى غير أننى
أتركه على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به وقى مقابر أن يجهر

لحطتها كنت من الدهول أجاول ابتقاء الكلمات المناسبة لى لرد
بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذى يقول لى - من الباب للطاق -
ياصعبدى ياقدح وكأنا الشر يطلع من عيسى حتى أنسى دلا من
أر أمسك لفة العنب كورث قبضتى وشمتها نحو وجه الفلاح
بهيق شديد لكن بعده كانت أصرخ منى ياموى! ابن مدينة مدرب
على الحناق! أمسك رصع يذى فلواه بقوة حيتى كسوسى على
ظهري، فصرت أصرخ وهو يهرس قائلا على لبتسام مشفق
ودود «ما تعرف من أنا يا صعبدى ياقدح» عرفتة فى الحال من
بسمته يابوى. من عوجة شفتيه، فتهفت «مرش! يالاب ديك الككب!»
علبتى يالاب المدينة! وتركتته ومصيت أرفع العربية بيد. وأوحوح
من وجع على الأخرى.

ناقوه فبنهم كلاب ممسورة ستمش هيك وهى عرصك حتى
تمرش عظامك! ها أنا قد بنيتك يابو العلم وبنك على جنبك .

قال هذا وشروح بتراعه فى مروج بال، ثم أشعل سيجارة كانه
بضع حنقا ثقيل تحت كلامه فجعلت أنامل كلامه يابوى، وجدت
أنه عين الغفل، وولله لقد أفلح العلم شديولى فى أن يشم النار
فى بيده الصبارة الأخيرة يابوى وتصورت زوجتى الغلبستين
وهما بايلتان تحت شباشب المومسات! ولقت فى عقل بالى هذه
القشلة شغلتيك يا ولد لا يها لك بال حتى تنمها وإن صاع عمرت
فيها مشعلت آخر شغلة فى كروب النشأ وسهمت قائللا
«سأويها ربما بامعلم شديولى» وصحيت أضرب فى الشوارع
على غير هدى! إلى أن قادتنى قدامى - دوب! أن أدري - إلى قهوة
صفصف كنا فى ساعة أم كلثوم يابوى، ساعة شمس الأصيل
ذهبت حوض المصيل ياصيل وكان الجو رماديا فى لوب النيل
للحضر للتندد ورائى على بعد أمتار معدودة، وثمة أشجار
الريفيتى مشرعة على النجايبين من كل الشوارع يلعب حبالها فى
صفحة الأسفلت! الذى اسمرت فيه قليلا بين السرايات والمعابر
الضخيمة، لأدخل بعدها مباشرة، فى البحارى ذات النيويت
المزائكة فوق بعضها كالتهديم، عبرت الهديم إلى قهوة صصفف،
التي احتلت حارة سد مستطيلة عريضة ترتص على جانبيها
أشجار الريفيتى العاردة فرووع ماوراق الثمرة الحمراء كمداريل
ملونة مسروصة للبيع فوق الشجر تلعلط بالأحمر والوردي

البواب ماله مى فى عيبى ولا مجيء فى صفهى على طول الخط!
إن كنت قد وقعت فى حداثته يابو الدم وهذا منتظر مسامحتى إن
قلب لك دغ لى شقتى وحد نقودك! أنت لست مسا يابو العلم ولا بد
منك قد لعبت من طبع الحلوام لحسة استك أهالك! ياأبى أنا! أنا
المقروم بالحسنة من قبل أن يخلصنى الله من الوصول إلى
لحس القدم بدلا من لثم الشعاف والحدود وعيب اليهود! وما
أومرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة
فكلهم ميسور والمسافة بين السلم والسرير بمقدار طرفة عـ،
قشلة مهلبية بالهسل الأبيض الماهيل الأسود هى ملحونة والد
الله خلصت منها وبقي أن أحلج جدورها من أملاكى معها كلف
ذلك من صبر! ثم إن لى معهن ثارا لا بد من تصفيته! لقد أ
دريج وبنايتى بالروح مرة وبالتسعين مرات! ويسوء سلوكهم
على طول الخط! فلنك أن تتصور حالى وشعورى حين أرى بنفسى
فاجرا من ربايتهن قانما لهن يتسحط على السلم كطاووس علو
ولا يكفيه ذلك تفويها لدمى بل يصطدم نابتى على السلم
فيمساجنها ويتجرا عليها بالقول والفعل! صحيح أنه لحس قراب
الأرض ونقلته الإسعاف حمة مريحة من الضرب الذى أكله! لكن
ما حدث حدث ولا أستطيع أو أستطيع عبرى مسح المرح من
نفس ابنتى إياك تظن أنى أسعرك للأحد بشار من ناس لم أقدر
عليهم! إنما أنا يابن «للال أنكم لمصلحتك» نعم الملمع ستترج
ومستقل روجك إلى هذه الشقة ما بين الفقهاء الأتمة! كيف وهؤلاء
جيرانك! إنك لا بد أن تشكهم بإسديا قبل أن يدوقوا لحمتك!فلو

والبرتقائي على أديم أحضر، الكراسي الفخية تحت الشجر مرتمة،
بعدها كراسي حبران، تفصل بينها الطفاطيق المصاحبة اللامعة،
والأرض مرشوشة بذئاء حتى العرق، ما أحلاه من منظر يابوي،
منظر يشرح القلب والله ياخال.

غير أن الجو كان ساكنا سكونا مريباً، على غير العادة في مثل
هذا الوقت، فمساعة شمس الأصيل مده في كهوة صلبص
بالسهرة كلها في مقاة أخرى، فليس في الدنيا مكان ساهر كهذا
في هذه اللحظة يابوي، صدقني أن هناك أماكن تشفي للخليل
وهذه الحارة من هذه الأماكن والدليل على ذلك أن الحلق يجهشون
من آخر الدنيا للعود فيها ساعات بالشيء الغلامي لما بالها اليوم
ساكنة ساكنة كان ميتاً مدفوناً لنوره فيها، أنكون الحكومة فانت
عليها وعمدت اللارم حتى تركتها جثة هامدة، ولكن منظر
الكراسي والأرض المرشوشة بمساية لا يدل على أن الحكومة مرث
من هنا، قلت ياخير بفلوس فلانجلس لأعرفه بالبحار.

جلست يابوي، ووضعت ساقي على ساق، وحسنت لجماسي
الولد كبير الصنايعي في انب مصطح، ووقف أمامي في هيئة
إنصات، فصعلت أنظر فيه لمعه يفهم ظلي كالعادة، فظلي
معروف دون أن أتكلّم لكن الولد بقي منصتاً صامتاً؛ فصعدت فيه
قائلاً «ماتحيب يابو المم» فتسأل متجاهلاً دهشني، «أجيب
إيه» قلت في استنكار، «هات حاجة ساقعة وهات بحان» فقال
في كلاله «حاجة ساقعة آه! بحان لاه» قلت «في الأمر شيء»

قال «الجو مليش، ثم تركني ومضى وبعد برهة قصيرة أملت
على صوت الفتاحة يطرق رافعا عطاء رجاجة الاسباتس الحصرام
المقشقة بالثلج وصمعا على الطفطوقة جوارى واصمرب.

حمدت الله أن جيوي مقلبة من العشيّش؛ فمكنت جالسا
أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقي من غراييل
للشجر، وليس في دماعي سوى شغلة الموامس الدين سيخصصون
على عيشتي فجأة لجت عربة الهوكس هورد الرقاء تدبر الشارع
العمومي في بطء وقصيل، ثم غابت عن ناظري، فاستشغلت في
إشغال سيجارة، ولما رفعت رأسي رأيت ثلاثة أفنديّة شبان
متجهين للوجوه يقبلون نحو المقهى في خطوات دات وقع هاد،
وكان غرولي يمشي وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من
قبل، فما كان مني إلا أن ولّفت حسائما في فرح وابتهاج، وغرولي؛
ياه! لكن غرولي تجاعلت يابوي، ومضي وراء الأفنديّة إلى داخل
المقهى، فصعدت ثانية معبط مايا برامعي أكاد أجده «إنت ياغرولي
للكتب! ماسمعشش ولا [إيه]»، فإذا بغرولي يركض مضوي لجماعة
والشرر يضاهي من عينيته الحبشيش اللتين؛ وبكل قوته يلسمعي
براحة يده على وجهي شاخطا «القعد مطرحة»

فجلست مطرحة والدعول يكاد يعميسي من كل شيء ياخال
ورأيت كبير الأفنديّة يتقدم ناحي المقهى، عيقتش في أركانها، ويمعش
بالأواني والكراسي، ويتلصص خلف الحسبة. مايقنت أنها
الحكومة يابوي. وأنها لابد قابضة وبكن ما مال غرولي يتدبر مني

هكذا؟ إن أصابع يده صارت تبرز على صدغي. إلا وأنفدى منهم
جعل يقبل بحوى مكشراً عن أبيابه، وغرولى يقف وراءه

«يتشتغل إيه يالوده» هكذا سألنى الأعدى، فوقفت مستلجلاً
ياحال، وجررت فى النطق باسم شغلتي، وصرت من فرط الرعب
والرعدة أمطر على غرولى: الذى رأيته - وياللعجب - يقف معتدلاً
منعوخ الصدر كأنه بنى آدم محقق وحقيق، كأنه هذا الأعدى الذى
يسألنى الآن ويرعبى، ثم رداً به - لا تتعجب ياخال - يقف بيبي
وبين الأعدى قاتلاً فى استعطاف. «هذا ولد غلبان يأسفد البيه»
على الله! نمر من يتوعد الفاعل، قال الأعدى - وأعجب هنا ياخال
شأبه العجب «فتشاه ياغرونى» غامبرى غرولى يتخمس جيوبى
وتحت إبطى، ويرفع اللبدة عن دماغى، وأخيراً قال «ما ممة شيه
ياسفد البيه» وكان الأعدى الذى وضع أنه كبيرهم قد جاء
وولف جوارياً، فزال فهم حوله «فبين صاحب القهوة دي» فقال
الولد الصديقى كالملاكمة النائرة «مسافر ياسفد البيه»، ومطر
إلى غرولى: فقال غرولى للأعدى «أصله اليومين دول بيسافر
كثير يدور على شغل فى الدول العربية» الحالة يظهر تعبانه معاه
شوية «فهر الأعدى رأسه ورام عدة مرات ثم استنار ومضى
فمضوا جميعاً خلفه وبقي الظلم فى عيسى يابوى، وأصابع يد
غرولى تبرز فوق صدعى مالم شديد، وصوت واتق من نفسه جرن
فى دماغى فوق وبين الوجع قاتلاً إلى غرولى ينصب مصصة
جديدة محكمة الصم، وإنه لابد أن يكون ولداً وإعرا جداً ماوى،

حتى أنه يستطيع أن يؤلف يوليساً يهاجم به الناس والأماكن جميعاً
فى صفة كبيرة إسي إسي جواره مجرد ولد يصرب على وجهه
بالقلم هنا صعبت على ففسى يابوى: فابهرت الدموع من عيني
كللهب الكاوى، حتى اعتصمت عيني وبظرت الحارة قد حلت من
جميع البشر، والريح تعبت بورقة جردان مرة فترمى بها هنا
وهناك وتعلقها فى الفراخ، وثمة كلب مقع على الأرض يتابعها فى
انتيهار ويتكاثب فى حال.

جاء الولد كبير الصنايعي وجلس بجوارى وضعا فمجر قهوة
على الطحونة، ثم مرع من فوق حلمة أبه تحت شمره ورقه
سلوغان فيها قطعة أفبوى فى حجم زرار البالطو اقتطع ربعها
وقدحها لى باسم «روقي» روق، ولا يهيك «تأولت قطعة الأهيوين
وقد أحببت الولد ياخال. ولم يكن يحضر ببالي أن الولد كبير فيه
كل هذه الجدة رغم أنى مد رأيته لم أفهم منظره. صحيح
ياخال. الواحد لا يأخذ الناس بمناظرهم طوحت بالقطعة فى ففى
وصحت دموى قاتلاً «تشكر ياكمبر» قال «اشرب هذه القهوة
على حسابه» قلت «ما كل هذا الكرم ياكمبر» قال «كله من
خيرك» فجعلت أكرشف القهوة وأمصص الأفيونة مضمناً أن
تذاب بسرعة وقال كمبر «ما تأخذ على خاطرك من غرولى إنه
أمواله» قلت «عمره ما فطها» لا أعرف ماذا عاملني هذه المعاملة؟
وعلى كل حال» حسابه معي طويلاً ابتسم الولد كبير قاتلاً «خذ
الأمر ببساطة» غرولى ضحك وحقاً! فلولاً هو أكن الصابط قد
أخذك. للفحوى منك ولا تحس أنك عطشان - وضحك - أنت عدم

إذ واحدة صعيدى مندب كنت ستودى بالرجل فى داهية! هل عيينه
ياحسر؟ أنت تراه داخلًا فى صحبة الحكومة تتابعه؟ إنه فى
حالة عمل وراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك نقول له يا غرولى
الكتب! لو كنت مفتتحًا لتجاملته كأنك لا تعرفه! إنك اليوم
ستجفلهم يشكون فى صدق عمله!.

الأرض مدمت فى أحبال تحلف اليمين أنى رحت أثبت نفسى
فى الكرسي حوف الوقوع وبمعاى كلها فى دوامة كالكرة
تصيرها قدم لتتلفها أخرى غرولى هو الذى نجاني؟ التحرى؟
عمله؟ رؤسائه؟ ما كل هذا يابوى؟ لا بد أنى من غير هذه اليلدة
من غير هؤلاء القوم يا خال أيعقل أن أصحاب رجلا واشتغل معه
سنوات طويلا، ويتضح لى فى برهة سريعة أنى لست أعرفه حق
المعركة بل لست أعرفه أصلا

قلت للولد كبير «ما كل هذا الذى قلته يا كمبر؟» إنك تقول
الحصبة! أنقول الجد أم لك تهزل! ما دخل غرولى بالحكومة
وعمل الحكومة؟ وكنت أتسرع فأضيف فنلنا إنه حرامى
رسمى ومعروف لدينا كلها جربوعا حقيقيا بلا سيدا، لكن الحمد
لله يابوى أنى لم ألقها! لأن الولد كبير كان أسرع منى فأنلنا فى
استفكار «ما حوف إلا أن تكون لا تعرف صاحبك! أنت عيب
ياحسر أم أنك تستعطينى؟ لست تعرف شقة غرولى الحقيقية
ياحسر؟ غرولى شقته مخرج سرى فى الحكومة! تبع مكتب
مكالمة المخابرات!»

بط قلبى، قافرا على لسانى صانعا «مدا قلت يا كمبر؟»
ياجدع لا تقل هذا! ثم حشيت أن يستعطينى الولد يا خال!
فتمسعت أنى أعرف هذا وأنى أنفيه حرصا على سمعة الرجل
وعمله وأحدث أغالى فى نفس الحمبر، والإيهام للولد بأن غرولى
دماغه المظلمة حنتين ومعه نظيف يستطيع أن يخلص كل هذا، غير
أن الولد كبير رغبى فى جسمى بلطف وود، وأفهمنى كل شىء،
قائلا إن غرولى ينفهم كثيرًا، فوالاه لأعانت لقصي من ربح
خصي! وذلك لأن غرولى يعرف مواعيد الحملات التى سيقوم بها
مكتب مكافحة المخابرات بالساعة والدقيقة واليوم! فيلف على كل
أحبابه من تجار المخابرات وأصحاب الخز، فيبذلهم بمواعيد الحملة
حتى يستعدوا لها فتجىء الحملة فى النهاية تأخذ ما تأخذه الريح
من البلاط والمكتب لا بد أن يطلع غرولى على مواعيد حملاته، لأنه
لا حملة بدون غزولى! إنه هو الذى يصراف الصواري والأوكس
والضباب، وهو الذى يجمع التصاريح من المجرمين والهربين من
الأحكام! وهو الذى يقود التصيحات إلى المواقف! ولو كان المهجر
الهارب واقفا بجمعه أمام الصابى وقال غرولى إنه ليس هو أطلق
الضابط سراحه فى الحال! أصبح ياحسر ياهوى! والله غزولى
هو الآخر يخطى نفسه جيدا! يجمع مرتبات نصص إلى آلاف كل
شهر! والعلم وغيره يساعدونه على تغذية موقفه! يجلبون له
معض القضايا فى حضور الضابط! يسمونه بمض الرياش يدا بيد
ريائن دعت عليهم أمهاتهم قنابهم سوء بحتهم!.

تحبف اليعمين ياخال أسي لى أمد قلدرا على الرعم بانتي ما
 كتب أعرف أى شيء من هذا على أن الصربة القاتلة عاجلتي بعد
 برهة وجيزة ياخال، حين استطرد الولد كبير قائلا في ثقة هذه
 المرة «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الآخر محبر سرى» انتقصت
 واقفا في الحال ياخال. كمى يقف على سلك كهوى، وأحدث
 أصبح «بسبوسة هو الآخر محبر سرى» كيف يابوى؟» دفعنى
 الولد كبير برفق. فجست، فصار يحدث في جيبه عن سجانر
 فأسرعت بمد طبعتي معوه فروع واحدة بلها بشعته، وبع عنها
 اللدريحة «مبولة»، ثم مزع ورقة باهرة من دفتر في جيبه، وبع
 قطعة خشيش من خف حلة أدبه، فركها على السيارة وبرمها
 بسرعة ثم أشعها وجذب منها عدة أساس متلاحقة، وقدمها لى
 قائلا وهو يكتم الذخا في مسهره «بسبوسة محبر سرى تبع
 بوليس الأداب وهذه الشخلة تخففه» لو اقتصر عليها وحدها
 يأكل الشهد بليس الجوز في حرير» وهو مالمحل هكذا هناك
 عمار بكاملها وسرايات في مناطق محاف من من المشى فيها
 لبسبوسة مرتبات ثابتة فيها العمارة أحيانا تكون كلها شقق
 دعارة من أولها لأخرها! فكها مؤجرة مفروشة، وإيجار الفروش
 هو الاسم الرسمي للدمارة! معاً وهناك سرايات أصحابها كانوا
 بشرات ذات يرم وياتوا يتاجرون في اللحم واللبن! الحكومة لا
 تعرف عنهم جميع أى شيء إلا عن طريق بسبوسة، وهو كثيرا
 ما يضبط في هذه الشقق بعض رؤسائه ولكن في ربات ودية
 يقوم به تقص المعلوم وليبلغ خبر حلة» وكلى يحى» يعدها

يهيكنى لنا وللمعلم حصف! بسبوسة هذا كان زمانه الآن
 ملعوبيرا كبيرا لولا مساعره» هو الذى يشوحو ويعذب في الدنيا لا
 يسمع ولا يكتفى! يقول إن السيب ليس في أنه نور ملوكة وإنما
 لكثرة الجمعيات المسافيات اللآتي يقص تحت يديه مقهورات! مهم
 من تكون امرأة رجل كبير ذى مركز كبير أو بنت باس طيبين
 ولكها ضبطت متبسة» ومادام قد صار لها ملف في الأداب فون
 مساعرا يرقعه بسبوسة فيها حير ثمان لبيت كل يوم في قسم
 الشرطة! الواحدة منهم تنام في حصص زوجها متحشية ولكنها في
 حص بسبوسة كالبريك! هكذا يقول لنا» ياما جاء ههنا عقب
 خروجه من عدد إحداهن سكرانا طينة! فميكشف عنه ويريه لنا
 متسلخا» وفي لحظات يختبئ في زفر مظلم في الحارة ويعمل
 للامنة السرية ويخود قائلا إنه ظل يرقع طول الليل دون أن يذلل
 منه شيء وقد انزل الآن فاستراح! إنه ملعون في الدارين بسبوسة
 هذا لكته جدج! أجدع ولحد في شلنكم كلها» خصوصا لى يقصده
 في حير! هي يصبه» - يقول - لأنه يفعل معهم ما لا يفعله
 أرواجهم تعرجا أو غشومية! بعضهم حلس له هند حدوث الشيء
 انتهى قبل الآن لم يكن يحرص شيئا» عن هذا الشيء رقم أمهم
 متروجات ومنجبات من سمين طويلة، كذلك يفعل معهم حركات
 الجذعة! إنه مضطرب ابن كلب هذا البسبوسة! أنتى شنب في البلد
 ولحقى شاب فيها لو خثر لواحدة منهم تنقلع عنيه قبل أن يطول
 معها نظرة لما هو معروف عنهم من العفة والهيبة وكثرة نال! أما
 عند بسبوسة للمقن هذا فإنداه تنقلع اللباس في الحال وهي تقول

سبحان الله والحمد لله! وعلى فكرة: كل مسول الكورنيش عقيقات شرفاء حتى يراهن بسجوسة، تنهار الولعة منهم في الحال وتتكسر عيناها! أما عمارة الكورنيش في مصر عتيقة أكبر عمارة هناك فمن بسجوسة يشتعل عليها أحر شغل؛ فيها خمس مؤسسات مقيمت لكل منها ثلاث أو أربع صحيفات! كل واحدة منهم تجيء بريائتها الخصوصيين؛ وهم رشا من أصحاب الرتب العالية والراسمال الكبير؛ والجميع يقيمون الصهرات الحمراء؛ ولعب القمار شبهاً طول الليل؛ الواحد منهم يشتري البيت ويلاهيك عليها شفا الظهر والمهر؛ شفا المزاج العجيب الغريب؛ دينك أم هذا المزاج المهيبة إن غلبته كنت في اللعب تقوم في الحال أو عندما يطيب لك فتعتلي البيت في الحجرة المجاورة حتى الصباح؛ يقول إن عينا مرخيا يكسب باستمرار في هذه اللعبة فيحتجز أعلى الهدايا على اسمه طول الليل والمفلوجون يتحرقون شوق من حوله ويتعبدون فلا يرحسهم؛ أما إلى طلبته أنت فإني يدفع لك تكاليف أي بنت تختارها؛ إذ أنهم جميعاً أمامك بضمالي الدرم شاربيت متشيات يهن يحمي اللعب فيجعلك تذهب لتجيء بكل ما في بيتك من مال تدفعه لهم؛ شفا المهر بتاح البلد يامسى حسن؛ وتقول لي تكسة؟ إنيها بلد يلزمها الحرق يابوعلی.

وكف من الكلام كأن الحشيش المتكلم في دماغه قد نقد فجأة كما تفد للطارية. منفي شاربا يحدث في المزاج وقتاً طويلاً يصر سيجارة عادية في صحت كفيلاسوف مشهور وموجبات صوته

لاتزال موجودة في المكان. أما أنا لا نسل عسى يحال؛ تلف أيقين أن يدا عليظة عملتني ومصرني الأرض كروية يابوى، صدق من قائلها، ويحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه. والواحد ما منها شرق أو غرب فهو ماخ تحت نفس الأمواج للفتلاطمة؛ وما هوذا الولد كبير يكلمني فيما كان يشغلني من أمر دون أن أسأله أو أعرض عليه الأمر؛ فياله من أمر يابوى!

فجأة طلق الولد كبير من جديد، فلم أدرك أن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلاً؛ لكنني أمقت على صوته بتجسد في أدنى بكرة وحقد شديدين؛ المشهر أسله ضرب مخ الجميع بمرض الفتانات؛ وآخر المشقة جاء ينتشر في تلك البلدة وانتشر؛ الله يكرمه عنده دم وانتشر؛ أما الأخضر فقد نال أمدا وجاء يستلر ويشمى؛ بلد مسمومة يأجده؛ الثورة تاكل عظم وباشوات زمان طفشوا بفلوسهم؛ والصباط صاروا؛ باشوات أوسخ من الباشوات؛ وإسرائيل لايدة لنا في حقول الذرة العالية؛ وحقول الذرة هذه هي أمريكا إلى كنت لا تفهم؛ دخل بالك أنسى صبور أكبر من شكلي..

ثم عاد إلى صمته؛ وقام بعد برهة فأتبه إلى المصبة وراح يقلب ويمكرش تحت حشيب كوخيتها وبناء بريح قرش ملفوف في ورقة سلوفان حمراء، وجلس هانبري يلف سيجارة.

أولاد الضحياء إنن - يحيشون في حمادة بسجوسة. لقد تضحيت الأمور تماماً بأخلاق، وبانت غير محتاجة لأي تفكير فما

الذي تراهي سأعطيه مع يسوسوسة ياخال؟ هل يحفل أن يسوسوسة
 يبيعهم ويشترس؟ هل يبيع مصدر رقة هي سبيلي؟ لا أظن ذلك
 أبدا ياخال. وبهذه تكون المسألة قد تعقدت، وإن أفلح في محاربة
 أولئك الموماس طعنا أن مندوب الحكومة يحصيه في الوظيف
 الصغير في بلادنا هو الحاكم الأصلي كما علمي وبهني أهلي،
 وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار
 والسلام. خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وعذبهم المديونة
 فحسب على كل حال ياخال. شكنا قلت لنفسي ياوي لهم - فلن
 الولد كمبر يقول أن يسوسوسة جدع. خصوصا أن يقصده في
 حير، وأظن ياخال أن مقصدي من تأنيب الموماس حير الأحمر
 يرميه تفكير عميق ياوي. لانا الآن فقط صرحت أناك من أنسى
 بالمسبة لهؤلاء والولدان فشة في بحر قراره عميق.

ورأيتني أقول لولد كمبر «خدمتي عندك ياكمبر أن يظل ما
 دار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت في بئر مظلم» فرعني
 كمبر بسبجارة ملفوفة وغمزسي ببيني «كم من السمين تعليمي
 عمرا ياحسن؟» قلت «شيء وعشرون على الأكثر» فابتسم
 وأخرج ولاعة البوتاجار البلاستيك وأرد غرة. والتي من المقروض
 أن يرمي بها فور نقاد البوتاجار منها لولا أن المصريين اخترعوا
 لها طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجار جعل يقرب شعلتها المستطيلة
 محوي، فاشعلت السبجارة وحديث نفسا عميقا، بيعته بأنعاس
 متلاحقة وهو يبيهي في حرج. «الرحمة»، فناولته السبجارة

فبهرهه نفض عنها الرمرة المحترقة وكانت أعماقتها مقصبة دليلا
 على جودة فروع الحشيش الذي مذا كأنه الصمود المسلح وسط
 الهيم المحترق أبقي السبجارة بين أصبعيه حتى تلتقط أنفاسها،
 ثم قال «شيء وعشرون تقول؟» رينا يجبر محاطرك؟» وجذب
 نفسا عميقا كتمه في محبره عيني بالأحمر الرمدي، جعن يقول
 ومثاقا الدخان في حلقه تيعثر جبال صوته وتعبه «في رمضان
 القدام باكمل الأربعين من العمر» وجذب نفسا أعمق من سبجه
 ياوي، نفسا يليق بسن الأربعين وسط غررة فيها الحبر عمير
 مقطرع ولا ممدوح قلت «ما شاء الله ما شاء الله لا يبين عليك
 والله ياكروت». سلمسي فسبجارة فأنالا بصوت متكتم «هذي
 هرائس مروجات» ولي ابن مسند في الجيش الألب وأحد مات
 بالنكسة، جامته نكسة قلبية في سبناه فمات ولم أر جثمانه حتى
 الآن ولم أعرف إلى كمال قد دمن في مقابر الشهداء، حقا أم أكلت
 الغربان والذئاب في سبناه؟ أما الأحمر كنت سأصاب بالنكسة وأنا
 همة لكنني رأيت أمه على وشك الوقوع صريمة مشدوقة بالطرحة
 السوداء والكفن الأسود! فقلت ما يصح أن تلتقط معا، فاجت
 وفوسى حتى أقوى على سمد أمه المسكينة، إنها أهم مني بكثير
 ياخدح، لو ماتت ألوهي أنا بقبحيلة من الأولاد لا يجد من يمسح
 حراءها، لو مات أنا فالله يبرقهم عني! أما هي فبن الله - عدم
 المؤاحدة - لم يروق أما ثابته لندي آدم أندأ عصرها ما حصنت
 ياخدح، عمرك شعت شحصا ماتت أمه وعوضه اله نام غيرف
 على الجففة» إلى قلب إنك شعب بيتي كذاب حتى أم لأم سفسها

رغم كثرة حناتها لا تكون هي الأم نفسها أبداً! إسألني أنا فقد اكتويت بأجدح!

وتتاور السيجارة في ومطر في عقيبها محدداً عمق النفس الذي عليه أن يجديه. فلما رآه لا يستأفل، رمى بالعقب في بالوعة الماء تحت النضبة، ومضى يديم سيجارة أخرى وقد تدت عينه بالدمع، وترطب، إلى أن لا يبقى فيه، صهيحاً: «وخمك بصوت عال في مرح حقيقي، والذي مات مات؟ في كسحة؟ الفشير نفسه مات؟ والبطل واللوطي كلاهما يموت في النهاية ويتساويان في الفجر والكفر، ومصر كلها ماتت من ضرب فيها وكان شيئاً لم يحصل! الرناديو يبيع شبيه في المصيدة عشية النكسة يهربا بها في موت عيالنا» شبيه من: كلنا في المصيدة وتجرى تسوق الترويقة عليها! معك حق طيباً! البلد فرحانه والكباريهات سهرة والشقق المفروشة صرارة، والفرد بارها والقة والعشيش للركب، ما يشرب المسرة إلا من يأمي فلندا عيالنا! لكن لا يأمي للنكهة! معلش يا حسين! أنا نصيبني حالة النكهة هذه كلما رأيت أحداً من الحكومة، ثم بلل الورقة البافرة ولصقها حول اللسان وكوربورها وسوى عقيبها ثم أشعلها وتركها موهوجة ملطعة بأنفاسه المتلاحقة! أخيراً سلمها لي قائلاً: «قصدي من الكلام كله أسمى في غير حاجة لمصانعه! أنا ولد يمجك، أصادق الصغار والكبار معاً، يخذعون في شكلي يتصوروني من سمهم! فأحد نفسي كبيراً عليهم، والكبار يتصوروني صغير السن فأجد نفسي مساوياً لهموسهم! هل رأيت المعلم صنف، يهتني في أي يوم أو

يقول أئمة على كعما يقلع مع المصنابعية؟ هكنا أنا مع كل الناس! أحترمهم فأكتبهم فيحترمونني ويطلقوني على أسرارهم! وأنا - على فكرة - أستطيع أن أسير السر الحقيقي من السر المصطنع! أعلمك وأكل من دارنا السر الذي يقال لك ليس بسر حتى ولو وصفه قائله لك بأنه سر! إنما السر هو الذي لم يكن صاحبه يود لك أن تراه أنت أو غيرك! تشرب شاي؟» قمت «م أهلك يا ولدا! محود على النضبة وصب كوبين من الشاي الثقيل دى للواحدة البفافة، فأخذنا مشرب في صمت عميق ياخال! كاتب تعبنا من الكلام! ارتكبي هو بمرفقيه على رحمة النضبة شاردا. وكبرت أنا على الكرسي، وقد شعرت أن السيجارة الأخيرة لطفتني في مقتل ياخال، فصار دعاي يتجر في الهواء وعند صمكتنا نبعث صوت نكتة صار يقوى مع الريح المتصممة من فميتين متواجهتين وكانت صورة جمال عبد الناصر المعلقة في برواز مدب على الحائط قد صارت بها للريح مشبوكة في فتلة دويرة دائمة! فأحدث تصير هذا النقران العفيف، فقلت في عقل ياللي لطة بيور زن على حراب عشه فالفاسر بدى حينئذ ثم انفراد مرة واحدة في رعدة شديدة قلت على أثرها: «حي على العلاج! واستسلمت لصمت عميق صهيح.

الخامسة - طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصبوره يتكشف، فطالما كنت وماز وأما طبال فلاهد أن الليل يجمعنا إلا أن محي الصمعيدي الناشف أمرني أن أحتفي عن هؤلاء الأولاد؛ وأبعد عن أكثر وأعني له. ولقد من الله على برجول طيب كان يعرفني من شهوة المعلم هو من بلدة الصلب أسماها «الودي» وكان معروفًا للجميع؛ اسمه الصاج وهذا؛ شغلته في الأصل تاجر حصار وفاكية، يوسق الركاب من بلدته ويهيء ليجعلها في مصر عتيقة بدلا من روض الفرج، الذي كثرت في سوقه المظلمين ويضيع مكسب البضاعة بينهم. حين أنشئ عمري ما رأيته في حالة شغل أبيا، فدانما هو قاعد على المقهى يشرب الشاي مع الشيشة، ويستقبل الوفود الذي لا ينقطع حولها طول النهار كلهم أشكلهم غربية يابوي؛ ومثله يرتدون الجلباب الكبير والعمامة الصمعية والميادة الجوخ على أكتافهم وكلهم عيونهم لائقة، لا تكف عن التلفت في حجر وحيفة وحفة وأتي ذات عصرية رقيقة التمامات أجلس على رصيف المقهى وهدى. فمُيل محوي وبابلي بإشارة من يده، فمرت كوسي منه مائلا بآذني نحوه وضع كفه الكبيرة فوق كتفي مائلا في ود

جميل «تشتغل فين يابو العم؟» قلت «صراحة لا اشتغل هذه الأيام!» قلت «مما شغلتك الأصلية؟» قلت «ولا أبرئ لم؟» «دياع متجول!» لوح بالعواتم الذهبية في يديه وقال «أظنك تقرب للمعلم شينويلي!» قلت «لدينا وأسكن عده» صاح رعدا عنه «حلو!» ثم عزم على سيجاره بلمصوت، فقبلتها «كتر حديرك» فقال وهو يشعل لي بولاغة بوتاچار شمعة «عدي طلب بسيط؛ يو تصدته لك عشرة جنيهات» قلت «رقبتي سبادة» قال «ساعطيك شيئا توصله إلى مكان قريب». ففهمت في الحال، وقلت بحرفه «عشرة جنيهات على الأقة لقصدي» فتبسم في صدر وحيث، ثم قال «على النقلة كلها» قلت «يفتح اله إذا كان على الأقة الواحدة أهلا وسهلا» فشح حنكه وقال دون مواربة «شف يابو العم» ست جنيهات فقط على الأقة» موافق؟» قلت «موافق» قال «قم معي». فقصت معه، فبدأ هو يركب درسيديس الركنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تطلق بنا كالخروس لتجولة ما صدقت أن تملك الطريق السريع حتى بلغت جناحيها وطارت، حصر في بلدته بعد دقائق في الطريق احتفري. ورومي بكثير من النصائح الثمينة نبهني إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسي لبدأ هو ياخايل يكتشف أمي من أصمغ حلق اله، أصمغ منه ومن الصياط والمبرين والكسارية.

كانت أباهم فلأبوى أنقل كل يوم نقله وربما حمس أقات
بعشرين كسب ميطاط، أشتري لها جمعه من ورق الأسمنت وأعطى
البصاعة نهلاهيل قديمة وهي القطار أسددا على رء ولقف بعيد
عنها بمقار طول العربة، يكون يبيى وبينها باب، وأصب عيني
عليها جلسة كالم وقف القطار على محطة حتى إذا جاءت محطة
السيدة ريبب تلقت الجمعية بسرعه وقفرت ههبطا لأدوب فى سفل
البرلين مسست، إلى الحوارى الهابية فى لمح البصر ككص ملح
دوب الرجب المقصود دائما فى انظارى على ناصية أو منهى أو
فى مكان صغير سبفالة لتعطارة للحياة لأى شيء قبص العرق
يتم قبل العمل، يدفعه لمول على دابر ملهم لكى يكسف شيطان
الهرب الروسوس، ولكن متلقى البصاعة ينشك لحظة وهوئها
بسلام وإن توترت أعصابه وتغير مظهره، هيمرمى بما عيه
نصيب، وأحياء هرت باللين لشوب شهوة هافوت، وأشرب هرق
القهوة ما يتؤل العمل من حشيشة المعلم للصومنة وأقل راجعا
إلى الدار بوهنة من فلوس وحشيش وأفيو وويرشام

الحالة تبحجت وبانت آخر مظاكة، وأسمعت أرمى منكموام
الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها فى أى مكان بجوار الصرير،
وصرت أدهع لعملم شندوبلى هرق الإيجار إيجارات وفوق القسط
أقسد حتى فاص الحساب عن لغات ذاكسى فصار شيئا كبيرا
كبير، نصيبى الدوار حتى أشرع فى حسبه فى حمفه فوق ذلك
صرت أبعث لهليل بالحوالات ثلو الحوالات، ولأى كلك، ولأفانوس

مع ذلك لا تمتد ولا تتحصى أكواصها من فوق ذلك المسمى
بالكومديو المجاور لراسى ولم يكن الشمس يستمرق منى سوى
أربع أو خمس ساعات، وبقه النهار مفتوحة، واللبل كله تحت
الركاب وقد تعلمت أكل الكماط والكفتة مثل الأكابر، والجيمبرى
والكابوريا مثل أولاد الناس كما تعلمت الدوم فى القفالة للسهل
طول اللبل فى مارات وسط البلد وحى العنتة وعرى الدرب الأحمر
والسيدة ريبب

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلياب
الكشمير والمركوب الأهل وأتلف بلاسة حريزية سمينة اللون،
أصع رجلا على رجل، وأمامى هجان الشهوة كالناس الأكابر لا
يقصم سوى الجربان والعصا أم عوجاته والمشية حين جلس
يجوارى رجل يرتدى جلبابا فوقه بالطر قديم كالحج، وله شوارب
متدللة عرمت فى الحال أنه مهير سرى فى الشرطة، فرجف
قلبي صرت أنفسى فى وجهه على أعرف مر هه العشم الكبير
الذى جعله يملس بجوارى أما بالنات من غير سلام أو كلام كان
هو الآخر يتفرس فى عيني ويقارضى فأعتقد منه، مع ذلك قلت
له باسم: «أهلا وسهلا» قال: «حسن ولد أبو ضب» قلت
متحمسا: «هذالك ومحموك تشرب إيه»، وهفقت فى الحال
مناويا الحرسون، الذى جاء بهرون عقلت له: «هات قهوة هه»
قلت كما يقولها الحاج وهذان بالصبط لأنه هو الآخر يقونها كما
الكوات الكثر وهما صحك الرجل مصحك، أما الآخر، وأسرع

فكنت «أملا وسهلا يابو العم» عدم المؤازجة، العتب على النظر،
وقرت غلبة سعادتي اليلوموت منه! انتزع ممها واحدة بحركة
سرعة، وعيمه تبصيص للعلبة ولحركة يدي أينما اتجهت وحين
أشعلت له السجادة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه منجان
انقهوة عانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضى، ثم جيب
من السجادة بعض يلعب من ورائه حيث شديد في عيبه وبمثر
الدخان محوى قائلا «عدم المؤازجة يابو علي» عدى لك
بصبيحة، قلت في نفسي «يافتاح ياغليم» وأردف هو «هنا
كلمتان كفاك هذا» دبت الرعشة في ساقي «ما فصدك يابو
العم؟ ومن تكون هضرتك؟» أخرج من جيب صديده كارييه
فديما كالحا قربه محوى في حركة مدرية وهو يقول «سيد
الشفقوري! مسير سري» فأشحت عن الكارييه وعه «أعاد
الكارييه إلى جيبه وهو يقول في لهجة انتصار «أنت تشتغل مع
الصاج وهذا يتاع مركز الصنف» وأما عارف كل حاجة تركت
أأكل عيشا وليس بقلارة! واليوم وأنتك فرأيت أن أقدم لك واجبا
نوجه الله الجور هذه «ألايام مطلوب» ومضيتك الوقوع في الفخ».

شفت ربي ياهاال! همرت أبل شفتي بلساني كي أقرر على
الكلام. قلت «أنت تشكر علي كل حال يا معلم سند يارجل يا ليمير»
ولكن أنا مالي أي دعوة مالمشغل؟ ربما تكون رأييتي معه أو بعده
والحقيقة أنني أعرفه من معلمي المعلم شموليلي! أما أنا فتاجر
فأكهة سمسار! ولست أعرف للحاج وهذا شقة غير هذه أبصا!

فإن كنت تقصد أنه محالف القابون في البيع والتسعيه ما، لا
دعب لي! وكانت عيبه الشبيبة بعين النحان قد «غسرت في
عيني وصارت تشرخ ميمها بيمارد من حديد مشغل» فما كنت
أنهر كلامي حتى شطت أحر شفلة من القفان ثم وقف حابط
يديه في ركبتيه علامة التأياس مني ومضى قفاه يستعد حتى
أحتقي.

بيبي وبببك لعب الفار في عبي. وكنت أتمنى لو أنني عديته
في جيبه بجيبه أحضر! إن لا يعني لي شكرا وتركي في حالي
مكتما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون علي بصاج وهذا
كالحدم الأدلاء لكنني خفت أن أفسد مثله حتى لا أثبت التهمة على
نفسي أنقبض قلبي وحط «علي» نكد تقين! فحسبت التهجوي
ومضيت إلى الدار وقد خيل لي أن النسيبة بدأت ثقلب لي وجهها
من جديد! وأني يجب أن أتوقع أيام محوس جديدة لست أقدر
علي دفعها إلا بالاشعاع عن حظ الصنف كله! وبكر كيف يابوي؟

فلأعد للولاد ثانية لمشغل في التفطيع بيلا كيف بهوي. هكذا
فالت نفسي لنفسي وفي السرير تمدد الشيطان مجوارى يقمعي
أن «سند الشفقوري» يسعى لورقة الجنيه وأن أمره بسيط ويمكن
أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهذا ليصرفه عسى وهكذا استطعت
أن أغمض عيني قرب اللقير

في الصباح طلست وجهي محفنة ماء وبرت من فوري
متوجهة إلى بلدة «الودي» لقايله الحاج وهذا وجنته بجلس في

حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه نازح منفصلة عن البلدة، تحتفى وسط جينة كبيرة وارة الأشجار ولما بحصى الكلاب طلع من يهشبه ويدخلى ولحظة دحولى كبار الحاج وهذان يفرجهم على بضاعة جديدة يحاول فتح صفيحة كبيرة كصفائح السم. فلما جمع السبك والشاكوش فى هك شمعها رفع عطاءه الكبير، فاندفعت رائحة الحشيش راعقة مكتسحه مبهجة ومد يده فاعترف بكفه حفنة صغيرة من بورد صفراء عرضها على الأعلى امشرية، ثم أطلق كفه عليها فامجنت وفك عنها قبضته. فإذا فى كرة من الصلصال كالبيضة سحب سيجرة من طبة أمامه، غصها فى الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها وجذب منها دسما عسيفا مررها عليها. ثم تابعها بواحدة ثانية فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا بهن جميعا قد اجمعت عيوبنا وأحطت الدنيا فى مضاربنا، وصرنا مضطك على الفاضية والمليانة

صلى الحاج وهذان فجاءت أمه الحاجة «أمه» لتأخذ الصفيحة فى دحنتها جاءت عيسى فى عيها مباشرة فإذا هى تعمز منها قاتلة فى تعبير دلجة خطيرة وهى تشير إلى «الولد ده ما يشيل بضاعة اليوم» وحملت الصفيحة ومضت كقاتة صغيرة كل النظرات راحت تنصب على هى تشكك ماسم. فمضت ألعف ستائة يمين أبى طييمى ما انسلطت بعد، كما اتنى لست بالدى ينقلب من سيجارة واحدة حتى لو كانت معشوة بالمارود وبطر لى الحاج وهذان نظرة تحديق أخيرة وقال: «بنت حر على كل حال»

بمك على حيك» قصصت صدرى بقصصتى قائلا «أنا تمام يامعلم» ما يهك شيء» فأشاح عني كأنه استشف عدم قدرتى اليوم بالفعل وقال مستدركا «على كل حال يكفيك اليوم آفة واحدة» إن صاحت فأمرها سهل» قلت فى شيء من الإنكسار «اللى تشوف يامعلم» وبعد أن تقديت فطيرا مثلثنا معمسا بالعسل المحل والجبن القديم وشربت شيا، وبمضى الحاج وهذان عسابة امبورى وكبت بالفعل أشعر أن الدب ليست هى الدنيا، إذ كل شيء قد زهره فى عيى لجة وأكنسى لونا جصبيلا ومبارت كل ملامح الناس باعثة على حواجر انضمت. تحلف اليمين بابوى كأننى مخلوق لتوى عيز أن رأسى يتشائل على ريهادنى، يكاد يوقعى، حتى لقد صارت أميى الوحيدة فى الحياة أن أرقد على ظهري واسلخ عن الوجود وأميش وهدي هذه اللذة الكبيرة. إلا أن الأفىوة بنت الكلب سرها باتح يابوى، ما كدت أطررها فى فمى مشغطة شأى تشيل حتى أحدثت دعوى فى الحال، وصار بإمكانى أن أبهض فى خطب للبضاعة والاتكال على الله.

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهذان قد لمح الرجل فى عيسى على نفسى رزقى اليوم بتعفيض المشال إلى آفة واحدة فإذا به بعد أن سلمنى الآفة يخرج من سيالته أربعة أكياس بضعها لى قائلا «هالك لفة أخرى» جل بالك من مصك» فمضت الأكياس فى دكة اللهاى وكسرت عليها الحرام ومصيت وأب أقور. يسائل الستر أحنى الصوف تصدر بين قدمى وبعت طائره السريع إلى دمعى

فذكرني سيد الشفتوري وما حصل منه على مقياس الكلوب المصري. استجيت بالحاج جانبا وعميت له بما حصل بالأمس. فوجئت يابري مانه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سماعة نراعي قائلا هي بساعة ولا يهكم منه، إنه كلب لا هما ولا هناك، لو كلمك ثابية استغنى عن غيبة سجانر تسد بها حلقه، وعلى كل حال أنت مجسمي هذا في حدود مركز الصف، إذا لا قدر الله قلت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك مخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة وتفرج النهضة من الباب الآخر بعد ساعتين، أما خارج حدود المركز فأجعل هينيك في وسط رأسك إذا أنت مسئول عن نفسك، فقلت، «تشكر يا حاج»، وانتكلت على الله ثابت الوطء.

قرب محطة حلوان سمعت صوتنا مأكوفا ينادي، تكفت مدعورا أبحت عنه، فإذا هو عم رعتير بائع الشيشابب الرموية والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا في شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا وكنا يحمل على ظهره جوالا ملأنا بالشيشابب والأحذية. أهلا عم رعتير وبشينا معا حتى المحلة، فقلت له «هناك» دمتي أشيل بدلا منك، أدرك الجوال قائلا «لا» بس ممكن تخلي يالك منه لحد ما اشترى طلب من الأجرانة، قلت «اشترى لك» أنا قال «لا» أريد أن أفك فلوسا كبيرة، ثم مضى.

وقعت بجوار الجوال أتلفت حوالى، والحاطر الوافد يكبر في دماعي يا حال. قلت ملاحرب مانحنيت على الحوال، ومرت الأكبس وسربتني إلى الجوال في قلب الأحذية عم رعتير نظره

ضعيف، ويمكن أن استمقله عند الدبول. ساعدته في حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضي قائلا إني سأشترى سجانر وأخصمه، فقال إنه سيقطع لي تذكرة جعلت أتلكا حور أكشاك السجانر على باب المحلة مصطفا أسى مشافول بشيء سأشتره. وحقيقة الأمر أسى كنت شاعرا بالحرية بعد أن تحلصت من السجن في جوال عم رعتير أيقظني صغير الطار من سرهتي ييممت بحر دكان اشتريت منه بقع قطع من الصابون صورتها في مبدل محلاوى ووليت إلى باب المحلة ويالتهول ما رأيت يا حال سيد الشفتوري المصير السري واقف على باب الرصيف وحوله رط من أهل مهنت وثلاثة الفدية محترمون سمحو الوجوه قلت بس رعت في ناحية وصرت ألام ركبي تحت الجلباب. في حس الحظ أن أعطينهم ففأى بسرعة قبل أن يروني، وصرت أتحكك في طابور التناكر ممسكا بورقة الشل حتى وصلت إلى عم رعتير قرب الشباك، فملت عليه وهيمت في أدنه بسرصة أن لا يكلمني ولا يعرفني الآن لأن المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرني عم رعتير سلمى التذكرة ومضى بعيدا، فظننت واقفا ليرمة حتى رأيته قد عبر البوابة ودخل إلى الرصيف، ثم اغيمت زنى آخر الطابور ما كنت أصل إلى الصنجر الحديدى حتى تهس وجه الضابط وانفجرت أساريرو وصاح قائلا أهلا أهلا أهلا، إرك يا حسن ممباك حاجة يا حسن، طلع إلنى ممباك طلع، فوجعت قلت «ما ممي أى شيء يا سعادة الحية» لا أفهم أى شيء، تقصده، فنظر الضابط إلى سيد الشفتوري، فانسرى يعتمشي نقنيش فاسيا

ومهييا للكرامة بإحبال. وفي الآخر شوح للصابط قى مرارة وحسنة
 أم قاتلا دما معه شيء ناسعادة البية قاشاح الضابط وشوح
 علامة أن يفحه متى قيركنى وفعلا تركنى بإحبال. همضيت أجرو
 ساقى محو القطار المنزرو. ورميت بنقسي على سلم أول عربة.
 متشبثا بحديدة الباب. صعدت. جعلت أمضي من عربة إلى أخرى
 بهت عن عم وعتر. الذي وجدته فى العربة الثالثة واقفا مجوار
 الباب مسندا الجوال فيما بين ساقبيه وصعد الباب لم يري
 بالذنب. فجاورته إلى آخر العربة عند بابها الأخير بعد برهة
 قصيرة رأيتهم مقبلين بإحبال سيد وحكومته مقلت لا يد أهم
 يتتبعونى ويصرون على الإمساك بى حثيسا. فسابت ركبى.
 وجعلت أدفن نفسى فى ركن الباب وظهر الكرسي ولكن عيى
 تنلصصى عليهم.

المسبية بأخبال أهم ركبوا وسط الرحام وبلوا واقفين فى
 أماكنهم حول عم وعتر فجاءنى صوت يشبه صوت أبى يقول.
 انزل فى المحطة القادمة! انزل فى المحطة القادمة! إنزل فى المحطة
 القادمة .. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأما لا أفيق من شرودى
 إلا والقطار يهرى لحظة استئنافه السير. حقيقة الأمر يابوى أن
 البضاعة التى دلفتها فى جوال عم وعتر صعبة على ولادى
 من استردادها بأى شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت
 فى فتحة الباب واقفا فى اطمئنان فى آخر عربة. وهكذا ففرت على
 آخر الرصيف مداربا نفسى فى رحام السائرين. وجعلت أنسقط
 عم وعتر فلما راقى الرحام رأيتهم واقفا على الرصيف. وسيد

الشتورى يساعده على حمل جواله. فعما صارت أبواب القطار
 معلق ببطء والعربات توحف فوق الرصيف. أعطينها ظهرى.
 ووليت نحو السلم. ثم أحدث أهول شيئا فشيئا حتى سقطت بعم
 رعتر. هقلت له عتك! وحملت الجوال ومصيت بجواره مفكر فى
 طريقة استردادها منها مصاعنى دون أن ينط هو أنى كنت أصعب به
 السج فى جواله. إنه لحسن الحظ بعرف أسى شريب للحشيش.
 قابلنى عشرات المرات فى عرر مصر عتيقة والفسطاط وأثر
 المبي. فهو الآخر حشاش بريمو ونو عششت فى أى لحظة فلا بد
 أن تجد معه حشيشا لشربه. ومن أعلى نوع أما نفسى كثيرا ما
 أرضى بشرب حشيش كالجنة تشبها مع الظروف والأحوال. أم
 هو فإن لم يتوفر له الزيت أو التيجو ذو الشمس المرتفع لونه يطل
 الشرب حتى تتيسر الأحوال. لكنه دائما أبدا يشيل فى لفائف
 عصامته المصراوية أكثر من قطعة جهته من باب الله فركها إلى
 أن يهديها لصاحب نصيدها.

وجدتني أقول له «معك حمران ياعم وعتر» قال بشهامة
 «مى لكى لى يعجبك» قلت فى معنى السعادة. «أب أب نعمى
 أعلى حشيش بريمو» همرك ما شربته» وكبان إلى توقف وروح
 يظفر لى فى اندهاش راحها حاجنه. ماردت «إذهب فاشتر لنا
 ورقشيس مسفل قص!» وسوف أعشيت لهما وفرأها مشوية» فاب
 لكاهل بك اليوم» ترد عم وعتر قليلا «وكى» بدى استريع
 طيئا بعد مشوار اليوم» بعفته بيدي قاتلا بإعراء «استرح عدى
 لو ماتت» الرجل لم يكذب حذرا. تركنى وأطلق يهرون نحو دكن

عن الرصيف المقابل. أما أما قانونيوت بجوار سور حديقة
لمستشفى وأملت الجوال وانترعت منه بصاعتي فحشرتها في
ثيابي كما كانت ووقلت أنتظر عم زعتر وفيما كان مقبلا من
معيد يتلوح مع الريح مصكبا بساكو النخاعي الممسل. تذكرت أن
ورائي موعدا صروريا مع رعترا آخر هو وعتر أبو كرش تاجر
الحشيش في حي نابطة الببوية. وقلت ما من المشوار من يدا
فالبضاعة لأهد أن تبث في بيت صاحبيها.

اللة وكيل يابري، وهو مضي على الدوام، إلا وعربة الاجرة
قادمة ثقاف أمامي لتعول معها راكية عجور، فنهفت بالسائق قائلا
«الببوية يا سطي؟» قال في ثافت «اركب» وكنى عم رعترا قد
اقترب، فصحت به وأنا أفتح الباب «اركب يا عم رعترا»، ثم قدمت
بالجوال. قال رعترا في دفعة كبيرة «على غيس يا جدد»، قلت
«اركب بس»، ودفعته رفقى. فركب كالاهل في الرمة.

ولما على باب الحارة بالصبيط، فانزلت الجوال وحاسيت
السائق وأدفعته أهزول في الحارة وهو صريح لنبوية. حيث
كان التاجر الكبير - وهو بعد في ريعان الشباب - ينتظرني أمام
عمارتيه الكبيرتين للجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رأسي حتى تهلل وجهه الأحمر المستدير الموردة. وفرد
صدره متفمسا تحت القميص الأبيض المستورد المتسق على
جسمه. سلم على في حذر، وعيناه تمسحان المكان من كل ناحية،
ثم إنه تقدمني داخل الجارج في بدوم مصمم الممارتين، حيث

توجد حجرة محفوية في الداخل، متعها وأشار لي أن أصرع
البضاعة، فآقرعتها على كرسي، ولما أطمأن إلى عتدها أمسك
بعض الأكياس وفتقها وغرر أسنانه في الحشيش ثم انتزع بظفره
قطعة ولبس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتبي إيديال في ركن
الحجرة. ولما دبلاطة بهمهم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض
ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق، دلق الأكياس فيها وبرك
البلاطة تهوى إلى وحسها من جديده وأزاح المكتب فوقها. وحين
استدار وفوجيء بي امرعج وكاد يفتح كرشي يسكين، لكنه منع
أهضامة وحيط جبهته بكفه في مرج وتقدمني حتى باب الجارج
الطل على الشارع صفق بيديه، فنهض البواب يجرى. أمره أن
يجيء بالكراسي ويشعل النار ويغير ماء الجورة ففعل البواب
كل ذلك فيما لا يريد من خمس دقائق، كل ذلك وهم رعترا واقف
ينتظر على باب صريح الببوية. وجاء رعترا أبو كرش وغمس في
أمني قائلا «الراجل اللي هناك ده مسكالك»، قلت «نعم»، إنه
صديقي وقد ملعني وجوده؛ وهو لا يعرف أي شيء عن أي
شيء، فهو رأسه وبعت البواب يتأدي فيما جاء فقال له رعترا أبو
كرش إسمي لبياته وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمي

جلس البواب أماما على الأرض يدهن الصجدة. ورعترا أبو
كرش يوقعها بالحشيش الدرمو، مات ولد لطيف المظهر، فباده
رعترا وأمره أن يسوي لنا ثلاثة كيلو كباب صافى كانت عصمة
لا تسمى يا حال، جنيرة نان تكون احتفالا بآخر نقلة أهلها في
هياتي

انصرفت وراءه بدافع حمى نور مقاومة، لكنه توقف ناظرا في عيني برامحان كأنه يتعرف على شخص جديد عمره ما رآه من قبل فنكرته ثابت ليميق، فإذا هو يرسم على وجهه تعبير من لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيته الجديدة. ويقول «سيرك يا عم» شقة سقيم» قلت واليسمة ترتعش علي شفقي، من التشاوم أم من الراحة لأنه عرف لا أدري. «أيش عركك يا أبو العم» «متراجع منقه وفي عينييه نظرة حبيبة ساكرة ورام. «أى. «ى. «ى» «ورث من آدمي أصداء عبادة «على أنا الكلام ده» ثم إنه سهرني من جديد قائلا «تعال فرجى» انصرفت وراءه قائلا لنفسى لعلها فرصة للكلام في الموضوع وسيفتح الباب

بسم الله الرحمن الرحيم هكذا يسلم وهو يذئذ داخلًا، مشمرا ذراعيه كأنه سيدبح حروفا، تقدم بهو الكرسي التي تم تنجيدها وفرشها ودمعها تقول أنا طالعة بشوكي من عند البياح صاح بلهجة معطوطة ذات معنى حبيث «ما شاء الله» ما شاء الله»، ثم جلس وفي عينييه بريق يكاد يسطق قائلا «عاوريين حقاقتا» حلالة هذه السيدة السقع» لكنه لم يقل هذا، بل قال «يا ابن الكا» السق» ثم أردف قائلا كأنه يعرف كل شيء عن الموضوع «دعفت فيهدكم» قلت «بالبركة» صاحبها أصله قريبي» وقد تسامل معي «ظهر عليه أنه غير مصدق يابوي، قال «المعلم شدويلى يبيع أباه لقاء قرش تعريقه» فيكم باعها لك» قلت «بالصلاة على النبي» هو يبيع أباه أى نعم» لكنه لا يبيعنى» أنا

واثق» هو رأسه ويدبه فى حبرة «لا تفكر على مما قصدت سوى مصلحتك» صدقتى» لا تغمر فى البدايات والكلام الصعبدى الماضى بتاعكم» المعلم الشدويلى هنا شفص آخر»

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكننى مع ذلك بقيت مححوظا يابوي إنه ولد عفريت يابوي، ومثلى لا يروح ولا يجيى معه، قلت بلهجة عائمة «يجور» «يجور» ظهر يحال كأنه اشغل فى موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال محوى فدميت منه بخثرة إشفاق أحسست بصدقهها يحال، ليرة خاطفة يابوي بوقت عيى بسبوسة وطلع منها أملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال كاب يستمر أبه فى هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أدب الجيران «كتب لك عقدا» «ترددت برهة قصيرة ووجدتني أقول «الكذب حيلة» بصراحة لم يكتب بي عقدا» «نوح بيديه كائنسوان مولولا «نأخذ منه إيصالا بإيجاز كل شهر»، قلت «ماحصل» فإذا به يسحب شمعة رمانة فاجرة لرمسى صوتها والله يابوي، ثم جعل يأتى بهركة قبيصة فى الهواء المتناهم لأمضى قائلا فى حقد «حد دى» تفعل نفسك مفتحا ويرمحبيا وأنت أعلب من القلب» ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته محوى واعتدل نامتا الذمالي فى بده مائقة وقال.

- «شف يابقف» هذه العمارة لها قصة زبها فى الأصل موضوعة تحت الحراسة» صاحبها رجل سجيء الحظ بعك سمعت به وباعره الحاج إيمان زلمة» أشهر ورش ومخالب لأحدية فى

العناية المصراة ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل بنّا، عمك إسماعيل رليطة كان متمسقا في الفن وأمله قاشترى قطعة أرض في الدراسة وابنتي فوقها دار سيما تعرض أفلام الدرجة الأولى وعشق راقصة فائمة كالقمر كالرعيف اللدى الصايح وامتنى هذه العمارة التي مهن فيها الآن على ميل مصر عتيقة ليعلل الراقصة شقة فيها بالبحار تكون جرسوميرة خاصة به! يكفكك الله شر النفس إذا احتال على رجل سعيد الحظ من الأساس أوسخ نفس في الدنيا هو الذي يجيء لرجل سعيد الحظ من يرمه صاحبا هجر أولاده القدامى وأقام بها في شقة الراقصة أولاده ثاروا ضددهم كتموا في مفروشم الراقصة فرحت به لكنها - به - صاقت! إذ هي تريد أن تعيش على حريتها من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقا صايح كبير وض يفتمل السفر له ولها ديلتقي بها مفردين في أماكن بعيدة من الكرة الأرضية في عابات أفريقيا وجبال سويسرا ولبان وفي النهاية جاء وأقدم في شقتها! في ليلة جاء صاحبها ومد المفتاح في ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عنية كحقت وكسمته وأبست قميص الأكتاف! سيق إلى مستشفى المحاربين لا من شاف ولا من درى! ندهل أولاده وما أمافوا من بعدها حتى اليوم ومعظم النمل أنهم لن يلقوا! فكلمها هذات الدوحة جاءتهم صنمة أخرى من حيث لا يتوقعون فأنعم عقلمهم فوجيء السالكين - ويللعجب أن المستشفى مدر لهم أورافا بإمصاصهم تحار بالشكرى من حنون أبيهم" ملف كبير من الأوراق يحكى قصته

وقصتهم معا من ططلق لسلامو عليكم كل ورقة أنقح من أحتها هب! فوجشوا أن أموال أبيهم موضوعة كلها بحب الحراسة وقد تحب هذا الصايح نفسه حارسا عنها الحاج رليطة رحمه الله فعات في المستشفى وحل محله - في نفس الحجرة في المستشفى انه الاكبر الذي كان ربة الرجال ومند سمين طوية وهو مقيم فيها لا أمل في شعائته وأما الابن الثاني فقد شم رائحة الاعتقال في البلاد فصعى كل علاقاته واتكل على الله هربا إلى بلاد بره وكان للرجل ابن ثالث غاية في الصلاح فحبسوا عليه ضمن الإحراق المسلمين فسنجنوه وعذبوه حتى مات وقال صبيح السجن إنه كان مريضا بالقلب!

هلم يبق من نرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كما من صبيان أبيهما في الورشة لا تفتح فك هكذا كالصبيط فمسلل الدهول لم يفتن بعد! لقد أبررت الراقصة عقد رواج شرعى مسجل وعليه شهود موثق منهم ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود.

كذلك يهن على أن الحاج إسماعيل رليطة قد بامها هذه العمارة في تاريخ معاصر لعقد الرواج وظل محاميا يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها اسمسار بدملم شندويلي الذي لم يستغرق من عيوبها السهرة سوى نظريتين ومن جسمها اللهم سوى هرتين وحكتين عصويتين! فندب كاترطل واشندوى العمارة بدملم كبير دمه على دابر ملهم وكس

الصابط قد غصبت عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من
تعليمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد بره" وبعدما يشهور
«بوية» عثروا عليه مقتولا في شقة في بيروت مدبوحا ببيع اللعاج
وبجور جثته مليون جنيه إسترليني" وأما «الراقصة» فقد احتضت
من الوجود تمام" وقيل إنها بيعت كجارية للموتير مسعودي له
علاقات واسعة النطاق بجهاب دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة"
لهد هنا زين؟

«يرجع مرجع للمعلم شمدويلي» لقد ذهب يسجل عقد بيع
العصارة في الشهر العقاري فخرجي باب العصارة لم ترفع عنها
الحراسة تماما كما هو الحال أن المحكمة صرحت للمدعية
بتحصيل إجراءات شطب العصارة كمصدر تترق منه من تاريخ
رفع الدعوى إلى أن يبت في مسألة رفع الحراسة كلية هي أملاك
«مروم» الراقصة «ياها» ربما يغطيها المصحة - باعت شقتها
للماشطة التي كانت تشغل بعدها وهي الأخرى واقصة قديعة
ولكن في شارع الهرم وهي الأخرى - أيضا - رفيقة صابط آخر
لكنه أصغر بكثير جدا - في كل شيء - من سابقه ليس فيه
نساء إنما يحب الوظائف الصغيرة يلهو بها حتى يستريح
لوقتائق ويصبح آخر في وهي معروف هذا وصلا الشقة منه
وعلى حسه تقيم في الشقة أردغانة لا أنت ولا أنا ولا أحص
جميعها هنا فقد على متع عنه مكثمة إن الخوف كل الخوف دائما
بأنني من صغار الضباط يمكن المعلم شمدويلي بسلامته أراد أن

يأخذ حقيقته خلفا فكر أن يمويه - على الآن - من القيمة بحصة
بصرار طمع في هذه الأرستقراطية قصاصه نال أن الشقة
مقحوة على البحري لكل من وب وب وربما كان يستطيع أن
يلهي القشقة كلها باعتباره صاحب العمارة لكنه أحصا في «ندوة
الحشة الغلظة» جادها في باب التهديد فقال جوزاءه! انصرف علة
ساحنه نحس فيها تراب هذا السهم درجة درجة وكان سيضرب
في كل يوم علة متلما لو لم يأخذها من قصيره ويرحل نازكا
العصارة بمن فيها! لكنه قبل أن يرحل بعث بتهديدات في السر
خاتبة من قبل أنه سيهرب بيئهم جميعا وسيقتلهم عمر كل من
اعتدى عليه! وما هوذا يريد أن يهلك في هذه الوحدة يا صديقي
يا قاصد! اسمع كلامي يا صاحبي لو كنت جئت إلى هذه الشقة
قاصدا كذا أو كذا لوليك على شونة! وإن تحمض إلا نفسك!
ويكون المعلم شمدويلي قد ذهب مالك وحياتك ما بك دفعت أموالك
التي شقيت بها في النار وما بك حسرت الجند والسقط وطلعت
من العملية كلها لمصروطي! صدقني لولا العيش والمخ الذي يديما
ما صرحت لك بشيء من هذا الكلام!"

الدينا لعت في يابوي، تحلف اليمس نو أني رأيت المعلم
شمدويلي لحظتها لمرقت لعمه ورميته للكلاب المعلم شمدويلي
يفعل في هكذا! كيف يابوي! إنني أشعر الآن بصديق سيئوسه.
فليس من المصقول أن المعلم شمدويلي يتنار لي عن شقة كده
بهذه السهولة

حدعسى إلس يابوى، حور لى الحكاية على أنها مجرد مصايقة
نضعه يسوار وصربهم علقه أو علقننن أما أن تكون المسألة كما
أوضح لى سبوسة قزى لا أستطيع للدخول فى حرب مع الدولة
يابوى

ويظهر أن سبوسة رأى العصب مضرما فى وجهى وعروقى،
فجعل يهدى من روعى قائلا

- «أعيا يا صاحبى فالأمر محتاج لبعض الحكمة» فأولاً، أهدر
أن يعرف اعلم شيدويلي أنك عرفت أى شيء مما قلته لك الآن،
كن هيبك كما أنت وعلى بهاتك!»

قلت فى غضب «وماذا يفيد الهدوء؟» قال فى بسمة ساحرة
«ألم يفكك اعلم شيدويلي أى ورقة؟» قلت «لا» قال «إلى
لهذه فى مهمتنا علينا أن نأخذ منه ولو إبطال ما يجار أهر
شهر» قلت «إيه لى يكتب لى أى ورقة» بكل صراحة يابسوسة،
إلا إذا علمت له شفا فى العنصرة وعاركت ماسا وعورثهم» لعنت
فى عيني براكي محببة، سرعان ما انفجرت فى ضحكة عالية لا
أعرف لى كانت سخرية أم عطف على محسوك، ثم قال «لأم أقل
نك؟» عيب يا جرد أما سسوسة والأجر على الله»، ثم رمى لى
سبيجارة وأشهر لنفسه واحدة «ساسادك وأكل من بيتنا» حتى
لا تستدل معنى بعد الآن» وعلى كل حال الذى عندك أحسن من
الذى عند شيدويلي؛ على الأقل أنت يمكن أن تفقدك أو تفقد
شقتك فى طلب جليله »

ثم انتظر برهة علقا عبته فى عيسى كأنه ينتظر موافقتى على
هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف

- «سوف أذهب من ورائك إلى المعلم شيدويلي وأحيره أنك
علمت مصيبة سوباء فى الشقة وأنت عورت وبطحت وذهبت إلى
قسم الشرطة مقبوضا عليك وبعد ما تأم تأم أنت إليه ميهلا
مخربشا وتكلمه فى أمر الورقة»»

قلت «والله رجل يابسوسة» ولكن هل الورقة التى تقول
عليها تكفى؟»

قال صاحكا «ستثبت أنه أجر لك الشقة» وأنت بحكم وضع
اليد نطل مالكا للشقة لعين البيت فيها» وسواء لك ملكيتها
لشيدويلي أو عادت لوريثها المقيم الآن فى بلاد بره فإن أهدا لى
يستطيع طردك منها» وعلى فكرة، جيرانك هؤلاء هم الأبي لك
وذا تعيش معهم وتعاشرهم ستبهم ويهوك مصيرك ترق»

ثم غمرنى سبيجارة فمرة فهمت منها أنها مشوشة بالعشيش
وأردف ضاحكا فى مرج كحير «لكن قل لى» أكنث تنصوورك أنك
لعللا تستطيع الانتقام له من يسميهين باللوامس؟»

ضحكت رغما عى، تحلف اليمين يابوى أسى سمعت فى
ضحكتى صوت ضاكتى، وقالت «أما ضحكت عليه طيما حتى أهد
الشقة» فقال برة لم أسترخ لها» «مالك من رجل طيب» ثم
هذب نفسا عميقا من السبيجارة، واحتفى مريق عسه لبرهة طوية

في سحب من ضباب الدخان الأزرق المتدقيق من محجبه، وقال
«تدفع كم لو أأنا حصصت لك هذه الشقة تحلصا بها» لو جئت
لك بمقد إيجار وإيصال بأخر شهر، ولتصرف النظر عن المبلغ
الذي دفعته له من قبل، ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ
كتابة».

فبحث في مدهولا «تقدر يا يسوس» قال بكل بساطة
«هذه بمبتي» تدفع كم قلت بيت؟ أنا شخصيا من مصلحتي أن
تكون أمت بالبنات ساكن هذه الشقة» عكزت لبرهة طويلة فلم أعتد
إلى تقدير المبلغ الذي يدفع، فقلت له «رقتي لك يا يسوس» تريد
كم؟ قال «يكفي خمسمائة فقط» في مقابلها أسلمك عقد إيجار
قانوني سليم لا تحرم منه لئلا «وإيصال بأخر شهر» قلت في
الحال. «والله ما أدرك عن كلامك يا يسوس» حلال عليك». قال
وهو يناولي سيجارة أخرى مضوية ثم يشعلها لي «عليك إن
أنت تفتني من هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل» تعود
بعدها مبهذلا فتجدي قد جعلت لك الأمور السهلة» قلت وأما أعيدي
له السيجارة «من غد أطلق شقتي وأحتفي شهرا شهرين لو
أحببت» سمى السيجارة وهو يمهض قائلا «اتفقا» والأمر
سأخلص منك رغم عني عورائي سهرة عند صاحب لي ما
سوف أعزفك عليهم في وقت قريب» ولكني في كفتي واتجه
إلى الباب فأتجهت وراءه وخرجت. فبرلت أنا واستدار هو نحو
الشقة انقابة لشقتي، والتي لم أكن حتى الآن قد احتكتك بأحد
من زوارها

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما هكزت طويلا يابوي، تراهي في أن مكانا وحيدا هو الذي
ينكر أن يحصيني عن الأنظار وفي نفس الوقت يمكن أن أرقق
منه ذلك هو منطقة عرب الحصار وقلت لنفسى إن الحاج وهذا
فيه البركة. وأما خدمته بكل أمانة. ولم يحص من جهتي أى شيء
يجلب الشك في قل إني أعددت بعضى واتكلت على الله على يدة
الودى ومنها إلى جمع صغير قائم في قلب الصحراء

مجموعة من الدور تجمعها دار واحدة على مساحة كبيرة
تساوي عشرة أفدنة أو أكثر يابوي دار ينف حولها المرء راكبا
جوانك لها باب واحد كبير ببوابة حديدية مثبتة في حجرة كبيرة
مرصعة فيها مصاطب وكث بدوى مجد ولقد يرض المرء جالس في
هذه الصحرة رمسا طويلا وهو يظن أن هذه هي الدار، لكنه حين
يالقها سيجين له باب جانبي في نهاية الجدار إن دخله وجد نفسه
في حجرة أخرى لها باب مغلق على هيئة ممر بين جدارين
متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار في الجدار لو مشى في هذا
الممر فسعد مشى طويل يبدأ الرهق بعتقه حرم من صيق القصر
الذي ينتظروا في المهابة ولو أن أحدا وجهك مقبلا في هذا الممر

فلا بد أن يستدير أحدهما عائدا ليواصل الآخر سيره. ولربما حاولت الاستدارة فيمعهك عرض أكتافك طولك وامتص. هانت في النهاية آيب إلى عصاه من الضوء وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جد. كأنه البحر وهو كذلك، نظر عليه قراندات وشرقات مأمدة - غرف وقاعات تشبه القصور الزاهرة التي يقولون عليها في الكتب يسكنها ولد الحاج وهذا ولد إحوته وأحواته وإن مخك لا بد أن يطلق يا حال إذا تذكرت وأنت بين هذه القصور أن منظرها من الخارج يجمع ميسى بالطين المخلوط بالزبر. إذ إن خلف هذه القصور والسرقات غرف مبنية بالطين المخلوط بالزبر. يسكنها الخفراء والحراس وعيالهم ودوابهم وهم لا بد أن يكونوا عبيدا لهذه العائلة منذ أرملة بعيدة حتى يأمس لهم القوم مع أنهم مع ذلك لا يأمنون أحدا مهما أظهروا الثقة به. ولولا أن الحاج وهذا عرفني وعرف حدودي جيدا ما تركني أجيء إلى الجمع أبدا. ولاكتفى بمقابلتي في دواره في البلدة وهو الآخر دوار معزول مأمون الجواب. من يرى الدوار يظن أن الحياة قائمة هاهنا نيل نهار. في حين أن العائلة تعيش حياتها في الجمع ومصاريفها كلها في الجمع. أما الدوار فلاستقبال الضيوف والرياش والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمني ففتح لي بالحاج وهذا في الدوار في البلدة. أهلا يا أبو علي أهلا يا حاج. فيك يا ولد حكمت له ما كان قد حدث لي في محطة حواء فصحت حتى احمر وجهه متأل القوطاية. ومسح شربته الكبيرة قائلا «لا والله تصرقت رب»

برأوه عليك». ثم ميل رأسه نحو باب جانبي وصاح «الفدا يا ولد سرعه» وعدل رأسه نحو قلللا «أنا في الخدمة على كل حال» قلب «تشكر يا حاج أنا الذي في الخدمة» ومن أجل ذلك جئت» شوح بكفه لثمنية الخليفة بالشعر وقال «تعدى وبحلها الحلال»

استدارت الطفلية الكبيرة أمامنا. واستقرت فوالها الصبيبة الحساسة الحريضة. عليها طيق من الميمى على هيئة قارب كبير. مملوء لتسه بالآزر العمر بالصن، برئحته مهرجان صاخب فاصح. وطبق آخر أكبر منه عليه الديك الرومي المكتف تعف به أفراخ الحمام الثقيلة في السمن، باهيك عن سلطانية الشورية المقعة بالنقلية. وأطباق السلطة الخضراء ترتص فوقها أصناف الليمون البنزير المعثر.

كل يابو لهم. هكذا أرحي في الحاج وهذا وهو يشمر كمينه وينقش على اللحوم ففسيسها ورميا في اتجاه ملغفتي. التي راحت تفتنك جمال الأرز وهضاب النجم. حتى تسمرت في مطرعي من النخلة. ثم رفع لك وجيء بالبرتقال والنع الحياتي والجوافة البلدي. وكله من جانبي الحاج التي تحف بالدوار إلى مالا بهدي. ثم جيء ببرك الشاي الثقيل صارت معجبة يابوي. بعد ذلك نجما السحائر للمكي. ونظر الحاج وهذا في ساعة جييه الذهبية ذات المكتبة المربوطة في عروة الصديري ثم نهض واقف وأقام الصلاة ففرقت له يمللي العصر. وأنه يستبطل ويستحير الله ويستفتي قلعه مما إذا كان وراء قدومي المداجيء من أسرار حمية

يدعو الله أن يكشفها له أو يحير بصيرته في الخلاص منها حتى
على مهل شديد وفي نزدة كأنه يقرأ القرآن كله في ركعتين اثنتين
وبعد التسليم أمضى وقتاً طويلاً في تسبيح وتهجد أهدراً صراح
مصدق: «يا ولد»، ومسح على وجهه بكفسه كال كلمة ياولد كانت
من كلمات الفتنة.

دخل عند مبني نومه كالفحار المحروق وليس له ملامح على
الإطلاق سوى عيبي ككرتيني من الضوء تدوران في كل اتجاه
بسرعة مدغية وقف أمام سيده حاشفاً، أخرج الحاج وهذا
مدغته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيراً بحوي بيده: «حد
هذا الرجل وديّ النجيع». ونظر بحوي رافعا كفه يستعصني فعمت
واقفاً في الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بي في
النجيع سلمت على الحاج وهذا وشكرته ثم تبع العبد كعبد له.
لمضى بي في دبلير طويل حتى وصلنا إلى الرربة الكنيرة،
فوجدنا علي بابها عبداً آخر في حوالى الخمسين من عمره لكن
لوجهه ملامح وتهديع. قال له العبد الشاب: «هيك الرجل يروح
النجيع! صيلول سيدك».

وحه العبد الكبير سمح يابوي، وباسم العيبي، والطيبة تتدفق
منهما وتسيل على حديه غير أنها طيبة شقية راعقة الشقاوة مظل
في وجهي قائلاً: «تعرف تركب الحيل؟» قلت: «نص!»، مع
أسي لم أكن من ركاب الحيل يابوي. قال بيص الطيبة الشقية
«تعلم عصما عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال
سأعطيك مهراً هادئاً انطع! هاك هو»، وأشار لدحل الرربة إلى

مهر مهيب أيلو جميل الشكل، يقف بين عشرين من الجياد
العربة الأصيلة منظرها مرعب بإحال أوي ما وقع يصري عنيها
رأيت الحروب الصليبية في هيلم صلاح الدين الذي رأته مرة في
سيما الكواكب بصحة هدي وبرش، وحين في أن الفرسان الذي
احتلوا قد هجموا الآن في حكاك م، يستريحون بعدما صنعوا
الأمال ولما عدلت وقفتي رأيت صف الجياد الربوطة أمام الداود
يمتد على مشارف البصر، ليبدأ صف طويل من النجيع والأبقار
والجاموس في ملابها حظيرة موارية عرفت من منظره ومن
رائحتها أنها مراح للأعنام انتي تروعي قطعانها الآن في الحقل.

قال العبد المني الذي عرفت أن اسمه سعدوي «ادخ وهن
الهر! واحد ان يرمسك وإلا كنت أبطل مبه» تميم من الآن أن تقع
بفسك ما نريده وما يطلب منك! كل إنسان هعا على ركبة جمه
يعني أنت مسئول هي فمسك! وعلى كل حال تعال ورائي وبعبر
كيف أبتك الجواد من حريطه وكيف أسوسه حتى يستكن ويدخ
في طوعي!، وكنا قد صرنا نجوار أبطل، لمصل هو يلك الجواد
بصنعة وحرفة، ويطلب على ظهره كما يمس أنهب العاشق
لمحبوبه ثم إنه سمعه ومضى فجعت أفعل مثلاً فعلن، وأعدق
علي البعل من الحما ما كنت في حاجة إليه من عبرى. ولم أكن
أعرف أن البعل غير الجواد لا تفت في عضده مثل هذه النعواطف
الكاذبة للجيشان إلا أنه مضى ورائي في موعية مدغشة

تبعث القند وجواده حتى خرجنا من الباب الحلقى مذور هود
بنا على الطريق المتاحم للصحره. وحينئذ توقف العبد برهة ثم

قهر معتقب ظهر الجواد وكان لا يدري أن يفعل مثله طلب ما رأى
ياحال أمى فعبت مثله بالهبط كاسي من ركاب الحيل لأصلاء^{٥٥٩}

كان جواد العبد يعصى متبحراً في سيره، وكنت بالفعل أدب^٥
حلفه ولم يكن في الكون كله سوى الرمال على الجاسمين،
والشمس في السماء ورتق الحوافر وقد طال ما المسير باحال،
هني أحمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئاً فشيئاً، صرنا
سحباً والرمال بقايا رعب تحت صخرة هائلة من العجم لا نهاية
سبورها فوقها وعند طلوع الفجر لاح النجم في البعيد كوشم على
ظاهر الأفق، ثم صار يتسع ويتسع حتى صرنا فطرة صميخة في
بهره، كنا نقبل على جدران صماء، لا شيا بك فيها ولا أبواب
لكننا حين نرتقها عند جدار مهيئ تبني لي فراغ غير مرئي على
البعد، بين جدارين متظاهرين يبدوان على البعد متلاصقين، حودنا
في الفراغ بين الجدارين وصرنا مسافة أمثارة، لمجد بنا حشياً
كثيراً مغلقة ما اقترب وقع حوافر الجواد مع حتى وورب من
تلقاه نفسه وأطل منه وجه عيب كالبحيضة الممس، وقال «حيروا
ياسعدون؟» فقال العبد «عد هذا الرجل ضعه إلى الجمال»،
وأشار لي مشوحاً كأنه يدفعني للتحول، فلما فتح الباب تماماً
ترجعت صاحب البغل إلى الداخل، ومن ورائي العبد مجولده

هنا الدار واسع تطل عليه بعض الضروف، وحيطان السرايات
ملونة تبدو من خلفها متحمية تحت غروع الأشجار وأعمال القش
والخشب جاء صاحب الدار هاتفاً المقل والجواد إلى رومة

صغيرة قال العبد سعدون «صنع لهما طعاماً مامهران» قال
صاحب الدار «حير ربما كثير»، وأعقق عليهما داب الرريبة
واحتفى قليلاً من الوقت، حينما جلسنا على مصطبة في الفناء، عاد
مهراي مجلس معنا مرحباً، وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن
الدار بعدها بقليل امتدت الطويلة أمامنا وجيء بالفطير الدرة سايع
وبليخ، والقشدة المسحونة تحطشش فوق حدوده البوردية ما كل
هذا الأمر يابري؟ كل يابو لاعم وأعصن الفطير المدهون بالقشدة
الساخنة يقشدة صابحة وغسل نحل وجب شرش، ويمد شرب
الشاي بهن سعدون وألقا فطنت الجواد والنهل، سعيهم
وخرج، فامتطي الجواد واحتفظ بمقود البغل في يسراه وأمسك
مقود الجواد بيمنه ومضى ساجداً البغل خلفه، فلما احتفى مقوده
في البعد مال مهراي نحوي قائلاً «جئت في وقتك اتبعني»

فتبعته لمسعى مسافة كبيرة حول النجم، ثم دخل لي فراغ
أمر كالذي صلباً مع قبلا دخلت ورايه يا حال، فإذا بنا في
مواجهة باب كبير مفتوح من آخره، وقد وقف أمامه وبحله عشرات
من الرجال الأشداء الصلاب، على رؤسهم للعمامة الجيروية
المدعشة خفيفة الدم إلى هي إلا برة قصيرة صار الرجال مدهم
يخرجون راكبين الجمال، عاب مهراي في الداخل قليلاً، وعاد
ساجداً جملاً، عالجته حتى برك على الأرض، قال اركب ركبت
وتنهضت للجمال فتهمس، ومهران يتألمس حميد ليروي ماذا سيحدث
لي حين يمهض العمل رافعا حلقيتيه فلما اطمأن إلى أمي ركب
جمال، طيبت على للجمال قائلاً بالسلامة عتبت الرجال

هالوكوبوترة رعاء كسمكة موسى ذات بطن ضخمة هائلة ورعاف مشرعة ودبل بقيق، أحدث تهبط شمس شبيها حتى استقرت على الأرض، أي والله يابوي قدر ربنا يهرسى لو كنت اكتب، فلما استقرت على الأرض الرميبة الضلعة التي بان لي منها معدة لها من رص مصي، افتتح بابها وبول منها أفندي هضيم الوجه عيط الشعتين متهلل الشعر على الجدين العريض الشاهق اليباس. مع جواجب ثقيلة وعييين سوداوين في وجه مستطعين يبدو مع ذلك حميلا كان يبدو كالاجاب الجواجب لكن الصياغة الكبيرة تطل من عيينه وشفتيه. ماليت أن صاح بلهجة شامية فيها بلحظة مصرية كبيرة يابوي، سا الصبر يا جعدن، فردوا جميعا كاسهم في الصلاة وراء الإمام، عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

مرهة وبول من الطائرة أفندي آخر أصغر منه لكنه أجس بكثير ويبدو أنه ابن ناس مظر في جعد نظرة متفحصية فيها كثير من نود وقليل من الشك والصوب والتشائم وقف برهة فاشار له الأفندي الهضيم الوجه برأسه، فبعد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهر صامبا جوالا وخضعه على العتبة وقاي في الداخل، قرأ عليه الأفندي الهضيم الوجه كلاما ثم صاح، المعلم نيات منكورا، وكرر الاسم بصوت أعلى، عاشق الوحام عن رجن جاء يهرول صائحا، أيوده، فلما صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندي مطروفا منتفحا بالأموال فحده الأفندي وعد أوارقه

صرب كقول حسالة في قلب الصحراء لا عرق بين لوبنا جميعا ولوى للصحراء المتراصة يغير حدود يابوي. ما أوسع ملك الله حقا يحال، يتقدم دسلان محرمال يركن بقلبين قارهين، وما على الجمال إلا أن تتسرب حلقها خطوة بخطوة ولا عاصت أقدامها في الرمال كأت الشمس كالبيضة المفقوسة يسيل صفدها من قرصه على متجمد في جانب من السماء أحد الصبار بيبيص وبيبيص، والقرص يصير في لور الترغيف الطالع من الغرب يوجهنا نارة ويجهنا نارة أخرى ويقف فوق رؤوسنا نارة ثالثة ثم يسقط حلف ظهرنا والعرق يتصبب منا عريزة على اكتاف الجمال، إلى أن لاح لنا في الأفق البعيد كتل من الظل الرمادي كصخور ثابتة في قلب الأرض، جعنا فترتب منها، فإيا في جمال ياركة وحولها رجال ياركوي وواقفون وممدوبون كان يبينهم من يغس يابوي، أي والله، يصرب بالموال الحسرايين الفوايحي معا، فأيضا تواجد الصعدي، وحب الغناء، وجبشا غنى تجمهر النحر والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركعنا. بركت جمالنا مرلنا وجلسنا مع الجالسين وأنا كالأهبل في الرمة لا أعلم لي ما سيجري بعد ذلك. هي سجارة واحدة بحمها يابوي، ومعلت معلما يعمل الناس في حلاه بعيد، لا وأربز يفترب في السماء ويقتررب ثم يرداد اقترابا. ومع اقترابه رتب الجمع يمهضون واقفين ومحدث يبينهم حركة استعجاب وانجاب نظرت في السماء فلانا بطائرة

بسرعة ثم دمه في عيه. ووضع يده على جوال آخر وهماح
منادي والمعلم هادي الحمادي.

توالت مباداته بين كل جوالين أو جوالين وربما ثلاثة. وهو
يسلم ويقبض، والجوال تحمل على الجمال وتربط إلى أن جاء
دور العدا. وهناك، فتقدم الأثنان اللذان كانا على الجوالين،
وتسبعا - لدهشتي - أربعين جوالاً. ولقد عجبت والله بأحوال
كثير، اتسعت هذه المائدة لكل هذه الجوالات، كما عجبت بغير
حدود من المائدة نفسها يابوي من أين جاءت ومن هو صاحبها
ولحساب من تعمل؟ ومن أي جسم أو علة؟ غير أني - ثعلب اليمين
يبحال - لم أعرف حتى الآن. وقد رعم آخر أنها لبنانية. وثالث أنها
تبع لاسندراف ورابع أنها قادمة من السماء نفسها شخصياً
فصعدت في عينا ومضيت إلى النجم حيث سلما الجمال
بمصولاتهما لراكبي الجوامين ودخلتا دار مهراي. ولم يعرف أي
ذهب راكبي الجوالين بالجمال الخجلة بعشرات الجوالات بصوف
من المراكات الغريبة مثل مراكة أمت عمرى ومراكة هند ليلتي،
ومراكة المشير ومراكة الأطلال، وأشياء يطير لها الخ يابوي.
تطغ اليمين يابوي أن قد أصابني حبل، فلقد لحت وجهي وراكبي
الجوالين، وعزني أنهما مسحة طيق الأمل من وجه رجل رايته
كثيراً من قعدات الحاج السمي، كأنهما هو، ولو لم يكونا اثنين
لألقيت بنفسي في حصنه متأكدا أنه هو. ولما كنت متأكدا أن
الإنسان لا يمكن أن يشطر نفسه بسحبين هبى قد تصولت في

الامر مل في صحة عقلي، وأقيت بتقلي على كتهى المثل القائل
يخلق من الشبة أربعين مع تقنى، بقامة هي أن شبة من الأربعين
شبه لا يمكن أن يكون مطابقاً إلى هذا الحد يابوي

قل إنني طرحت على الأمر كله عاني رحمه الله كس دهم
العول لنفسه وللناس طرمخ تعش قول به أفهم معده على
الحقيقة إلا بعد أن أعجزني الحبل يابوي، وأياستى التجارب، حتى
تأكد لي أن لسان المرء هو قاشده. فإذا لم يجد في الأعماق حلوا
يفترقه للسامعي عتيقه مجلفاً في سقف حنقه. هذا أفضل شيء له
والد، وإلا فلسانك سوف يفترق من جوفك مصائب يرمي بها
فوق رأسك أسما بعت فاحبر لسانك يا حال، به حصانك بن
صنفته صانك وإن أهنته أهانك

وهذا ما فعلت يابوي قضيت في النجم بدلا من الشهر شهورا
لا أذكر عددها، بل قل دهوراً فيها الفوس كانت تجري بين يدي
كزيق الفصل لا تخلص أصابعي من آثاره بسهولة حتى أني والله
يا حال كنت أبحرها في بلايص من الحصار مما يعد لتفزيين
السم، مدهون جوفها مصفر النيص مكانه لوزايكو الذي
يقولون عليه في المدينة رلعة لحمسات الجبهيات وأخرى للشموت
وثالثة للشمسيات ورابعة للمئات، هكذا رأيتهم جميعاً يفنون في
الجمع والواحد منهم يفعل هذا أمانك وأمام الآخرين.

كنت باراً في حق صغير كان معداً سدجاج ولا رتب في حنية
مجدبة في مؤخرة الجمع المظنة على الصحراء التي بلا نهاية آثار

حراه الدجاج والأرب لانزال باقيه على طواجنها كئى سكانه
 النبايلى سيعودون بعد قليل لمشاركتى للبيت فيه أحشى ما
 كنت أحشاه بـ يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء في جبة هذه
 الزوئحة الشهية فزشت مسهرى الشيخ في كل مقعة فيه وبلغته
 بحر مضاهه ولكنى لاحظت أن الجدار الذى تستند عليه هذه العشة
 اكبيره جدار من الاسمنت المسلح ففهمت يابوى أنى لصق قصور
 من القصور مباشرة لاحظت كذلك يابوى وجود باب منيع موجود
 في الجناط لا يمر للداهل وآخر منه في الجناط الأيمن معى
 الكلام أرى منظر الجدار من الاسمنت ويدين لا يتناسب منظرهما
 مع عشة الدجاج والأرب، بما عى إلى أبواب حجرات القصور
 أقرب إذ هي من حشب ران منقش الصمغ حابك ومخلف من
 نداهل الذى جاء في بالى امها بضمها إلى محارر لاناس
 الأبقار وسمها وأجبانها، يد أن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من
 لحوم هذين البابيين بشكل حارق ومضوئصل، مما يؤكد أن ثمة
 أبواب أخرى في الداهل يدخلون منها لتزويد الحريين.

فى منتأى مزلوى فى عبد الدول رعى لى مهران محصيرة قديمة
 وبطانية نصف قديمة ومحددة محشوة بفش الكراسى أغلبها بلونة
 مقعد سيارة قديمة استقصيت فوق ذلك قلة ماء وريرا أملاء من
 فطاطيس امياه التى تجيء بها السيارات إلى النجع كل يوم إضافة
 إلى القرب والملايىم التى تعملها الغلال والحصير كل لحظة من
 أماكن مجهولة وأعطى الظن أن هذه السيارات والفطاطيس وهذه
 القرى تقوم بعرض آخر غير المياد لان العاملين عليها يزعمون فى

العش، عرفت هذا من منظر قريبة يحجبها أحدهم والمعرض أبه
 أفرغت من المياه وكان واضحاً مع ذلك أبه، ثقيله والرجل يبعرج
 تحت ثقلها.

كنت مدعماً حين حددت لمسعى مهلة شهر بإحبال، كان يجب أن
 أعمل حساب هذه الورطة التى يرثها بقمى، وبات الخروج منها
 كقطع الجسوس، ملو أربت الرحيل عن هب فلا بد أن أقابل الحاج
 وهذان شخصيا واستسمعه عى الرحيل غير أرى مد جئت إلى هب
 لم أرى الحاج وهذان ولم يرى، إذ أن كل شىء هامى يتم وحده.
 والريس مهران يسلمنى أربع أو خمس آفات من الحشيش أو صنف
 لباس فى سورج بعيدة وأجىء بشمب مريوطا فى حزام حول
 وسطى، أو لباس فى بلدان مجاورة كميت رهينة والبدرشين
 وغيرها اذهب على هيئة يافع بسريح يحمل «جبة» سمك أو قفص
 ماتمو تحته قفص آخر ملئ بالورق علامة أرى بعث محتوياته،
 فى حين يقع الحشيش فى قعره

كل مضع جَمَعَ تقوم بنفس الرحلة إلى حيث تهبط الطائرة
 لفردو بكمايث من النوىين تنتهى صلطا بها بمجرد وصول القافة
 إلى حدود السج، ليتولى الرجال الشبهان بعدى فى محارر لا
 يعرفها غيرهما وكل مشوار له ثمة، خلاف الكيف ودرج الذى
 يأتينا بغير حساب فكل واحد علينا يطلب من أحده حجريين يعطيه
 ربع أوقه أما الأكل فقد يتم جماعة من مرد مهران أو غيره وقد
 بجىء الأكل لى لم يحضر ومن يطهيه فى نرله حرقان تدبح

وعجول وطير تربيها سمران الحمراء وتبيعهما لمن يطلبها منا
بتراب الفلوس. وكنت أحشى أن ألج في طلب الحاج وهذا حتى
لا يصيق أو يضيقوا بي يا حال ولم أكر أجرو على الذهاب إليه
في الدوار حتى لا يغضب مني أو يشك مني وكانت الظروف قد
خدمتني مرتين ثلاثة في مشاويري إلى الدوار. وفي المرات الثلاث
لم أجد الحاج وهذا هناك فلما تكش التلق في دماغى حول
موضوع الشقة والمعلم شندويلي هجرت للزيارة فبعد أن أوصلت
طلبا قريبا من بر الجيزة قلت ما من بد. وركبت الأتوبيس
الدهري. فصرحت بعد دقائق في قهوة المعلم شندويلي في مصر
عشقة.

كان المعلم شندويلي متهنيا على النسيبة بسبب الشائ في
الأكواب. حين رحت على الأكواب ظل أصرح حتى فرقت رأسه
فزأى أمامه شخصا شقيا بينه وبين المتسولين درجة قصيرة
الخشف على قفاه كالمصدا كصيفة الضخان على واجهات أفار
العمارات. وليس جلابيا من المصوف المتهرىء أكل عليه الدهر
وشرب. ويبدو كأن أحدا أحسن به عليه. حامى التقديم وذلك
الشقى لم يكن سوى.

وضع المعلم شندويلي كفه على عينيه كالقنطرة وأمن النظر من
شخصي جيدا. وهو لا يصدق أنى ظهرت أجيرا على هذا المنظر.
كان منظري فعلا كالخارج لقره من السج. ثم إن المعلم شندويلي

تذكرنى. فبان عليه الأسف الشديد وصاح في جدعة. «حسن أبو
ضب» «ما محقول» وطلع عن حدود النسيبة وأحدثى بالمص
وصار يطيط على ظهري قائلا «قلبي عدت يا أبو على» إيش
أحوالك» قلت «كما ترى» لقد خلعت رجلا دح كما حدث منى
ولو قلت لى إرم عصمت من البحر لفلت» تبسم من مزج وهو
يجلس «أعرف يا أبو على» أعرف» وعشمتى منك كبير» قلت
«كسبنا صلاة النبي» وصح كفه على ركبتي قائلا فى مبرة
اعتذار

«لا تؤاخذنى يا أبو العم» لم أعرف أين كنت وإلا جئت
لريارتك» سألت منك فى الحجر فقيل لى إنك رحلت إلى المديرية
وأجيرا بلغنى أنك فى سجن القلعة. هذا الخبر وصلنى يادوبك من
بومين «نسين» جأسى به واحد أعرفه له يد كبيرة فى الحكومة
وكنت أدير لريارتك قبل دهوك الآن ببرهة قصيرة «يا» القلوب
هتد بعضها حقا إيش أحوالك».

نهضت وانفقا متجها إلى النسيبة. فصب لى (واحد شائ) على
بوصفة تخليه ومرع من حلف أيمه ورقة أفينون تساوى عشرة
جيمهاته رمز بها فى حجرى قائلا «ورق مرأجك» ثم مد يده
لثت النسيبة فمسح شيشة مخصصة لها رنة عالية سالكة
أقربها دجوى. سحب شيشة مرصوص عليها عشرون حجرا
ملونة بالمسل مزج قطعة حشيش هو كان يلمصها فى حرف
الرمامة من أسفل جهل يوقع معها فوق الحجارة. وضع المششة

كلها تحت المصيبة سحب من الوجاهة قطعة من صاحبة، فحشها على الرحمة وعبأها في المصيدة ومارين صلي ممي له، صدره والوقوفان يرحف على بالي نكر كلاكعب القلق واقفه حلف دماعي تريد أن تنوب وتمح قبح أن أشوف عراجي جدا ثم إمى لست الآن ملك نفسي ولامد من رجوعي للنج قبل حلول الظلام، بواسطة بقل سينظرني من سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البدة إلى مشرف الصحراء هي خدمة يبلغها بمراجة إذ أن وظيفته توصيني وترصيل أي واحد كان في مشوار ببضاعة خارج حدود البلدة وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع في ظروف غير مواتية توحشه قليلا أو كثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد من لايد أن ينهر الفرصة ويتكعب في الطريق يشجع من الناس ويشتري ما يشاء من أشياء، إني واثق أنه سوف ينتظروني، ولكن الظلام إذا دح قبل وصولي إليه ستحدث مصيبة، سيعلم سيده في الحال بعدم وصول الفوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابها في المال والعتاد إن حدثت أنا بعد وصول حمر من ذلك إلى الحاج وهذا من أشك لايد أن يعصف بهوته وأنا لا قدرة لي على مناصرة السحاب ياخال.

لكن المعلم شمدولي مهمل، وغير الحسنة بحشبات وكان في استمتاع كبير من راح يحكى لي كيف بلغه حمر البشكة التي تشاكلتها مع غرماثة اللوامس في العمارة.

بدا أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له أفعال كثيرة على أهل الحق، يفرج عن مساجيهم ويثبت أقدام أسانهم في محاصر الشرطة. وهو - بنى ويحب - يحب هذا الرجل، لكنه - الرجل - لا يجلس في المقهى إلا أن هذا الرجل مر عليه في المقهى على غير انتظار مما جعل المعلم شمدولي يتوجس ويكعب القار في عجه قابله بترحاب وقام معه بالواجب، إناذ به يهمني له «هناك حبر أن يسوك» ثم قال: «هناك ولد شمدولي صعيدى بلطجي! دخل عمارته واحسك بسيدته من سكانها ولها علىهما ضربا وتشليقا وتمريقا حتى أحدث بهما ضاهات مستديمة ومقلتهما عربة الإسفاف إلى المستشفى بين الحياة والموت» إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرير عزال واحدة في بطنها والآخرى في ثديها، وأما الولد فقد قبضوا عليه وسبق إلى قسم الشرطة عقال في الحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث شتمته إحداهن قائلة له ياحول! وشتمته الأخرى قائلة له ياعلق! ولما ذهبت الشرطة للسيدتين في مستشفى ذكرتنا في الحضر أن هذا الولد من طرفك! وأنت حرصته عليهما واكثرته لقلتهما لحلاف قديم بينك وبينهما وبعد الرجوع للولد وسؤاله ما الذي أدخله العمارة من الأصل؟ أدلى في أقواله أنه يسكن في العمارة وليس بيت إليك مصنة قري! الحقيقة أنه ذكر في كلامه كلاما كثيرا في صفك يبعد عنك الشبهة وأما بالصدقة أعرف هذا الولد معرفة سطحية ولكني لما رأيت اسمك وأردت في الحضر -

وأنت رجل يصر على - قرأت المحصر وفليته حتى أطمش على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقاً؟

وهو غمره شندويلي بالورقة أم عشرة جنيهات قاتلاً «دبرس أنت في هذه النصيحة أنا لم أحضر أحد» فقال له الرجل - الذي هو بسببوية كما أعرف

- نصيحتي أن تحتلي بضعة أساميع عن الأناظر. لأن الليابة تطلبك لتتجقق! سيحییء منحبرون لاستدراجك. لاسرائی النبیایة! فلن كنت تحب أن أتناهم لك معهم فإسأهم من المجرى إليك! وأما عن أمر هذا الولد فلن كان ساكناً عندك حقاً فإنك يجب أن تكلفته على شهادته. وأما إن كان يكذب في مسألة السكن عندك هذه فلن موقفه وموقفك سيكونان في منتهى الصعوبة، ستعامله الليابة على أنه ولد بلطجي مأجور مدفوع للاحتكاك بالسكان! أو ظهر كذبه يصعب موقفك! ولو اتضح أنه يقيم في الشقة فقط مجرد إقامة فهو إذن من طرفك وهذا يجعل الليابة تصدق أنك حرضته!.

فقال شندويلي على الفور

- «الحقيقة أن هذا الولد ساكن عندي بالفعل وليس لي أي فصل عليه حتى يجاملي» بالعكس لقد أحسنت منه حلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره»

فقال الرجل. «ولكن النبیایة طالبتة بتقديم عقد إيجار أو آخر إيصال فلم يجد معه أي ورقة تثبت شمسیتته سوى بصمته!

فأعطوه أربعين يوماً استمرار حبس لأن تلك الحسرونة في بطنها على وشك الموت»

فقص المعلم شندويلي على شقيقه «الحقيقة أني لم أكن كتبت له عقداً ولم أعطه وصلاً» فالتفت بعدة متعائلة لأنه من أسرة طيبة أعرفها»

سارع الرجل قاتلاً «عليك إذن أن تنجيته من وحلته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه» اكتب له العقد وإيصال الإيجار وأرسله به! وإن كنت تستطيع مساعدته في السر يكون لك الأجر والشوب وأنا في حبيبتك إن أردت أن توصل له شيئاً في سجن الاستئناف»

قال المعلم شندويلي «عذراً تشرفي بشرب فنجار قهوة معي في الصباح أو في العصارى فأعطيك عقد الإيجار وإيصال آخر شهراً وسبكون العقد بتاريخ استلامه الشقة» وبو فيها رسالة سأعطيك بعض المأكولات والمشروبات ثوبها به إنه ولد في النهاية محتاج للعطاف وبخصوصه «مخبرين هناك ثلاثون جنيهاً ورعها عليهم ولا تدع أحدهم يريني وجهه أبداً لأن مظهرهم عدم المرافضة شؤم ولست أهب الفضيحة صرب ما ضربت وانتقم ما انتقم ولا يمويي سوى الفضيحة والبهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضهم لا شأن لي بمرأهم طهرقوا! بعضهم بعضاً»

قال للرجل مشيراً إلى عينيه «من دي! ومن دي!»

وفي عصر اليوم التالي من علته ارجس بالفعل. وأحد منه عقد الإيجار والإيصال. وخرطوشتين من السجائر وباكوشتي

«مائة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية خشب»

وأبى المعلم شنديوى حديثه قائلا: لعلك تكون مسوطا يا عم!
وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!

قلت مستعلا التذكر والأسف: «هنا إدر هو الرجل الذى
سألنى فى سجن لاستئذان! لقد أخبرنى وملائى المساجين
أصل الحكاية أنى قعت بأعمال شعب كثيرة فنقلوسى إلى طرة
ومن طرة إلى بى سويف وفى بى سويف تعرضت على حارس
من الحراس يقرب نوالدىس! يحببى ويثق بى! وجول الليل بيكى
من أجلى ويوحى بى رملاه فى الورديات! وقد علم أنى مساق
إلى الجلسة غد، صباها! فذبر خطة لتسويى من السجن متكررا
وجاء بى إلى هنا لكى أقابلك لأحد العقد والوصل لأعرضهما على
القاضى عد! والمسكرى ينف الأى بعيدا بلباسه الذى حتى لا
يلفت النظر فى انتظار أن أعود إليه لمقتل عائدهى إلى السجن قبل
ساعة التتميم!»

قال اعلم شنديوى والدسوع تشرق فى عيبيه ادعه بشرى
القهوة ويعطيه خمسة! قلت وأنا أنهض واقفا: لا لابد من
الانصراف الآن! ولكن ماذا! سأفعل فى هذه الورطة وأنا لا أعرف
أين مكان هذا الرجل!١٢

ويبدو بأحال أنى أتقنت الدور، إنا بى أتقنر ماكيا بحرقه وأنا
بالمعلم شنديوى يتأثر جنا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم
يصبح مبتهجا! هو إدر لم يصلك ولم توقع عليه! ماتت

ولقيحاه!، وصباح «يأولد ياعوم»! اشتر لنا عقد إيجار ودمر
وصولات!

راح قلبى يرقص من الفرح والطرب حين جاء البود مالعقد
مشيوعا من الدكان وراح شنديوى بالقلم الهادئ يملأ استيانات
وأضاف إليه شاعدىس من حبيبته، وحرره بتأريخ استلامى
للشقة، وحرر أيضا لأخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز ونصم
فعلت مثله، وحوت الورق فى جيبى وحضيت معلم شنديوى
وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم لى تركته وانذهفت نحو
العلاء مهنولا ومنه إلى محطة الأنوبيس النهري ووقفت برفة
نظرت فيها إلى العمارة كأنى أطمئن على شقتى فيها. وكانت
صورة يسبوسة فى دماغى تظلم لى فى شقوة جهمية وكنت
أبتسم فى جدل حشيتى وأقول تصورته والله يابسبوسة إنك
لستحقى ألما من المبهجات، أنت رجل سقى ويجب أن أحبك، لكنى
ما تكون فانت اليوم أسدق أصدقائى وأحدهم رح إلى ربه
فلمتها فى وجهك أيها الولد.

وقلوت إلى جر النيرة لأترك سعدون بمربة التاكسى والشمس
تأترل بعد حمراء الحدود من فرط الجبل قبل أن تحتويها نهائيا
عبادة الحجر الرومانية.

ميسوقى كانت فوق الرصف يابوى، تحلف اليعمين تقوى إلى
له أرب عشر راحيات من ذلك المسعى بالويسكى رغم أنى مع

أشهره طول عمري يابوي، من قرط الشعور بالشوة والعرج
 عرفت أن النوم سيحاصمني فانوم لا يحاصمنا يابوي إلا بعد
 انقرج أو قلق الحزن استقصيت حورة هذ برعاص وعشوة
 حجارة، وياكو معسل قص وبعد أن رعت العشوة المعتبرة مع
 رجال النجع أتند منها على حروفين مشويين مسروقين من راع
 ضال أمسبتهم بالخير واتكلت على الله إلى حجرتي - عشتي
 فأغفلتها عني نفسي وتربعت في سوء اللعبة مرة حمسة جعلت
 أشعي النار وأزمن الحجارة - وصهد الأفوية يسوي دماعي على
 نار مائة حجر فالتاني فالتالث شعلت ركبة النار في دماعي
 ونجت كور الشاي، فانمعت موسيقى الغلاب تمكرمي

فيما أنظف الحجارة للمرة الثالثة مع كوب الشاي بداء عيني
 ثرى الحجرة وتجهول بين جدرانها كنت مرنكتا للحائط المسلح
 ووجهي في اتجاه باب العشة المطل على الصحراء تلكت عيني
 على الباب، مجاور لي على اليمين وقد تصاعدت منه روائح اللب
 الحبيب الطارج والقشدة والسمسم المقدوح بشكل زائع وكان ثمة
 حركة وكركة تميء من وراء الباب، الذي أبهلتني أنه كان شمه
 مورب، وحط من الصورة واقف بين حشب الباب وحائطه فاندفع
 قلبي يابوي حفت، فقيت أرتمش في قصدي، وقد تشبث بصبري
 بالباب مركدا على حط الضوء راعني أن حيالا من الظل كان
 يحجبه لبرهة مصحوبة بحركة خلف الباب مباشرة مع صوت
 اندلاق سبي من طاحن إلى طاحن وصوت أولي يتفارع فإذا بي

رغما عني والله بالحال - أنمصح ففي الحال انتسعت وربة الداب
 وأفل منه وجه جبية تبارك الحلاق هيب حلق عياد واسعتان
 ساحرتان، تفرجان وسط جداول شعر أسود مطروح من فتحتي
 العيينين نزل حدال كحيتي الشمس الطايب يسيل عنهما حدالان
 على هيئة صديعين يتنهيان بدق صغير عليهما صبع الحسن فكأن
 وجهها رسم في الهواء وكابت عليه استسامة كأنها اعتدار، وهي
 عينها نظرة تستهين بكل شيء شالفتي وحطنتي هي قصدي عدة
 مرات أما أنا فظللت سمرا في مكاني بالحال، جعلت أفرا الدائمة
 في سري لعلها تصرف عني هذه الجمية المصيفة أو تقويمي عليها.
 لثت لنفسي لعلها تهبط السطل والأليوس وكيسة الفضل
 انفسروني، لكن الجمية أبت إلا أن تديس الفرق بين الحقيقة
 والخيال، إذا بيدها البصة العنبرية تخرج من الفتحة عن دراع مموء
 المنصطف بالأسود الدفعية على المصمم وإذا بيده اليد تشير بي أن
 تصال، إشارة أسرة تصال يمي ثمن، لكن من يد الذي يمي؟
 هومي من يتحرك من مكانه يابوي، من أين لي بقوة تحركني
 يابوي؟ وإذا بصوتها يطلع رمانا كشعلة الذهب، فم شمال لا
 تخطيء فقلت في الحال مننصطف، أعض عني شفتي وأزمن
 نفسي لأتأكد من صحوي، خطوة ونصف خطوة صرت واقفا
 أمامها حاششا أنعض، قلنتني بظرة باسمه - يعصبي عني
 الرجال، صمكت نظرت في فتحة الباب من ورائها رأيت حاصلا
 لجمع الأليان يمدد إلى بعيد جدا ويمتلئ بالطواجن والأبجر
 والأهديات والأليان، قالب عيما يشبه لا حقتار - أبت متعل إليه

هنا" قلت "الريس مهران اسكنى هذا" هزت رأسها ورامته، ثم دفعتني أمامها وخرجت سلحبة الياب حلقها.

القرال الأعظم مقف لأن أمامي هي قلب حجرتي، ترتدى قميص من البايون زهيفا لا يستر أى شيء في جسمها الوردي، معقو بحمائلتين كالخملين على كتفيها، ومن فوق قميص مفتوح كالعماءة من نفس اللون تحرك الحديد السمكري قليلا حتى يصيرة هوت عليها مديعة ومحب بصرها الساحر نحوى امرأة "أفقد" فالتفت متربدة فبالتها قالت "مرحبا جبرين"، قلت "حاضرا" وجعلت بكل حماس أصحى النار وأرض الحجارة قدمت لها البرصة مشددة النفس فشر أجدح حشاش في البر كله سحب الدخان تدفع من معريه قلت "ماشاء الله" واحد آخر، ولحقتها بآخر وثالث ورابع حتى شمرت وحدها عشرة حجارة ويضيق ضائقة وأنا اصمصح لها الحجر بالماشة، وأصبع رنية إصاعية فوق سر، وهي تشرب، حتى اتسعت عيوبها أكثر، وبشمت العسرة في بحيرة العيين، وقالت وهي تريح البرصة "أحك بس حكايته".

تبصرت هانس حكيت لها حكايتي محكت لي حكايتها هي الأحدى

هي بيت أحت الحاج وهدان شخصيا، وروية ابن أخته أيضا أي ابن حالتها كانت عروسا طارحة لم يمض على رفاقها سمعة أيام حين هاجم بولس روحه بقود مركبا قانما من أسوان، موسفة بدجذرات وقطع الآثار النادرة كالبراعلة في لثرك كل

من أبيها وأخيها، أهر من تبقى لها على الحياة بعد موت أمها وإخوتها الذين لم يكونوا معمرين، سبق زوجها وأبوها وأهوما إلى محكمة الجنابات، لثني طسنت كل واحد منهم بالؤبد في عين العدو كان ذلك منذ عام مضى، وبعد ذلك اليوم وهي حبيسة السرايا الصغيرة لثني أبنائها حالها. كان زوجها هو دراعه اليمين وقد حزن عليه حزنا يفتق الوصف. وحزن عليه الجمع كله وكلما اشتد حزنهم عليه يلمسوا عليها كأني استنونة من ضياعه ووجهها الشؤم قد بات يلقى من الميوس كله جمالها فكانت تهرب منهم إلى العمل في شغل النار، وسوس الجمع كله ضلها حلوة في سلوانة فترك لها كل شغل الدار المحتاج لشقة وسهر ومن جانبها كانت تعمل بلا كل عليها تنسى ولقد فكرت لي الهرب، ولكننا سقنة أن حالها سيحي بها من تحت الأرض. لكننا رغم ذلك لم نستطع نسين أمه عروس، وأن عاتشها وسيريرا لا تزال فيه رائحة الفرح راعقة بانت تشهيل كل بنية - وهي وحدها في السوير - أن الباب سيخفف لئلا نراه داخلها عيناها يكمل واجب المرحس يكمل تسليك الطريق الذي حرم فيه ثقنا، فباتت كل يوم بعد ذيل المغرب تستنم وتلس أحسن ما عدها من التقسامان لأشفتني لعلها تقاها به داخل

ثم وصعت يدها على معصمي قائلة وهي تنهص

- "الست تعب أن ترى سوير الفرح؟ تعال أريه لك" سوف نراه جدينا وورق المحل ملقوف عليه أم المربوب والألحفة من الحريز الساتار، هم لأريك العفش الذي حدثنا به من ميماء

لكنى تسجرت في مكانى يا بوى، بل تجرات وشديتها بظليل
 من القوة فأقعدتها كما كانت. ونظرت في عينيها فوجدت تصميمًا
 أكيدا على طلبها، مروجًا بدهشة واستغراب، وغيط دفين. وفي
 الحال تقطعت أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون. وقلت
 لنفسى لابد من العقل والحكمة في صرفها بصحة لطافة وقلت
 لها وأنا أسرع برهن حجري

— ها تزعدينى يا أختاه! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمى
 الفاشى في السجن؟ ألقى بنفسى في النار!

رحلت بحوى ضاربة «من أجل! لا تحفل! لا تظننى مجنونة!
 ولست أصعب لك نفسا لأحتيرك» جميع رجال الدار وسواها
 ذهبوا لحفلة فرح في صمارى سيشي! قالوا لي تعالى صحت
 قالوا من متأخريهم! وأنا لم أرضى! عملت بنفسى مربية
 وتعبانة! وحملت الله أن تركبني وحدي! البويوت كلها الآن حالية!
 حتى الخمر والهرس تسيلوا إلى البلد ليأخذوا مصالحهم! تعال
 وشك بفسك!!

وقربت وجهها منى فرأيتنى أترك ما في بدي وأطوق رقبتها
 وأصعب رأسها بحوى. وأنقش على شفتيها لثما ومصمصة
 وغضب صارت هي كالسمكة تمتعض في شبكة الصيد. ثم لم أتر
 سمعى بعد ذلك يا بوى. ركبتى الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح
 يدخل من تحت عقب الباب. فإذا أب عار نماما، وعلى الأرض حطام

امرأة عارية متفحمة كل عضو منها في بحية، وقمصانها ملقاة
 هناك، وبطها يعلو ويهبط، وهي عذبة في ملكوت بعيد.

أول شيء فعلته أن لبست ثيابى. وهرت أريت على وجه
 الفتيلة وأدلكها في كل ناحية حتى أفاق، وبهضت جالسة
 فالبستها القمصان ومعى مشعل يكاد يفرى على إعادة الكرة
 من جديد كانت شيئا لا يوصف يا أخال. وكنت أستعسر أن أدعها
 لنفسى، لكننى دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهي تفتح باب الحاصل
 وتدخل داخله «انتظري غدا» قلت «حاضرا». وساعدتها في
 جذب الباب، ولما استمرت رأيت كل جدران العشة محترقة بمواسير
 الهذائق الصوية على صدرى. كنت أصرخ جعلت أدع في عيني،
 ثم فحمت باب المشية. لأفاجأ بالصعراء تنطرح أمامى بلا نهاية.
 وليس ثمة من أحد. ووجدتني ألم فلوسى وأحسرتها في حزامى،
 وانجهم نحو الرئيس مهران مديها المرض والإعياء، ضاليا مع أن
 يستسمح لي الحماح وهذا في إجازة أفضيها تحت رعاية أمى
 وأهلى. وكان على أن أنظر حتى الضمى لأرجع مع أحد البغال
 العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمى على أرن طريق القاهرة
 أيقنت أن الله قد مجانى من جنة في قلبها نار الجحيم، لكنى كنت
 ألتفنى وأنفخ من شدة الأسى كلما تعيلتها إذ تفتح باب
 الحاصل فلا تجدى.

الثامنة - مفاجأة غرزة المطار

ليس في هذه الدنيا حيال يا حال، لا ولا فيها ما يسمى بالمتحيل، مستحيل مانا يا بوي، البني آدم ما فرعون ولا تطف أممه سبحانه الدنيا ولا أسودها أنا مثلاً يا بوي، هل كنت تصدق أنني يمكن أن اتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟ بعدما شاب راح الكتاب امسالة كما اتضح لي كانت أهيف مما تصورت. أصل الحكاية أسي كنت تعلمت الهجائية من وكيل النيابة الذي رافقني في الزنونة ذات يوم بعيد وكتب الله لي العجاة على يديه إلهي ربنا يعافيه بالعافية إن كان لا يزال حياً ويطرح البركة في حلقه لقد كنت واقفاً من أنه مظلوم ملابد أن الله فك ضيقته من رمل تعرف يا حال، نو كان به من من الكصب أو الاحتيال أو الريف ما اعطف على حالتي ومسى حالته، علمي حروف الهجائية وطقها بعد تشكيلها وتعالى بمسئلي وأنا أنطقها شهوراً طويلة، نقل أصوات الحروف في قلب دماغي فباتت مسموعة على الدوام في صدى، ولا صرت الآن ولداً شلتاً ارتدى الكشمير والصوف والجوخ في قفطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكرونة، فضلاً عن المعصاة الكبيرة حول رأسي والمركوب النطف في

فهمي، رايت نفسي لا شغلة لي ولا مشغلة سوى القعود على المقام ليلى دهار من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهي كالتى يعرفها الناس ولا تنجرت فيها إلى لعب الكتشينة؛ إنما هي عور لتدخين التمشيش قد ولت على واحدة منها في حى فاطمة النبوية وراء جامع النبوية حيط لرقى، مكان حفى غريب الشان يا حال، لا سبيل إني إلا بحيل متحرجة، نو أراد غريب أن يوردها أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك، تلى عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحمتى لشرب حبري في السر والكتمان، فذهباً من باب بيت مفتوح ترتفع في مدج الواسع أدخنة الكوايين ولترتج أسراب البط والأور والدجاج، وأطفال صغار يزحفون في الخراء يهرشون بجارون بالصراخ، وطشوت شغل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مسمومة ومسرقة، وساء يجسن أمام وأبورث جاز مشتبعة تحت ظل الطبيع خرمث وء المعلم أبو كريشة في هرج شديد وسط هذا المدخن الواسع الذي تطل عليه غرف كثيرة ثم حودنا شمالاً حيث نبات السماء تظهر فؤاد بنا بعد خطوتين في حوش واسع، سرعان ما تبين لنا أنه بيت تهدم من سثن طويلة وما نزال بقاياها أنقاضاً مرسومة ومجسنة، عروق حشب كالبحر مسوس وشبابيك متفصصة ولوب وهديم، وحبال ممدودة مشوير عليها هدوم مفسولة ظمت أنا ستقف في هذا الحوش، لكن أبو كريشة ظل ماشياً نحو جدار مواجه هو جدار البيت للحلى المجاور، وهو بيت من دور واحد تحت الجدار اكوام من الهديم والقمامة المحمدة تسلفان حنى مسرعا فوق

سمح هذا السبت ومشياً على حافة الجدار ممعاً ثم هبطاً
 مجدداً من هدم آخر لبنت آخر. ثم صعداً على تل من حديد
 ليجد أنفساً بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأماناً للأرض
 صعدوا مترامية في السبع لكنها مسورة بالأسلاك الشائكة وقد
 تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا
 كقربان باركة على الأرض قبل أن يهدم القطعة من الأرض من
 بين الأراصي الكثيرة التي يحتلها المقاتل المشهور عثمان أحمد
 عثمان. مشيد فوق الربوة التي كانت عبارة عن اترية تغطي مقطب
 قصامة اندكت في بعضها وتمطيت. كانت تواجهنا، وتقترب منا،
 شرفة عظيمة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر، فلما
 اقتربنا منها وجدناها عرفة عالية جداً ومستديرة ونات عواميد
 وشرفات دخلناها يا بوي، فكلمنا رجلنا شرفة قصر من قصور
 الطرمين أو الحنفاء القدامى على مفاد من العيرران المظيف
 جلسنا أمامها طقاطيق محاسبية لامة، ومناشد من لفرومايكا
 وعلى بعد كبير من الشرفة للجوامية عشة صغيرة مبنية حديثاً
 لتكملة الفائدة، وضعت فيها منصة الشاي والبوتاجار، وبرميلا من
 الصاج ممطت بالنسيج المقصوص بحرفة والمتحضر بطريقة
 محصوسة ذات غطاة عصرية عريضة لكنها جانبية، وبرميلا آخر
 مملوء بالحجارة الصخرية المحترقة، وورداً كبيراً يوضح نافذة
 الرطب وعدداً من القتل المظلمة فوق صينية

محمود قعود جاءه مراد الشاي مع الأكواب على صينية تقوح
 بحطب الشاي الدفاد يجعلها شاب سموري القوام حلو التساطيع

كعصر الوجه كاس ناس، جوجول مؤدب؛ وضع الصينية بعد أن
 نظف الترابيزة بذييل قميصه الخارج من حزام البطلون الكاكي.
 قال: «مساه الحير يا معلم، ورفع وجهه؛ ففي الحال تيقنت أنني
 رأيتك في السجن من قبل وبقي أن أتذكر اسمك؛ قلت له: «استنى
 يا جدد»، وأمسكت رسمه؛ فوقف يمدق في وجهي باسمه كأنه
 هو الآخر تذكر وجهي قلت له: «كنت أسمك ايه؟» قال: «حداك
 بلال»، سمعت جدلاً «بس»؛ وقبلت قبضة يدي ثم مردتها
 وصفقت بها فوق كتفه في جازة «أريك يا بلبل»؛ إئت طلعت
 أملي؟ فأعاد النظر في وجهي بتدقيق وتركيز. قال: «العبرة»،
 قلت أنا حمس بتأخ السلاح؛ غارني في حشني ولمع أبو
 كرشف يرقبنا باسمه كأنه قد وفق رأسين في الحلال يالها من
 عصرية هينة يا بوي؛ تحلف اليمين يا حال ما حششت في حياتي
 بكل هذه الحلاوة والصفلة انجمت كائن السلسل برقوق،
 أرى القلق يستقر على مسافات بعيدة جداً كأنهم الفئران،
 والسيارات تتدفق رائحة غداية، فقبل أن في عر الصفلة أنني
 أهول في جنة عرضها عرض السماوات والأرض في مدينة لم
 أعرفها من قبل يا بوي؛ وعصبت كيف أن في هذه اللدة ناسا
 لا يجدون لقمة خير يتلفون بها وتحت بصوهم وسمهم ناس
 يرحدون في المعيم ملا حساب نون أن ترتفع السيوف والصماجر
 لطير الرقاب وتفر بطون اللصوص للبين سرقوا خبرهم. خفت
 لهره وجيرة لكنني تذكرت أنني في مصر أم العجايب التي تحمي
 جهاز القصص بل تنفسهم وترفع مقامهم بقدر كرامتهم لجوعى

والمساكين وأبناء السبيل الذين هم في العادة أغنياء عاجزون قليلي
 الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف
 اليمين يا بوى مدملت حين يهسى العلم أبو كريشة إلى أن هذا
 الطريق الذي سراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه
 البداية مجبورة له على بعد قليل هي القلعة التي بناها صلاح
 الدين الأيوبي. ذلك أن المكان الذي يجلس فيه هو برج الظفر، أحد
 أبراج سور القاهرة القديمة الذي أنهدم ولم يبق منه سليما سوى
 هذا البرج، ليخرج من السجن فيحمله ويحمله إلى غررة تبر
 الذهب ليل نهار. ووالله لقد حسبته يا بوى، لكنني حدثت له
 شجاعته وذكائه في الإنشائه لهذا الموطن المجاسي. قال أبو كريشة
 إن بلالا فمن ذلك بالاتفاق مع البيوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه
 لإجرامى إذ أن قلبه ميت كما تعرف والقتل صحنه كعمل واحد
 شئ إنه باجس، يفوت في النار والعديد، ليس يحشى على عمره
 أبدا، ما أبسط أن يطبق في صفائي أى ضابط، فكل الضباط تحشى
 على حياتها منه. يمكن أن يكسر رقبة قواده منهم كالأبيرة مع
 ذلك فهو لطيف جدا معهم. ومؤدب، وحذوم، وشهم، ولذلك فهم
 يحبروه وفي نفس الوقت يتقون بطشه، يفوتون له مراجعهم ثم إن
 أحدا منهم لا يستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يحمل يكون
 كل شئ قد صار على التمام علا مجد الضباط شئنا يصسطه،
 والضابط في النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه مدله على الإعياب
 سموم وحفان الجرمين لكن حذسته أنه لايساعده في القبض

همهم ولا يمكنهم من ذلك بل إنه حريف، هي تعطيل الحكومة حتى
 يهرب صديقه الحسن. ولد جدع بحق وحقيق

في تلك العصرية الهنية رجع أبو كريشة إلى داره بعد صلاة
 الغشاء وبقيت وحدى مع بلال. منها جن الليل فوجئت بطواف
 من الأندية المحترمين والمعلمين الكبار يهلون عليه بفحصر
 العظمى والأفيون والكتاب المشوى الساحب وعلب الكوكاكولا
 والديرة وحتى شروق الشمس كانت الطواف متراة تنصرف،
 وقد عرفت أن البيت الذي اجترقناه لمصل إلى هنا هو بيت بلال،
 سكنه عائلته، يعني لاخرج عليه إن دخلنا وخرجنا في أى وقت
 في عتبة هذا البيت عجور ضامرة لم يرها عند دخولنا تنكور
 حلف الباب تغور بفطرتها السفينة كل دحس فتعرف إن كان بها
 هي مراجع أم تلصد شرا يابن ابنها بلال: هي بارعة في إثارة
 الذعر إن تشككت في الوافد الجديد، فيعد برهة قصيرة يكون بلال
 قد بط على صورتها فصار في قلب البيت يبرى ينلسه جنية لأمر

المحقق

أصبحت أذهب إليه في باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إلى كتاب ورأيت مشوار منهم عرشفته في الليل، وفي التهار يذهب لشراء المونة، ويكون سواي الفار قد بشرى في تنظيف برميل الحجارة وتحصينها وتسعيها، في مقابل أجر معلوم وقت العصارى ووقت الليلي الحاملة نقصه كله في القرامة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمنى القراءة كما أمرت. وقد فعلها يا بوى، أيقظ في صددى أصوات الحروف وذكرىات الفتحة والصمة والكسرة والسكون، وأضاف في قواعد النحو والإعراب، وهذه الأخيرة لم أفهمها جيدا لكننى في النهاية أصبحت أمسك بالجرنان وأقرأ فأعرف كل ما فيه وأقرأ الرواية فأفهم كل شيء فيها كل ذلك بفضل بلال في وقت لا يهدى عن عام كنت من جبابي أساعده في الشغل وأحشش وأبسط أحر أبسط بل وأقبض بفتشينا ثميننا من الرديش المتريشين. طيب ما فوك يا بوى أمسى ولغت على بلال وبرج الظفر حتى صرحت لا أرى شفتي إلا عند النوم وكان عشي أن يكون بلال سندا لي وعونا على إزهاب التومسات اللاتى سكنت بجوارهم. وطوال هذه المدة القليلة لم أر البوليس في الغرزة أبدا نكسى رأيت بسموسة مرتين، مرة حين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لي الشقة ويطلب حلاوتها، ومرة في الشارع وهو ذاهب لمشوار قال لي وهو يسرع في المشى «شلة المحس تسال عنك» حاول أن تراءى» غير أمسى كنت ميالا لمسيان الشلة ووجع قلبها، نكسى دم أكن أعرف أمى محاصر بها يا حبيب ففى ذات مصرية رقيقة السمعات. وفيما كنت ولال ببدال القراءة في

رواية اسمها الكابتن مورجان، إننا بهم الموت يهبط علينا، أي والله يا بوى، بريش وعرولى وهندى، هكذا دعمة واحدة، فجاء رايد خيالهم يقترب ما كيف دخلوا؟ كيف صعدو ربوت الهديم؟ كيف لم يشعر بهم؟ هذا ما لم يعرفه يا بوى. إننا أنا أول من راهم، فتسمرت في قعنتى مبهوتا لا أقوى على التلق بى إن قلبى سقط في بئر سحق، ظننتهم جاءوا للبحث عنى يا بوى سرح خيالى بعيدا، تحيلت الحاج السوى وقد اكتشف صيدع الآثار من مطبونه فحلق وتحرى لهم هاتو لي حسن من تحت طفاطيق الأرض أدهلى أن الولد بلال ما رى راهم حتى انتفض قائما فرمى بالكتاب وهات بالاحصان يا سلامات وتعالى يا قبلات وروحي وجهش يا شنائم بدينة يفسر منها الجدى، فهم بهم وبينه عهابيه أنتم تعرفون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم فظفرو لي ساخرين وهيونهم تقول أتعرفه أنت؟

تكلم بلال بالجاب. «كانا ملاء في المدرسة يا أباه عسى بريش هذا راملى في قضية شبكات بنوى رهيد وشركة وهمية لتضليل المصريين في الدول العربية! عرولى كان مكلف بالقض على في قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة» وكان عرولى ينادى كل يوم هيفتسم القلة عفى ويتركسنى أدم في بيتى هذا الفترى كثيرا مادلى على الضحايا التى يجب أن مروق سونا من وراثتها» أما هندى فقد راملى سمجى في قضية بروج عملة موية إنها عشرة عمر يا أباه عسى» يمشى ومع السحر قوى من

العيش ومنع آخر وأنت أدري طبعاً، ثم استقل معروف^٥ وكيف حال بسوسنة ياشلة النحس والعريشة^٦، أشار بريش نحوى بلهجة ذات معنى «اسأل أبا علي» إنهما الآن حباب سمن على غسل يخدمان معصهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا^٧، هبنا سهما على كل حال، نحن لانكره، ولكن كنا نتمشم أن تكون نا الخلاوة ولو بسهرة صغيرة على الفد^٨ لكن هذه حال الدنيا من هو يعلو وعلى الهافى السلام^٩، قلت مبتسما فى وهو دملحوق عليه بريش، أما يا دوب سافيق من وجع الدماغ، وعلى كل حال ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدهما أنتم الليلة صيوفي^{١٠}، كان الزهو يبق بى محظتها، ليس لأنى تمهرت عنهم بشقة ثمينة يحلم بها وكلاء الودارات بل لأنى صرت اعرف القراءة وإن كنت غير قادر على الكتابة إلا أسى أصبحت أفهم ماذا تقول الجرائد، قال مرولى «العب فيها يا حسن» الليلة نحن معروفون عند بلال مد شهر مبخى، لا تأكل بعقلنا خلاوة^{١١} وعرومتك لا بد أن تكون كبيرة لا أقل من خروف يذبح ورجاجة ويسكى تفتح وأوقبة حشيش تحرق فى شفتك ومعا بلال^{١٢}، حلق قلبى يا بوى، أما تعبت أمركم فى اليوم الذى يعمىكم ورقبتى بدلا من الحروف^{١٣}، قال بريش «مصر معروف وأنت معا يوم الجمعة القادمة عند الحاج أحمد نور الدين السبى مناسبة عيد ميلاد أمينة» تصور أنه رعى لنا من أجلك^{١٤}، ضل أمنا أساما معاملك حابعدت عنا وقال إنك أجده واحد منما فى نظره، فطبيعة أب وهو فى يوم واحد،

فتمكنت بتغير اطمئنان^{١٥} لكن صوتا فى رأسى قال رح معهم ولا يهك وضع أصبكت فى عين التحسين ما دام حاميها حراميها.

فى تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس، ظهر لى بلال أجده وأرجل معا توقعت دبح جديا صغيرا واشترى رجائين من الكوبيك، وبصف أولية حشيش، جهر كل نك دون أن أعرف وجهه به فى وقته، فكانت ليلة ولا كل الليالى.

التاسعة . الولاة المنسية

صوت اشترى الجريش كل يوم طبعاً يا بوى، بل حسرت
أحمرى على شرائه وقراءته من الأعمية الذين يتناهلونه
ولا يقرءون فيه سوى اللافعات الكبيرة أما أنا فالقلبي صفحة
صفحة ركننا ركننا، سواء فهمت أو لم أفهم؛ قلبي فك الخط
نفساً لذيذة عاية اللذة يا بوى، ومن قال إنى لم أفهم؟ لقد عرفت
أشياء يكاد رأسى يذوب بعجزها، وأسماء ما كان لى أن أعرفها هي
عشاء الأمية رغم أنها الكل في الكل في حياقتنا وأصورنا، عرفت
من يكون الوزير ومن يكون الخفير وما الوزير وما الخفير حتى
الاستغابت التي كثيراً ما دوشوا بها دماغنا في البلدة وتقاتل القوم
يسميها عرفت حقيقة أمرها وعرفت الدار التي يجتمعون فيها
ويتكلمون في أمور الحلق ومشاكل البلاد لكي يعلوا في النهاية
مشاكلهم هم، عرفت ما معنى أمريكا وروسيا وجلس الأمن
والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، عرفت أننا والعرب أخوة في
الدم والعرق والأرض واللسان كما أننا نصلى لإله واحد ويهددنا
عدو واحد قصير القامة لكنا لا نرى سوى ظله الشبحي مستطيلاً
إلى منا نهاية عالم، عرفت ذلك اندفشت ما بوى كيف يكون إحوة

بكل هذا العدد ودار بكل هذا الاتساع ويهددنا عدو جريش اسمه
إسرائيل؟ تحلف اليمين يا خال أسمى ما كنت سمعت عن إسرائيل
هذه من قبل، أصلهم ما أنجلونا مدارس منهم بله ووالله العظيم
فلاتا يا بوى غير حلت ولا أثم إسمى انقص قلبي لما عرفت الآن
أن خمسة من ولد أعمامى ماتوا في حروب مع هذه العدوالة
بهاز دون أن يصروا من هو العدو أو كذا، هذه الحرب ما كنت
أعرف شيئاً من هذا يا خال، فمحمدين مات في السويس وهذه
بلدة معروفها ولنا فيها أقارب؛ وعريبي مات في سينا وهذه منطقة
هربل ما كنت أعرف أنها تبعنا لاني كنت أسمع الفقيه يقول إن
الله كلم موسى فوق جبل الطور في سينا وأن موسى هو بوى
اليهود وصالح مات في الإسماعيلية التي كنت أعرف أنها بلدة
الطليخ وهوضين مات في المريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن
سينا، وصابر مات في بورسعيد ما كان أحد يقول لنا إن التي
فلتت ولد أعمامى هي إسرائيل، حتى أيام كنت أبيع امشاريب في
المسك لم أكن أعرف شيئاً من هذا، كل ما عرفت أب في حرب،
وأني حرب لنا لايد أن تكون مع الإنجليز، طول صمرنا لا نعرف ما
هووا غير الإنجليز، الدور والباقي على هذه التي طلعت لنا في
البسح وأسمها إسرائيل سالت وأيس يكون مكانها؟ قالوا في
فلسطين في القدس الشرقية شحصب شوكة هي إند وانفرست
في قلبنا، أول ما عرفت ذلك قلب من طسنتي وأيه يعنى، مرمها
ونرميها، الآن رجع لى عظمى فابقتت أن مرمها يعرثك مرمها
لما العمل إند يا بوى وأنا مرادى الآن أن أجد بشار، ولد أعمامى؟

هد، ما يؤرقني الآن يا بوى لكننى قلت لنفسى هذا موضوع كبير
تليك يا والد أبى صب فعدك منه حتى يقضى الله أمرا كان
مفعولا

— «بنا يا رجال؟»

— «على الظالم؟»

ثم وقعا لحظتها انتهت إلى أن الجيشيش البريمو قد سرع
بدماعى وبحر فى جلوس فى قهوة صفصف بصطبح عصرا
وبهين أدمغتنا قبل دهانيا إلى حفلة عيد ميلاد أبة الحاج أحمد
نور الدين السنى طوبت الجربان ووضعت فى سياتي، ومضينا
فى الشارع العمومى لقسم ولنا ينادى على جريدة المساء
فاشترت واحدة وجعلت أنطلم فى لافتاتها وبحر ماشوى، وشلة
الحس تنغامر على رنفحك مله الأشفاق وأنا غير حافل بهم ولا
بالسيارات الماركة من حوالى

دعش الحاج أحمد نور الدين السنى حين رأنى، ثعلف الغيمين
كأنه مشتاق وبه نوعة، مانحسى يا ولد، فارشيت فى حضنه
شاعرا بالطماينة من ناحية حلقائى النظيفة منه وأكثر صار
العكروت ييمدسى عن صدره يمدى ويحذق فى وجهى وعيسى
بنظرات حبيثة مأكرة «جبت الوجاهه دى كلها مبين يا ولد» ما
شاء الله ما شاء الله ربا فتح ظلك أنت على كل حال تستاهل
كل حيدر يا مقصوف للرقعة كل واقعا على باب الشاير
ليسنقبل صبوته وثمة من يصطحب القابضين إلى اثنلحل وكان

الشارع قد امتلا بالسيارات الميجمة ذات المناظر الصخرة اللامعة.
بعضها بلوحات بحر زرقاء وحمرء وبعضها مرفرف على مقدمته
الأعلام، ومبها ما يبدو أنه طالع لتوه من القابريقة وكان واضحاً
أن الحاج أحمد نور الدين السنى مشغول بمقدم ناس مهمين إذ
كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا فى ناعلها مستعد، للترحيب، طالت
وقفتنا والحاج مسوط بوقوفنا معه، به مشكل وفدا ياس به فى
استقبال الوافدين ثم إلى سيارة مجنة مهيبة رست على الصفة
المقابلة للشارع ابفتح بابها ودرل منه سائق يرتدى بدلة سوداء،
تقدم نحو كشك للسيانر وتكلم مع صاحب الكشك ولاخطا أن
صاحب الكشك يشير له نحو الشادر فركب السائق ولف
بالسيارة حتى حادنا السيارة بمر قليلة العدد ومكتوب عليها
ملاكى أسيرط عب الحاج للاستقبال هداث ديا مرحب يا
مرحبا قبل السائق مسوعا وفتح الباب الثانى فدرلت معه سيدة
ترتدى فصر الثياب، وفرو الثعلب على كتفها، رأسها مطوف
بطرحة بيضاء من الصرير الشفاف يشى بوجه كالفصر، سمورية
القوام مشوقة الفد منصطة الهدام والنمو كصابط أبيض مهيب.
هدت يدما للحاج السنى، فسلم عليها بحر ه شديدة، وانحسى
لفبل بدها. كانت عيناها متعرقان قماش الطرحة وهى مطع علينا
ولحنا بعد الآخر مع انتسامة تحية بكر عينيها عدما وقعا على
وجهى تلكا قبللا ثم بان فى مورها ما يشبه الدهشة أو الحاجة،
حتى أن لمحيتين بعد أن تحولتا من وجهى عادتا فنظرنا فيه من
جديد شىء من التاك والاشفاق، ثم انصرفتا على بهان

قلبي أكلني يا بوى، فهذه الساحرة المنتكرة في ثياب الابهة تحلى وراء هذه الطرحة الصريدية عهرا وصياغة أكثر من وعشرين من أمثال بريش وعزولى وبلال. يبدو يا بوى أن وحدة الصياغة والعريضة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كابها من يهمني أمرهم. استأذ أعرف من منظرتها تلك أمي تعتبر حريشيتي أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد أمخريش تقع على مخريش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مراج من الخوف وإرسالي التحية. على أن الذي استقر في فعر دماغى يا حال هو أن هذه الصمصاء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادنى. طبعاً يا بوى، فما الذى يجيء بوحدة كهذه من أسيرط إلى هنا بصحبة سائل خصوصى إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها، ولابد أمها في حورة عيني مكسور المبهين مبيض الساجح أياً ما كان أمرها يا بوى لقد وجشيتي أهرول خلفها مشدوداً إليها بمقود خفى، والحاج للمسى يهادىي ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامساً في تصدير شفى «بالراحة! بالراحة»، فهذه من حضرى، ولاخ لى أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها كأن واضحاً أنه قد تأذب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشى في حضرة رئيس البلاط ملت عليه هامساً في ايهار «من الأميرة هذه يا حاج؟». فقال على أنسى هامساً في جدية شديدة «هى هي الشبيخة سماعة! من أعيان محافظلة أسيرط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها هي مكانها لثمت فوق بساط من الذهب وما عشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكفى من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!»، وعمرى لاسكبه، فقلت في ليدجة «نكر ما شغلشها يا بوى! أسالك عن شعلشها!»، عمرى مرة أخرى، قال هي حدة وعراقة! لا مثيل لها في العالم كله! تقرأ بالإسبان كتاب حياته من طلق أسلامو عليك!»، ثم لكرى وثقده إلى البوابة الكبيرة ففتحها كي لاتحس الشبيخة سعادة فكان رواية الجهة قد انفتحت يا خال، بحر من الأصواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحواط مردانة بلوحدات جدانية، وتماثيل من كل الأحجام ملقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإهوانات والجواري يقدم الكنوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايع بلهاء بلهى طويلة وطراهير كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على لأرض والهدران ودرجات السلم العريضة التي تش تحت أقدامنا أنينا عاهراً لوعها طول العمر لم أعد أعرف لى أى طابق من الطوابق صرنا يا حال! لكننى أنكر أننا صعدنا طويلًا يتقدما الحاج السننى ومن خلفه الشبيخة سعادة تخطى على الدرج كالقراشة كخرس النوى، ومن خلفى شلة النخس التي صارت تتكاثف وتترافف، ويقترصنى همسمهم بأن لك قد بلغ فى صورتنى وأما أكنم الخمك وقد قر فى بالى أنسى لايدان أكون معترفاً في حضرة الشبيخة سعادة بأى شكل! لا أدري يا بوى كيف جاءنى الوحى بهذا! تحلف اليمىي أن الوحى قد عرفته! فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينم تستدير الشبيخة سعادة لتجود مع إعطافة السدم كانت تدير رأسها حلقية

قلبي أكلني يا بوى، فهذه الساحرة المنتكرة في ثياب الابهة تحلى وراء هذه الطرحة الصريدية عهرا وصباغة أكثر من وعشرين من أمثال بريش وعزولى وبلال. يبدو يا بوى أن وحدة الصباغة والعريضة المطة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كابها من يهمني أمرهم. استأذ أعرف من منظرتها تلك أمي تعتبر حريشني أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد أمخريش تقع على مخريش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مراج من الخوف وإرسالي التحية. على أن الذي استقر في فعر دماغى يا حال هو أن هذه الصمصاء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادنى. طبعاً يا بوى، فما الذى يجيء بوحدة كهذه من أسيرط إلى هنا بصحبة سائل خصوصى إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها، ولابد أمها في حورة عيني مكسور العينين مبيض الساجح أياً ما كان أمرها يا بوى لقد وجشنى أهرول خلفها مشدوداً إليها بمقود خفى، والحاج للمسى يهادى ويسك خلسة بأطراف أصابعي هامساً في تصدير شفى «بالراحة! بالراحة»، فهذه من حضرى، ولاخ لى أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها كأن واضحاً أنه قد تأذب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشى في حضرة رئيس البلاط ملت عليه هامساً في أيبهار «من الأميرة هذه يا حاج؟». فقال على أنسى هامساً في جدية شديدة «هى هي الشبيخة سماعة! من أعيان محافظلة أسيرط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها هي مكانها لثمت فوق بساط من الذهب وما عشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكفى من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!»، وعمرى لاسكبه، فقلت في ليدجة «نكر ما شغلشها يا بوى! أسالك عن شعلشها!»، عمرى مرة أخرى، قال هي حدة «عراق! لا مثيل لها في العالم كله! تقرا بإلسان كتاب حياته من طلق أسلامو عليكم!»، ثم لكرى وثقده إلى البوابة الكبيرة ففتحها كي لاتحس الشبيخة سعادة فكان رواية الجنة قد انفتحت يا خال، بحر من الأصواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء وبرجات سلاط وحواط مردانة بلوحت جدانية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإبواب والجواري يقدم الكنوس ويعزقن على الآلات الموسيقية لمشايق بلهاء بلهى طويلة وطرايط كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على لأرض والهدران ودرجات السلم العريضة التي تش تحت أقدامنا أنينا عاهراً لوعها طول العمر لم أعد أعرف لى أى طابق من الطوابق صرنا يا حال! لكننى أنكر أننا صعدنا طويلًا يتقدما الحاج السننى ومن خلفه الشبيخة سعادة تخطى على الدرج كالقراشة كخرس النوى، ومن خلفى شلة النخس التي صارت تتكاثف وتترافف، ويقرصنى همهم بأن لك قد بلغ فى صورنى! وأنا أكنم الخسك وقد قر فى بالى أنسى لايد أن أكون معترفاً في حضرة الشبيخة سعادة بأى شكل! لا أدري يا بوى كيف جاءنى الوحى بهذا! تحلف اليمى أن الوحى قد عرفته! فما بين بسطة سلم والأخرى، وبين تسدير الشبيخة سعادة لتجود مع إعطافة السم كانت تدير رأسها حلقية

بنظرة مشرقة يجلب في ضوئها عن وجهها قماش الطرحة البيضاء الجريدية فأرى على وجهها سعادة فائقة، حقاً صدق من أسماها الشبيحة سعادة..

هزنا في مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فحم، يحتشد بالأصواء الملونة الحافطة يبعث منها الهدوء والدفء كأنها شموع جفينة، يحتشد كذلك بطريق حافت لكنه عميق تسمح في أعناقها دورة الآث موسيقية حبيبة ودينة أصوات سرعانة بنفسها و مائل هذا البشر يا حال؟ تحلف اليمين أنه قاعة السجما أو مسرح الريحاس، كلهم ينحسرون يتقلدون البكوية والبشوية وثمة حدم يلبسون الطراهير والجبب المركشة باللصب يمررون بين الجلوس حاملين الصواني المألوة بالككوس اخترعة بجميع أنواع اللحم، يعطفون نحو الجالسين في حلقات حلقات جماعات جماعات أسر أسر، فإذا بكل واحد من الجالسين يأخذ من فوق الصينية صفا معينا من المشروب الذي تعطي الصواني بجميع أنواعه ألوانه ماركاته، لسانه كجواز النحين يا حال، ورجال كنوار القطن تتمكن عينيهم الأصواء بالوان حلابة، والجميع في شرب ولغو هامس وضحك رما: صحك النساء هو الأوضح ككقرات الإيقاع كشظلة الدقوف في معرفة هجبة مهيبة، تمت من كل حميلة شقشة عصفور أو عصفورين، من الواضح يا حال أن محلا كبيرا من محلات العمور و لأطعمة والحلواء قد تكفل بإحياء هذا الحفل الكبير أما المقاعد والسجاد فكلها مذك الدار وهي راسحة في

مكانها معصلة على أماكنها فهذه حميلة من الكنب البدي الفاخر، وأخرى من الكنب العباسي المطعم بالأصفر على شكل الثرييات وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل اقتاج الملك، ورابعة من أسرة وأرائك فرعونية كالتي براها في صور توت عنخ آمون ولد بلدي، وخامسة من الشنت والبفت الجلدية والحديد الحشبية المنجدة كالتي برها في معروضات خان الخليلي، وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجر رمزية من ستر وعمدان وقوائم خشبية مشفولة كالمشروبات مشرقة

جعلنا نمشي كالبهاء نتصانم في الخدم والنوادل، والحاج فاض أمامنا يمدح مشيته التي يشيها وهو ذاهب إلى المسجد، مدح القاعة قليلا مبررا من بين كتفيه ما يشبه القتب الطفيف، واضعا يديه خلف ظهره فرق مؤخرته تمام، ولمسحة تتدلى بينهما، وشفتاه تمسحسان كالعادة بكل ما عطف من التسابيح والأوراد، خلال لحيته الطويلة ترتفع وتخفض مساعدا ههجة فوق الأجساد والكنوس والأصدة واجهت مربع محدد يسور من العشب يرتفع عن الأرض بأرض خشبية ارتسعا مقدره ثلاث درجات سلم، يجلس عوق عريق من الآلاتية والغبابيين وفي المنطقة للجاورة لها المربع تجلس وجوه كثيرة مشهورة كلها ممن تنشر الصحف صورهم، وكنت أعرف أن وراء هذا المربع المسرحي عرفا صغيرة كعرب الحوملك ومجلات أدب، ووراءها فراع السقف كشركات شدات وأعاريز عالية محروطة

اقتادبا الحاج إلى أكر شرفة، وهي خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس في مهاينها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفي بقية القاعة عبر ممر في عرض المسرح في حين أن الجالس في القاعة قد لا يتمكن من رؤية الجالس في هذه الشرفة أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرة لا مثيل لها، لا أحد يعرف إلى كانت من الخشب أم من الذهب، صاعدة بالقطب لم يريش البعد ثمة ناس جدار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب أمامهم الكراسي العباسية فوقها الصواني الفضية تخرج بالكثوس والرجاجات من كل الأشكال والألوان ما إلى راوا الشبيخة سعادة مقبلة عنهم حتى انتفضوا جميعا واقعين عابثين دخل عليهم أبوه المرحب تولفت الشبيخة سعادة لبرهة طويلة، ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد وصار الحاج من جوارها ييلنها «سم كل من تسلم عليه وزيلفته» وبعد الوظيفة العنفي يمسك عن ذكرها ويكتفى بتنظيم الاسم وتلصيقه فلما جاء عند الرجل الشبيخ بابور السادات الخالق الماطق أشار إليه برصشة خجل مصطب كهي، قائلا «محمد بك أبو شاف» طبعاً تعرفينه» فهزت الشبيخة سعادة رأسها وكررت السلام بهراوة «أهلاً أهلاً وهل يحلى القمر» فاستدرك الحاج «ولما علم أنك ستشرفيننا البيلة كان يرقص من الفرح» وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تفتح له الكتاب» قالت الشبيخة سعادة «ربنا يوفقنا في خدمته» إن كتابه مفتوح وليس محتاج إلا لمن يحسن قراءته» امتص محمد بك أبو شاف عن حنك واسع وقال «هذه إن هي مهمتك»، وبدأ

في نبرة صوته كأنه يصدر أمراً بلك، وكانت زبيبة الصلاة على جبينه للورق تبدو كالرسومة بهيب العن أو كحبة توت مشبكة لي ثم جبهته المتثنية» أحلث تعلق وتهميط علامة المرح وهو يستدرك «ولكن عفوا ست الشبيخة» إن كتاب حياتي حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات» فتهلج الحاج السني وبعض الحشية، مما أغرى محمد بك أبو شاف بالحققة معهم كأنه قال درر» نادرة قالت للشبيخة سعادة «كتاب امره مقروء إلا لحييه هو نفسه ونذر من يستطيع قراءة نفسه» المرة ثلثت الزبيبة في جبهة محمد بك أبو شاف فأهذت تنفض» فيما استدركت الشبيخة سعادة بسرعة «إس على كل حال لست راجعة بالغيب» ولست هالكة به أو بأي شيء من أمره» إنما أمك مراة ورثتها من أجداد أجداد أجدادي» وقد وعسى الله حاسة أرفف وبظرة أعمل وأند وعقلا أندر على ربط الأمور والأشياء ببعضها» قد أصيب وقد أخطئ» لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما في ناس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أو كدر» من روقان أو عبوس» من شافية أو عنام» وفشا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا عن حير ما يمكن».

قالت هذا وهي مطرفة برأسها في قنين من الحياء وكثير من الأدب» فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شاف قد تجمدت شاماً في مكانها، ومدر هكة الأسفل يتدلى فيما لا يعرف إلى كان يتسمم أم يتلطم» لكنه قال مشئ من الشهامة مشيراً إلى

مقعد بجواره «تفصلى بالجلوس»، فاستوت الشیخة سعادة جالسة، وكانت قد حفظت قلبى بكلامها. ثم إنى تأهيت للانطلاق إلى الحفص، لكننى ما كنت أستدير من الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت للشیخة سعادة دواعها مشيرة لى. «تعالى يا ولدى! ما اسك؟» «تفصفت من الفرح» «هناك حسن أير ضب» هرت رأسها كأنها تقول: «اعرفه» وأصممت أنها تحتل ابتسامة شقية بین شفتيها الدقیقتین؛ وتبسم الحاج السنسى قللا فى شقاوة صبيانية مرحة «تعرفينه یا ست؟ كنتما بلديات على كل حال» «قالا: «أبغى مساعده لى فى مهمتى الليلة» وقد توسمت فيه الطهور والعفة» «السعادة كلها لغت فى عینی الحاج السنسى، فاندفع صاشها بهجة حادة دات معسى وهو يهرا فى وجهى» هذا ؟ أه من هب، «ألفيت إليه نظرة استرحام، لكن الشیخة سعادة ردت مسرعة» «اعرف إنه ربما ارتكب بعض المفاهى تحت ضغط قاهر لكن من المؤكد لى أن قلبه سليم» ونعم بلى» وصدرو حال من الشوشب والأحقاد! وضغيره موبيا للصغر فى كل لحظة! لولا أن الحاجة أحيانا تكرر أفوى عنه! كلفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز! إن الله سبحانه وتعالى يفر للمحتاج» «الولية تعرفى إن! یا حال، تلحف اليمين كادها مشات معى، لكنها یا حال تبدر كما مو كانت تقول كلاما حفظته من قبل ودریت على نطقه قال الحاج بنفس الشقاوة «هات كرسيا یا ولد و اجلس محوار الشیخة لاتسرحها أو تصال فاجلس هاهنا مكانى»، وتعلی عن همار حشبنى مبدع كان مجلس عليه بالعرس، أما أنا فاستويت عليه

ولمّا بعد أن عدلته لانتكن من رؤية المرقعة كلها! لكننى بعد أن جلست لأحلى الكثير من الكثر والضيق والندم» فبعد هذه اللحظة قد حرمت على كل هذه الحیدرات لثبوتها ههنا بغير حساب، وقد كنت أسمى النفس بيصع كئوس أرطب بها جوفى الصادى، فكيف أشرب الآن یا بوى بعد أن شهدت لى الشیخة سعادة بهذه الأوصاف؟ الحق لله أن حالة من الرضاء عن النفس رطبت جوفى یا بوى! أمكننا أنا إنى وأما لا أدرى؟ كيف یا حال؟ لعن الله الشرب بعد الآن، ولكن لا، فلنكن هذه الليلة فى آخر الليالى التى أعصى فيها عصيانا بسيطا!

ثم ظهر الحاج السنسى مقبلا من شرفة جانبية خلفه سميرة كعيت من بيات الحور اللاتى تعكس عيون الحواديت صرع من الراى السرح له برورات شقيقة دقيقة من الحلف والصدور، وعنى من المرمز، ورأس مديب الدش كراس سفرتينى، أى والله یا حال أميرة قرعوبية من سلالة لم تنقرض بدرتها. تلحف اليمين یا بوى إلى الحاج السنسى لايد أن يكون قد حشر عليها حية فى حفرة فاقشاهها وألبسها فوق لباس العصر حلبيها القديمة. قلت بنفسى، لايمكن أن تكون هذه هى ابنته صاحبة هذا العمل المهيب البهيج فى نفس الوقت لايمكن أن تكون من بيى الفئات المشتركة فى الحقل! قمتل هذا الجلف الصدى! لاأخرج من صندره القشدة الطارجة! والصفاء عددا ليس يصرف عنى هذا الوقار الجميل وهذا الكبرياء للشامخ الذى لاشك ورثته كأهيرة من ظهر أمير

يا بهو يالى عندها، وهي تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها
 الذروسوقراطي يغطي على كافة الطور المنلعة في القاعة.
 اقتربه الحاج السبي من الشيعة سعادة وانحنى مشيرا إلى
 السيورة العارعة 'دوت القلوب' ابنتي'. فهضت الشيعة سعادة
 وعانقته وقبلتها في وجنتيهما، والحاج السبي يواصل الكلام في
 نبرة راعشة شجبة ما عدى في الدنيا سواها! لا ولد ولا زوجة
 ولا أحدا مند أن المستكر الله والدتها حرمت على نفسى الزواج
 ووهبت كل وقتي وحيي لقوت القلوب! مائ كله أن يأحد الله
 بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريها! تصالي يا قوت
 القلوب وسلمي على عمك محمد بك أبو شاف'، فلمعت الأساي
 المعدنة السدودة في حنك محمد بك أبو شاف وثراقت الربيبة
 على جبينه وهو ينفخ والفا ولولا الحياه من الشيعة سعادة
 لالتهم البت في أحضانه ومصمصها مشفتيه هاتين الفليظتين
 الشهوانيتين يظهر يا حال أن البت شعرت بالرعب لما واجهته،
 فتسمرت في مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر،
 وانصت قليلا لتحصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهي
 تضسك في حذر، ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه
 لأهم تهيأوا للسلام عليها قال الحاج السبي 'تستأن منك قوت
 القلوب يستأ الشيعة لتحتفل بصاحباتها وفي آخر الليل تجي لك
 لتفردين بها على رواق'، هزت الشيعة سعادة رأسها في
 أريحية 'ليلة سعيدة' قوت القلوب' إن شاء الله محضر في الليلة
 الأكبر رأسها لقريبة دعوى الله وقسمه د' فضحكت البت في

حجج وتنازل، ثم هزت رأسها مسداته ومضت. تابع مؤخرتها
 الساجية حتى أحتقت في ممر الشرعة الجانبية أما الحاج فقد راح
 يتحكك في الصيوف كالديب (علق، ثم ما بيث حتى أحتقن إن في
 إلا برهة حتى دعيت الشيعة للعشاء عهضت ومصت حنف
 الباعى في ممر الشرعة الجانبية، فانتهرت أما الفرصة وقمت
 أشرف حالي أبحت عن شلة الحسن مضيت في نفس لمر، هزت
 بالكثر من شرفة، هبطت سلم إلى الدور الأسفل، فإد أما بقاعة
 هتلي بالثوائد الحافلة، كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها
 عشرة أشخاص، تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق
 ويضعون غيرها حتى يجي حلو الحقام إيدان لهم بصادرة ائدة
 لهم تنظيفها في الحال ليحتلها عشرة آخرون كانت شلة الحسن
 منهمكة في غسل أيديها! إلا بسبوسة فقد كان قدما يتوه ساعدا
 من أسفل، احتصمته، ثم جلسنا معا على مائدة واحدة جي
 بسلطانيات الشورية، ثم أطباق الحصار بالنعم، ثم أطباق المحشى
 على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم ألباني الار بالصلح،
 ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفتح ورتين وبلح وعلم جراً،
 ثم أطباق خبر حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والار بالنبي. مسك
 الضمائم فابض يا بوى في طريقى إلى دورة امياه لغسل يدي
 لعت غرولى في نهاية القاعة قرب السلم، فمخر لى شفتيه
 وعميه في لتحاه الصعود، ولما رأى تعثرت في الفهم شوح
 مدراعه نحو حقة للبرج الفوقانية هزت رأسى بالفهم والوافقة
 ومضيت مفسلت يدي بسرعة ثم اتجهت إلى السلم لاحظت يا

بوى أن الرجل المديوب قد رفع كل التماثيل والتحف والاشيكات
التي كانت متناثرة في كل مكان، لم يبق إلا على للمحمية داخل
دواليب رجالية معلقة بأعمال حفية رجل كهين يا بوى وليبر
سهلا أبدا أبدا أبدا.

ظننت أن شلة النجس تريد أن تقسم لنفسها قعدة جانبية في
عرفة البرج تشوف مراجعها يا بوى، حقها صعدت السلم يا بوى.
مروت في صعودى مضجة الفرح مساعدة من يثر السلم وقد بلغت
الصليلة مداها يا بوى، وثمة مضجة من مضجيات الراديو تسمى
إبوة أه، وصحرت من الأكل قبلها تصفق لها على الواحدة.
وزعزعت على السطح فوجئت بطفل آخر، نفس الأصول، نفس
التجبهات ولكن بحضائر ملونة فوقها شلت. والجور شغالة
تبرق بالذهب بين مجاميع متعددة وكل من عرولي وبرش
وهندى ممسكا بجورة ومصفاة نار متوليا سقيما جماعة كان
يسبوسة قد لحق بي على البسطة الأخيرة للسلم وهمس في أذني
فأثلا فيما نتباطأ في الصعود

« مثلما لا يجلس مع العظم الثقيل يا حسن! إما ميرر وجونا
معهم أن تكون خدما لهم! هدم خدم المه أن ندوق حلم
الصلواة العشيبيش الپريمو العالي! التسمياتها والويسكى
والكرفورية هؤلاء الذين تراهم أمالك الآن بين برق الحدارة
ولهب الكيف هم صغوة من يملكون الأمر والذهب في البلاد»
نيسوا أصداب مناهد ولا يخربون! الصنعب لا يعرف صوره

« لا أسمعهم! كما أنهم لا يدخلون معارك انتحابية ولا ديوبو»
يتركبون عيرهم يقوم ميادة عنهم بتدبير المكبات ودرس الدسائس
وليس الحوازيق النهائية وهم - هؤلاء جالسون يحششون
همكرو يرسعون في أثناء الرافعات في اهت التليالي في أشد
الآزمات التي تمر بها البلاد! يقولون إن الثورة أمت الأراضي
والشركات والمصانع وصارت الباشوات والإقطاعيين، أما هؤلاء
الذين يجلسون أمامك الآن فيزهم أموا الثورة نفسها! إنهم هتوات
التنظيم ترى أبناءهم والأنيشهم يكتبون امتحانات الجرائد
ويتكلمون بالإرهاب في الإداعة ويمطبون بالشماس في
سراقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التي كان يهيم بها
لباشوات في عر شراثمهم! يلحقون أولادهم بالمدرس الأجنبية
يستغيرون لهجة الميوعة والعشوية تقليد، لانس الباشوات إنهم
يلحقون الأموال والنقود ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها
هتاه من مسخرة في حارة درب عجور بين اثنين من مسلفي
الاتحاد الاشتراكي إلى مسخرة بين عبدالناصر وعبدالحكيم ومعهم
في يلبس ثياب الثورة وهو من آله أهدائها! وقد سمعت الحاج
النسي ذات مرة يقول إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء مهم دخل في
المعارك بين أمريكا وروسيا وبين روسيا والصين! وهم وراء
الموارنة والشيعية في لبنان والأكواد في العراق والسرير في
المغرب والجنوب في السودان! والإخوان المسلمين وأسيحيين
في مصر! هكذا قال لرجل الكهين معصمة لسانه عن هؤلاء
رأى يا حسن أن يعهد عن هذه المجموعة! فلو عرفوا أسمائهم

وشخصياتنا قبل نفر منهم إلى الأبد! سنحظى مدى الحياة خدما لهم! يفروننا بالفتات الدسم لكن أحديتهم فوق رموسنا! دعنا نكرر أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لا بد لهم من إلقاء الفتات في صناديق القمامة قائم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة! غرولي ويريش وهندي أرباب سرايق فاسدين جعلوا من أنفسهم صناديق ربالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة! تصرف! وسمعت لليلة أنك ابن نسل طاهر طيب! وأما أبشرنا! من الليلة سنكون أصحاب المظلة عبد الحاج السنن وكل أتباعه ومعارفه! هنينا لك بأعم! فانا إبن بطون في أن أنصحك نصيحة أخ غالية! أبعد عن شلتنا هذه مهاتيا! شلة الحس ما أقصد! أنت لست متنى عدم المؤاحدة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دور أن اثوث بصرانهم! ولكن تعال! ففي غرفة البرج ناس احلى من هؤلاء الذين يملئون السطح وأعم بالنسبة لنا ولا بأس أن نكرر خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يملطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير يستدول نظرا لإفراطه في الأماقة وليس الشباب رغم أنه مجور كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجس متصل بالرياسة شخصيا! لا جد يدري ما شغلته في البلاد بالضبط لكنه وارد في كل مناسبة واسمه مدرج في كل نصيبة! يقال إنه أفضحك الشخصوسى للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه في كثير من المهمات والمشاوير كما أنه سفير للرئيس في كل مكان يتخرج الرئيس من لرتيانده! هو رجل امرأة حل بالك! لكنه حليف الدم مسعة! غير أن احترامه من احترام

كوكيس مع الأسف! وهو ووجه دائران على حد شعرهم في كل مكان لا تلق أمامهما حواجر أو سدود! كل واحد من ناحية! ولهما صنادقات عالية المستوى في جميع أنحاء الكرة الأرضية هطال أملاك! تعال بفتح مجلسهم لثرى بنفسك!

كان الكلام قد سرح بنا إلى حافة سور بعيد وقف مستنديا عليه، ومصر عتيقة من تحتنا سديم هديم ذو قباب ومآذن تسبح في برك القمامة ومياه الصرف والكآبة وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمى السوداء تيرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء ورقاء، لاحظتها جاءني خاطر يقول لي خير لك يا ولد أبى فب أن تسليخ عن هذه المذارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك في مداره وجاءني خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك يا ولد أبى صب! فالتت ترى أن جميع المذارات تؤدي كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الأفلاك والمذارات رمت وقطران، ظهرت يا بوى بهذا الخاطر يقبض على دراهمي يكاد يقرعه بوجهه! فأننا في قبضة بسيريس مسكة بدراعي تسحبني إلى غرفة البرج.

وأيا محمد بك أبو شناف جالسا في الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدى حلياب واسع من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديري الشامي المعتبر، وفوق رأسه طابقي من الصوف، كالرسموط، وعصاه الأبروس أم عوجاية مركونة خلف ظهره أما بقية الأصابع غير تدور فخر السدلات

وربما طالت العنق المنكوسة قليلا كما أن أزرار اليافقات الحمريرية مفتوحة وموقها الصديرات! أما السترات قمطقة على مشاجب أبيقة مردوعة في الحرائط أمامهم الصواني الفضية عليها الكنوس منترعة بجميع أنواع المشروبات وثمة أفندي أميو عاية الأناقة من الواضح أنه عودجى أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب حير قيام، تحلف اليمين لا أما ولا أجدع متى ينشط هكذا. وثمة أفندي آخر لا يقل عنه شيكاكة ولا أبهة راح يوالى توليع النار وتكسيرها وتحصيرها في المصفاة ليتمتد منها بالمعلقة ويصنع على الحجر بحيث لا تتوقف الجورة في ممرتها لحظة

بد أنه لا مكان لما يسبوسه وأنا شعرت أن وقفنا على الباب سوف نيوخ، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف نغمى نحو الباب قائلا سلام عليكم فهذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة تقبلوا! فما أن بلغنا حتى تقدم بسبوسة دوى إهم أو دستور نحو صينية النار، فتقرن في جدران الأفندي ساحبا الصينية نحوه، ثم التفت ناشئة مع المصفاة وورقة التهريرة، ثم أدمج في مباشرة العمل عامزاج معه الأفندي قائلا «كنت نير من الصبح»، وكان على أن أحفل مثل بسبوس، فعاديت الأفندي المسك بالجورة ومددت يدي فوضعتها على الجورة قائلا بعد إن سحلتك، فتركها لي في الحال. فترعت عنها الحجر المحرق وسحب جانبها وسيحدها بسرعة ثم أخرجها في حردل معد لذلك وملأتها

من حردل آخر به ماء مطح مطيف. كان الدور على محمد بك أبو شطاف، فسدت له البرصة قائلا مساء الخير، وأقعت أمامه حتى يشرب برأحته فالتقط البرصة بأطراف أصابعه الطويلة السرحة، ووضعها بين شفتيه الفيلطتين، وطلق ثم شد نفسا واحدا كاد ينفال منه الحجر، فصرخت أن أبهرة الويسكي وريق الأفندي هذا جان اللهية لاذنان حامى الويليس أما الأفنديان اللذان كانا ياوليان أمر النار والجورة فقد توليا أمر درججات والكنوس وإياه من أهوين كانا بالمومان منفس العمل من نفس المجلس الأفندي الذي رهب منى تكفل نسي، والأفندي القريب من بسبوسة يظهر به شاس وراء كأس وجهر يتلوه حجر حمرت كأسى مجرد سحابة من هذا الدخان آخر شام يا بوى، ومرت السدعة في مصمم أهدم فظهر فيها قائلا «أني بوى الفرح» قال جميعا: «وجب»، وناهبوا للبهوض..

كان طابعا أن نبقى، بسبوسة وأسا، كي ننظف لطرع ونلم الصبة إننا نهب أن نحمل باكنا على لآق يابوى وفك نطلم البير ثم رنينا حشباها، وقد راعى أن وجدت نير شيات مساند فورا الصناد، ولأمة ذهبية في حجم عنه ثقاب تقيبه عليها رسوم وافر، ماوادة، مهنية كلتي رأس ملك الزمان شعصي قطم من بهاء ١٠٠٠ها قطعة حشيش في ورنيه مبرومة. بيعة اللور ٥ أهدم ماوى فأت أما هذه منى مصممي وم الزلاعة فتتعد أهدمها، وضح لي في الحال أنها بعض محمد بك أبو شام

ولابد أنه حبطها من أحد الملوك العرب وهى لن تقينتى، إذ أنها ستقصصنى لو استعملتها أو فكرت فى بيعها يا حال' المرء لابد أن يحسبها جيدا يا حال' وإن فرحة صاحبها بعودتها ألد عندي من فرحتى بها يا بوى' لأن فرحته هذه ستعلن فى الحفل تأكيداً جديداً على طهارة عنصرى الذى أعلنته عليهم الليلة الشيخة سعادة، وهكذا اندفعت لاهثاً أجرى كى أحظى بشرف التلبيع قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافى. قال بسبوسة فى فضول: «ما وجدت يا أبى على»؟ قلت: «تعال»؟

هبطت السلم جرياً إلى قاعة الاحتفالات فى الطابق الثالث من الدار كان الفرح حايكاً، والجميع غائب عن الوعي، ورافصة لعلها سهير زكى، مدمنة حاملة الجسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كعاصف من الضوء يتصاعد من حلة موسيقية تملأ بالإقاعد الحادة العراقية فى نشوة بالغة فالجميع شمل حتى سمحه الحيطان المتصاعدة من السجائر والفلاييز. جنة هذه أم جنون يا حال؟ وصلت إلى قرب المسرح أتخط كالعمل الأهمى من فرط السكر والسخط والهياج. صارت هينى تقع على وجوه الجالسين فلا تعرفهم إلا بعد تدقيق وفحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة الخلفى فوجدت أحداً فقلت عاتياً أيلقى فى وجوه الصفوف القريبة من معصمة المرقص. ميرت عيني عساة تجلس فى الصدارة يبيذين تستندان على مقبض للمصفاة وبراس من عبر رغبوط. حذمت عليه مباشرة، فلما اردت قرأ

هذه لاحظت وجود الشبيخة سعادة بجوارها عجب لانى مررت عليهم من قبل وتوقد أمامهم فلم أنفرعهم تقدمت من محمد بك أبو شناف، شجسى بانتسامة استهلال حذرة تشى بخوف عامس حمى من احتكاك أمثالى يمثل هؤلاء لآسياد خاصة إلى كانوا أسياداً صناعاً فى الأصل كمحمد بك أبو شناف' وقد شملت رائحة خوفه فخرج من جوفه حين فوجئى بى أمل على أذنه، التى - مع ذلك - سلمها لى فى طوامية، فهمست فيها بكثير من العرج. «سعادتك نسيت شيئاً فوق؟» نظر لى وجهى بارتباب شديد' طاشت من عينيها طلقات كثيرة مثالية ترمينى بالشك والاتهام فأصابنى الرعب يا حال. وكنت ممحناً تجاهه لفخت أن تمسك ركبتي ببعضهما لفشدتهما وشدت لسانى لتهحرك فى حلقى' قلت على الفور وأنا أبرر الولاة الذهبية أمامهم هههه' «قد وجدت هذه بين النساء» فردى ما بين هاجبيه متمعاً فربها دور لى يلمسها أو يحلل بها، ولوى شفطه قائلاً «لا! لا شأن لى بها»' فرفضتها لى جهيى. وكانت العاشية كلها قد لاحظت كل شئ' مع ذلك تلكأت فى مشيتى فى انتظار أن يستوقفنى أحدهم قائلاً لى الأمانة تحسه' لكن شيئاً من ذلك لم يحدث يا بوى، فانسكت خارجاً من إطار المجلس، أترت فى الأضواء والموسيقى المبهونة. و يا بوى واه' لقد صارت ملى القفافة عابرة بصو الشبيخة سعادة، فتلامست نظرتى بنظرها عبر الطرحة الحديدية البيضاء فأصابنى منها لسع حارق يا حال، تحلف اليمين يا بوى أنها بعينها نظرة أمى ولسعة البرق هذه دم أعرقها إلا فى عيني

ألمي لحظة تحقيق بأخلاقي وتياس من صلاحى أرعبتى يا بو
 وكنت أقم من طولى' وقد داهمنى شعور بالرغبة من أنى أتبر
 أمرا أعصب الشيخة سعادة. معى يا بوى' لقد خيبت شئها بها
 الحمايين التى عملتها فى روحى يا بوى. شعرت أن الطريق
 مسدود وأن لا أمل فى عفو الشيخة سعادة إلا بعد لى شديد
 شعرت كذلك أن أيام نحوس قادمة سوف تعترضنى لا محالة
 وحضت على كتابة ثقيلة يا حال، وباح الطفل فى عيى، وتحولت
 الرافعة إلى حية رقطاء تتلوى تيج لئسم حيثما تربحت لله در
 الحلق من نفوسهم الأمانة بالسوء وهكذا يا خال رأيتى أجلس
 فى الظرف الحلفية رحدى على يمينى اللابرة وعلى شمالى
 الفسفاط وتحت قدمى مصر حثيفة وأمامى ميل الروصة
 والجيزة فرد من الأضواء المظلمة تتشايك اقواسه وتتناثر
 وتتناثر، معنى فى صدر محتمة، تلك العنمة التى تبرك على كيمال
 من القمامة والأسرار الممتدة. فما لى حقائق بذئى البسيط يا
 بوى؟

إلا وخضرات تدب من حبالى فتترعى من وحدتى. كانت
 الشيخة سعادة مقبلة تعدل خديامها' ومن حلقها موكب جعلت
 أنفين فيه الحاج السمي ومحمد بك أبو شاف وبقية للعاشمة
 كان الحاج السمي قد شرع يعدل الرسائل وعينى للشيخة مجلسا
 أمم هى لقد بدا أمم تتأهب للإمصارف' هذا هى دى تتأبط
 حقيقتها الشبية بمحمد. وتلعت طالبة عم رحدى السائق، الذى

كان أطوع لها من لفتتها. وقف الحاج السمي محتجا بشدة 'ما
 ينفع هنا يا سندا للشيخة' نحن لم نجلس مع بعضنا بعد' قالت
 الشيخة: 'ورائى سفر طويل كما تعرف. وعما قريب يكون لى
 أشرف بريارة أخرى'. قال محمد بك أبو شاف: 'وأما ما
 مصيرى يا ست الشيخة' على الأقل خمس دقائق معى إترلى لى
 حتى الصاوين الكبيرة من كتابى'. قالت الشيخة بكبرياء ولباقة
 'كل الصاوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل للمرأة أى شئ فليست
 وحدى التى سنقرأ كتابك' بل إنك الذى سيقرا' ولست إلا معاونة
 لك أبا والورق' لكنى أهدك ع سيدى الفاصل أنك لو قابلتنى فى
 حفلة أجمع وقلب أخلص ونزعة أظهر فربى أهدك بابك تفهم
 كتاب حياتك سطرًا سطرًا' وتستوعبه معنى معنى ضد رقم
 تليفونى من الحاج واتصل بين وقتنا تشعر فتشدد لئذ ها هناك
 ثم إنها شغعت بأبتسامة مهدية، ثم استدارت إلى كايها فى غير
 حاجة لرد محمد بك أبو شاف وسلطت على نخرتها لسانة 'أما
 أنت أيها الشقى التحس فلى حساب منك فى وقت يجهن عما
 قريب'.

شعرت والله يا حال كأن الأرض تبتدى منى. لكنى شعرت مع
 ذلك أن فى أعماق صوت الشيخة ببرة عطف وأهد سوف تجو
 على ما دامت وصفتى بأننى التحس، لابد أهد. ستشقق لئعاستى،
 قالت ذلك ثم سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شاف ثم
 الحاشية وتوقعت أن تسلم على أنا الآخر. وصديق توقعى
 يا بوى' فابتذرت على الأرض دندا صرث أقبيل يديها عى طلب

الحق والسماح؛ فربيت بيدها الأخرى على ظهرى فى حضان
 حقيقى قاتلة بسدى حقيقى استشعرته «ربما يهنيك ويطرح
 المركبة عليك» أمين يارب العالمين، «أذا بالجميع يرددون خلفها
 مثل براءة النفس «أمين يارب العالمين»، مشعرت والله يا خال
 أنه سوف يستجيب لأيد لهذه الصبيحة الجماعية. وقد أسر
 الجميع على توديع الشبحة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح
 الحجاج السنى وأبى شفاف يوصيها بتبليغ سلامهما إلى السيد
 المحافظ وشكرهما العميق، وكان عم رمدي السائق يهر رأسه
 كأنه المعنى بالشكر كلمة من هنا وكلمة من هنا لمهمت أن
 السيارة هي سيارة المحافظ، محافظ أصيوط والله يا خال، وأنه
 معاملة منه لحاج ولأبى شفاف تطوع باستدعاء الشبحة
 سعادة وتوصيلها إليهما بسيارته الخاصة حاجة نهوس يا بوى
 وفق الله بعد أن تحركت السيارة شرعوا يصرفون وقبل أن
 أحسوف شدى الحاج من كم جنبابى قاتلا فى عشم وسومة
 «عليك تحت عيني باستلمار يا ولد يا عكروت! لقد أوصفتي
 للشبحة بك كأنك منها بموصع الأخ الشقيق» فلا تجعلنى أسأل
 عنك بعد الآن؛ قلت هي عبطة «هاضر يا حاج»، ومضيت أترجع
 لا أدري كيف الوصول إلى أى شئ في أى مكان.

العاشرة . طيف الخيال

الخيال المفتحة ليست بالسائل يا بوى. ولد مثل بسجوسة هذا
 ملقط ابن مقلعة! يجمع المعرفة وتعبومات بكل سهولة ودون أن
 يطل أى مجهود ولقد يسمى الواحد منا لمعرفة أشياء بعينها أو
 معلومة عن شيء معين ليقضى في ذلك شهرا وربما سنوات،
 ولد لا تجه هذه المعلومة صميمة بعد انتعب أما بسجوسة، هيى
 طيه ياردة، يمي لك بالخير الثقلين من أيها مكان تريد، هو ولد
 فاهم، جذاب يا بوى، يدخل في الروايق دون أن يسبب أى وجع
 لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل ياله من كل شيء ود واع بحق
 مولود ليكون صغيرا، وعلى وجه المصنوع من بيوت الدعارة،
 خير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها
 يجمع الأحبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم، هو
 خير من ينتفع بها هو خير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند
 اللزوم، حيث يكون لإعلامها ثم كبير، هو مع ذلك لا يسي
 المعلومة حتى تتعم وتصبح معروفة، فقبل أن ترمع الحكومة
 مهاجمة الجرسومية يكون هو أسرع ولو ندقائق تكفى نقص
 المطوم وتقويت الفرصة على الحكومة

واه يا بوى! الكنت تعلقته من ولد الأبالسة هؤلاء. ليس المرء
يكرر ابن بيل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفعالهم.
الشاهد يا بوى! قس إن الولد بسببوسة دخل على شفتى مبتسما
ابتنسامة ملونة يا بوى، قلت سترك يا رب، صحبته ورائي إلى
الخبخ قاتلا متعال أصحل لنفسك شاياء. وقف بمولوي يتحمل
الأكواب على رحامة العروس وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق
ألتحت ومن تحت لسوق! وإذا به يضعك صحكنا مكتوما مطنا في
نفس الوقت. قلت مطليا إياه ظهوري فيما أشعل عين البوتاجاز
وأضيق البراد فوقها «مالشفتك عائمة يا ولد الفرطوس؟» فكانتني
أعنيته الإذن الشرعي بالانفجار في الضحك يا حال. فصار يترجرج
ويتمايل من فرط الانبساط والسخسبة، وكان يتكلم خلال ذلك
بكر تعلق اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها. إنما هو
مدمج في الهنطة والفافسة والهنيفة، كل ما فهمته من كلامه يا
بوى أسماء الحاج السمي ومحمد بك أبو شناف وذلك فاروق
ورجال الثورة والعائلة الحديدية والدنيا والتمين وريطة ورنيلطة.
واه يا بوى، ما الذي لم الشامي على المغربي؟ وما الحكاية
بالضبط ولد الفرطوس..

وكننت أظنها نكتة جدهم الولد بسببوسة بها لقصي على حسنها
عصرية مبتعة. فردا به جادني ببلوى كبيرة يا حال. صرت أجمع
نفسى على كوة الشئ وأبا جالس معه في الصلاة لعلى أهمهم
جلية الأمر، فلما كف عن التمسك مسح جموعه وبدأ يلخص الأمر

كأنه المظطر للكلام المباشر ياسا من عبثي. ديعنى بالمفتشر الكثر
الذى طورت عليه أنت ليلة ميلاد ابنة الحاج طلع على فاشوش. حنن
إبر أصحاب! قل إنه بصريح العبارة بم بكس كثر بل هو بلوى
سواء مستبحة!.. فليس راج يقرقر كطير مدعور في قصص من
الجرهد للخرج. من ريق ناشق كالغصا قلت «كتر مانا يا ولد
الفرطوس؟» تنظني لقيت كذا؟! «لكنني صامحا».. «لا تمتطي على
نفسك! إنني ما قصدت إلا مصلحتك يا سعيدي. يا سعيدي يا
لعطف أنت تتلذذ على؟» أما أنا فما قدس الله على قوله في حاك
الله وأجرى على الله! «وكننت أفهم ما قد بدأ يرمي إليه الحديث.
لكنني والحق يقال تمسكت بالاستهجال لعلى أهمهم أكثر دور أن
أورط في اختراقات تضع يدي في الحديد، ولد الفرطوس هؤلاء
طموحي أن أكون حويطا معهم بسببوسة نفسه حدرني منهم
لحق قلبي حين تتكرب بصيغة بسببوسة المخلصه لي. رريت
بنفسى على التلازم عليه، لأنها، لكن صوتا في نفسي رر قائلا إن
تصغير بسببوسة لي من رفاهة لا يمنع من أن أستفيد به في
الذمامل معه أيضا! فهو في النهاية وحد منهم حوا في خاطري
إلاهم بأنني مادمت قد فهمت ما يرمي إليه فحير لي أن تظهر
مدورني هريشة كما قد أردتها في ليلة قوت القلوب. رر الصوت
في صدرى لقد ظهرت وراءك أربعة وعشرين قيراطا مرلت
و «كككككك» وقطعة الحشيش وعرضته على الجالس فلم
.. «كككككك» عاينها أحد. بل تحاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم.
«لا مانا! رر وعاد الصوت نفسه ليور في جداري ثانية ولكن

الولد بسدوسة ورتك لألى ولا يصح أن تظهر ألامه فى صورة من يريد أن يضرب العوامى على اللقية التى التقيتها.

وضع الولد بسدوسة ساقا على ساق، عوج رقبته محوى قائلا فى لهجة ذات معنى «هات نلف سيجارتين من الحلويات التى معك! أم تراك تلهطها وحدك؟» إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفترى لو قلت ذلك « وركز بصره فى عيني بشكل جعلنى كالقرد المقيد بالسلاسل. حاولت المفخصة فلم أقدر يا بوى، ثم إله أسرع فأخرج علبة سجايره ودفتر البافرة وشرع يفرط السجائر وينقيها من العيدان العشة ويشوش ورق البافرة فيما أتابعه أنا فى لاهيالة. فلما انتهى من ذلك أبقى الدخان مكموا على ورقة البافرة ثم غرت أصابعه فى الهواة أمام عيني كلما يقول «هات ما سنفرهك، فلما أن تلكأت قليلا شغط فى عنشوحا بتراع مبرومة لا شعر فيها كدراع الأثى قائلا «ما تهيب يا لوطى!»، فيكل عدوه وبساطة قمت ذهبت إلى حجرة النوم فسمعت المشيشة من بين الكركيك فوق دولاى الثياب وأقطعت منها قطعة لا بأس بها، وللفت بفنتها فرميت بها مطرح ما كانت، وعدت إلى بسبوسة. رميت بالقطعة أمامه على الملقوفة، فأتخت عيناى لنفخاص السر على فريسة. ثم أمسكها باطراف أصابعه قائلا «هات شديدة» يا بن الكا... لب! دى حبشيش طيبة ما أبزل الله من مثله فى الأرض! شق أولاد الكلب والعشيش الذى يشربونه من دود! أى عدالة فى هذه الأرض بحق لله! عدالة الشيطان

وحدها هى التى تجعل هؤلاء القوم وحدهم يشربون أجود عشيش فى الدنيا ويضاجعون أحلى ساء العلاء ويهترشون ريش أنصم ويأكلون المندى والجيمبرى والكاپورى! ومن بعد ذلك فعملهم حتى لا تتلوث أقدامهم بالأرض! ليتنا نعملهم إلى القبر أه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إنى لعرفت كيف أحكم هذا البلد!..»

وصار يتحسس التعميرة ويهرك منها هبات سمسيم يشرى فوق الخفاف، ولف السجارة بعذق ومهارة وأعصاب راتقة، كأنه يلعب فى جامع الكيف، وإذا انتهى من لف السجارة التى صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفطي بعناية ونظر لى مهركا إبهامه فوق زناد ومضى ففهمت أنه يطلب الإشعال. سمعت علبة كبريت من جيبى وجعلت أفقحها فصدى بيده قائلا من بين شفطيه المضمومتين على السجارة، «لا يا حدق! أشعل بالولاعة الذهب! خلها شبرقة فى شبرقة بأرة! بن هذه التعميرة لا يليق بها الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!..»

يا ولد الصاينة؟! هكذا قلت فى نفسى، ثم شوحت له قائلا «ليس معنى ولا عا!» شوح قائلا كأنه يعنى اسمهاى من القضية كلها «بالأش! الكبريت أحسن!»، واحتفظ العلبة معتمدا وطش هودا صار يلوح بشعلته فى مقدم السجارة ويشرب بلدة فائقة والسجارة تنساب فى فيه منكمشة على نفسها شيئا مشددا، علما شعر أنه تخشى وطره منها سلمها إلى كاتب رجاهاى من معبريه

قلت: «خلوة»

قال: «يقول المثلون في البلاد في الغرف المظلمة والمشورات
الصورية في الأنظمة التي جردت وولجعت اليد على الجواهرات
للقفاها إلى مكان يحفظ ما فيها حتى يعين العين لوضعها في
النافذة. هذه الأنظمة قد تجمعت في التردد حبتين: كلهم بالبيع
أبناء ناس فقراء في الأصل؛ بعضهم طمع في قرط ذهبي شمين
فصوره إلى وجهه لأوجه» ومنهم من تحفظ على فرح من الأناط
بعده أدور في لونه في حليقة يده» ومنهم من جمع في حوائم
وساماته» ومنهم من لم يتمكن لحبيته أو حس أخلاقه من هير
شيء فاستقرضه الآخرين بهدية ضل العين؛ جمعتهم أراذل شرار
ذهب بعضهم بعضها ونم بعض كبار القوم ممن بأيديهم العمل
والرهنط فاستأوا لهم بعض الهدايا النادرة ذات التاريخ لكي
يحفظوا عنهم إذا بدر بادر؛ ويقال إن بعض أبناء علية القوم ضبط
في أوروبا ببيع مائة أمدتها ملكة إيران ذات يوم سنكة مصر»
خلوة»

قلت: خلوة

قال: «محمد بك أبو شهاب من بسب أعضاء اللجنة» وقد احتس
لنفسه وبكار وجوه عائلته بعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة
من الذهب الإبريز الصائغ المصنعة بالدر والياقوت؛ وكان الملك
فاروق قد تلقى هذه التلاعة من شاه إيران؛ وقيل إن الذي نقاها
«الملك فؤاد» خلوة»

وبشرع مرم واحدة أخرى، وقد بدا أنه سهول من نفس واحد
سهولة كثيرة، قال وهو يشع الثانية: «سأحكى لك حكاية بسيطة
بكمها مصحكة ومسلية ومنها موعظة» قلت بغيظ: «تكلم» أولا
فيما جئت تكلمني فيه» قال: «لن أتكلم في شيء إلا بعد أن
أحكى لك هذه الحكاية البسيطة المضحكة» قلت بصيقل: «أهك»
فأعنت في قعدته مثلا: «ما قامت ثورثا المباركة وطلدت الملك
فاروق ووضعت يدها على العرش؛ وضعت يدها أيضا على كل
مجوهرات العائلة المالكة» خلوة»

قلت: «خلوة»

قال: «وكيفت لجنة بجهة هذه المجوهرات أعصاها كلهم من
انضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة» خلوة»

قلت: «خلوة»

قال: «مجوهرات العائلة المالكة هذه ليست لعبة؛ فليها تحف
وحلى وثمانيل وأشياء للاستعمال كالملأق والأطباق والصدور
والساعات والتلاعات كلها من الذهب والفضة بعضها مطعم
بالأحجار الكريمة كاللبر والساقوت والماس؛ وكل هذه المقتنيات
تحص اللجنة المالكة من عهد محمد علي حتى الملك فاروق؛ منها ما
صنع حصيصا بتكليف ومنها ما أهدى إلى أحد ملوك العائلة
ومعتمدا بدر لا مثيل له في الدنيا؛ كلها أشياء لا تقدر بمال. كلها
أشياء سلطانية عظيمة» خلوة»

قلت «هلو!!»

قال: «العزيز يا جدد أن محمد بك أبو شناف هو الذي يتكلم اليوم كثيراً عن مجوهرات العائلة المالكة، وعن الذين يهبونها بفرح عالية المرح عندما تظهر إشاعة عن أحد اكتشفوا عنده شيئاً من مجوهرات العائلة المالكة، وبعض الناس الأكابر الذين كانوا جالسين على السطح ليلة قوت القلوب وقد حدثتكم عنهم ليلتها يقولون إن شذيع الإشاعات حول بعض الناس يبعد الشبهات والأظار عن محمد بك أبو شناف ولأنه لهذا يقف ورثه بعض هذه الشائعات! هلو!!»

قلت «هلو!!»

قال: «محمد بك أبو شناف ينسى نفسه دائماً ويضع هذه الولاة في حبيبه ليتباهى بها أمام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملك والوزراء وكل الناس الأبهة! هلو!!»

قلت «هلو!!» قال: «ومن شدة هبل محمد بك أبو شناف ومن شدة سطره على الدوام جاء بالولاة معه إلى حفل عيد ميلاد قوت القلوب ولصق بها أوقية حشيش ليصنع بهما مصيبة في قلب الحفل شق وساحة الرجل! على فكرة كل الورسمين منهم حفيظ ولا أعرف السبب في هذا! البتة قوت القلوب مسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولهذا ربما ستر ليلتها فلم يشعر أحد بشئ! سوى نعر قليل! الحاج المسمى وأنا! أصلي على

٦٢٢

هلاله، طيبة بالحاج دون شلة المنس كلها! أنا الذي عرفتهم به إنه يحمي جداً ولا يقدر يستقني عنى! يحمي أكثر من المحرومة زوجته! بصراحة إنه يتعشقنى! ههاو أو بطنى على جوه! حير وأتركة! أنا أيضاً أنركه يتحسس أثنائى على سدىل المراج! يطيطب على إلتنى من باب العشم! يكلمنى بصوت متهدج! لكن على من! إنه يسوج لى بأحضر الأسرار! لو طلبت عينه لدرعها فى الحال وسلمها لى! لكنه إذا كان ولداً صابغاً ماأ أصبع منه! إنه لم يجر هارياً وراء عريبات الرش ولم يبت فى الحرمانات ملكى ولم يتشعيط فى سلالم التراموى بحثاً عن قوته! ويهد، هانا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وحصب فى نفس الوقت! إنه كمالال العام يسمين بين يديك! لكنك تدخل السجن إن ضاعت منك قطعة واحدة منه وأنا أنقص بالحاج المسمى لكنى لا أنركه يطنلى! هلو! حنى أو دخلته ضاعت حياتى! فى كل يوم أرى فيه موعظة! من تتحسين أنه كان على طم بالمصيبة التى يديرها محمد بك أبو شناف فى مرله فى حفل اهنته! أحشنى أن لا تصدقنى إذا قلت لك أن المماس لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البتة فحسب، بن من أجل إتمام مصيبة! تصور يا ولداً يا أنا على أن الشريحة سعادة هى التى شمرت بأن فى الحفل جوا غير طبعى! الواضح أنها شقية من قطاع الطرق! الطع لراعى لى ما كانت من مطايريد نجيد! عدها حيرة وموعنة فى معرفة رجال الشرطة السريين تشم رائحتهم عن بعد فما شعرت بذلك انصرفت هبل أن نقرأ بحت البيت ويحت محمد بك أبو شناف! إنها موهوبة وإديها كتاب عميق عجيب منى! بالصور

الغريبة اندرة كاوراق اللعب نكن كل واحد من بني آدم يجد نفسه بكل مشاكلها وأوجاعه ملخصاً في صورة من صوره التي نقرأها انشيجة سعادة كالبلبل ظهرت حديثاً وقد سمع بها محمد بك أبو شاف والحداد عن طريق ناس من أعيان أسيرط مطلبها عن طريق المحافظ الذي تحرى عن مكانها فبعث في طلبها وأرسلها مع سائقه المصومى ' أنهم يا أبا على أن مصيبة محمد بك أبو شاف حين فشلت ولا بد أن تكون الشيعة سعادة قد قرأت تعريضة أفشلها - عاد محمد بك أبو شاف إلى مدره وطلب الحاج السنى بالتليفون ليقول له به نسي ولاعته في غرفة البرج' شف المحرر يا جدد"

قلت في عيظ واسمع يا بسبوسة أما أحرقي عين التحيين' فانا الذي عثرت على هذه الأمانة وبعثت من لورى إلى حيث يقعد محمد بك أبو شاف وحاشبه والانيشه' وعرضت عليهم الولاة' بل قلت له بصريح العبارة يا سعادة اليه هذه الولاة ضاعت منك' أتصرف مدداً فعل يا بسبوسة؟ وطرية أبى نظر لي كأننى لص هجم ثلثه يسرقه فكيف تهجء أنت الآن وتقول إنه كلم الحداد في التليفون؟ حاجة من اثنيين يا بسبوسة إما أنك تحتلق هذا الكلام بعد أن علمت بالعبور من راوى اعرض الأمانة على الحداد' ومعك أن الديق أبو شاف واسع الذمة وقد طمع في الولاة مدعيها أبها ولائته"

'نظره بسبوسة من شدة الضحك ما موى حتى لم يعد قادراً على أن يمم نفسه' من حديث فحيل نى أن رأسه في مكان ويداه في

مكان وكل جزء من أجزاء جسمه في مكان حتى صورته كان ميددا هو الآخر في ضحك تتخلله حركات يديته وشعره وغنح وكنت أوشك أن أتبدد مثله' لكننى صحت فيه جعيط - أما تثبت يا ولد الطروس؟' فمصح لدعوة بكم جلبيبه وصار يعقل الضحك بقوة قائلا - دانت أصلك صعيدى قصف! ياله من مضر ألم تفهم معنى الولاة التى أوقعت فيها محمد بك أبو شاف؟' دورت لية كبيرة في دماغى يا بوى في ضوئها رأيت الولاة التى أوقعت فيها الرجل' لوحت بأصبعى تجاه موطن عقلى كأنى أحبيه على برونه إلى منطقة الضوء' قلت ضاحكاً: دهم دهم يا بو الدم' أبا ههلا أخرجت للرجل يا بو الدم [هـ] هـ! صاحبنا وقضت منه سريقة مشهورة فجلت أنا بسلامة محى التصيين لأردها به وسط جمع غفير في حفل كبيراً لم يكن' ينقصنى سوى أن أقول له بالغفيل: قد يا سعادة اليه الولاة التى كنت سرقتها سيادتك من مهورات العاتلة المالكة' هـ! كلاماً مثل الصعيدى الذى سرق الكلوب المشعل بالضوء وراح يحثنى به هو مكان مظلم!"

رصدت أحبط بكلى على ركبتى في اتصاد واستحسن كأنى فهمت شيئاً كبيراً يا بوى' تحلف اليمين يا بوى أنى فرحت فرحا شامضاً، على أن الولد بسبوسة المصور هاد يستأنف الضحك من جديد لقوى مما كان، وأنا أشاركه الضحك جيب وأكتفى بالنظر إليه حيناً آخر قبلذا هو خلال اندماجه في الضحك ببعضه في باصابعه في الهواء' ثم اعتدل في معدنه فلم جسده وأتخذ مظهره

جديا واسعى فوق الترابيرة وراح يفرح للسجائر على ما تبقى من قطعة العيش، فيما يقول بلهجة حميمة «أنت غشيم يا حسن وعلى بياتك!» ثم أشعل السيجارة واستطرد

«نظن أنك فهمت حقيقة المنظر» ولم تعرف الحقيقة لضربت رأسك في الجائط من الدهشة والعجب، محمد بك أبو شفاف طماع ولمن كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ» هو يا حديق ليس يفتاظ إلى جثث أنت بسلامة بية ورددت له الكولاعة» إن وجهه وانحدر لله مكشوف على الدوام لفه هواء العهر والنتيج حتى اسهرقت دماؤه وتكلمت عضلاته مثل القدم الحافية إنما مثبت على لأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو خرطته بسكين يلثوى السكين ولا ينفذ فيه» هكذا وجه محمد بك أبو شفاف، رضى أحدهم في فتيات كثيرة من سنوات بعيدة عند الحاج السنو وغيره» كما قدر لي أن أعرفه منذ طفولتي قبل قيام الثورة حيث كان أبو شفاف هذا يعمل في مهنة كثيرة» فمرة كان ضابطا في الجيش المصري ورأسه وقلعوا إنه جاسوس ألماني فاضطهده أول ما تعرفت عليه كنت أسقيه العيش في دورة في مدينة السويس» كنت طفلا صغيرا وكلي هو سواق عربة نقل كامبون مع شبة من السوائل رمان المطرح» إنني من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة» الحكومة عينتني في الحكومة نظرا للظروف المؤنة التي عشناها في السويس» حيث فقدت بيوتنا وإخواننا وآباءنا وأمهاتنا وعقاربنا وذكرائنا وكل شيء

وانورنا في أماكن أخرى» ثمة مرة تعرفت فيها على محمد بك أبو شفاف انصح لي أن... من الأصل عقال شغلته تحميل عربات النقل باليخماص والذئب لا ثالث لهما» كنت أسقيه العيش في فيلا في مصر الجديدة يملكها رجل كان أعلى رتبة في الحرس الملكي حيث كانت أمي تحمل دودة ومربية في بيته فكنا أنا وبخوتي نفتقر الفرصة لمجد لأنفسنا أعمالا في البيت وسط العر والنفقة» انصح لي في هذه المرة الثالثة أنه ضابط في الجيش حيث قد عاد إليه بعد وفده. ثم بعد ذلك عسرت أذنيه في أماكن كثيرة فعن هريق صاحب الفيل وحدمتي لأصدقائه ورواها تعرفت على أجواء كثيرة مذهشة وانفجحت لي بوابات لو دخلتها أنت لثمت فيها» من حسن حظي أنني رأيت ناسا كثيرين قبل بي عسا بهم من الضباط الأحرار لكن العجيب أنني كنت أرى الواحد منهم وأحديس أحدهم ضابط وهذا ما لا أراه أبدا والأحر مقارب أو تاجر تحف نادرة أو صاحب محلات لاقطعيات وعربا» تعوت ألا كدهش من أي شيء» تعوت كذلك ألا أصدق القانون إلا إن كان في مصلحتي» لم أعد أخدم الحكومة وإن كنت أقبض منها مائة فأخبره حمة الفر علة» أنا أخدم نفسي أولا ثم أعطي ما غاص مني للحكومة!!» إننا كانت الحكومة كلها غارقة لآذنيها في الفسق والعشق والعهر فبأي وجه أروح لأقبض على يفي نفيسة العظ ليس وراءها أو قدامها معني ولا سند» يا بهت من نفع واستنفع! أنا بصراحة أجيء في صف الناس لمأجدهم من الحكومة وهم في المقابل يكالونني بالحب والإعناق!!»

فلما فتح الزكاه الجداد هي عرفت كبرق الشمس، تعاجلت تين أن
يسرح ثانية، فوكلت لى إى محمد بك أبو شناف دبر مصيبة فى
الحلل ولم تقل لى ما هي هذه المصيبة والعياد بالله!! محبا بريق
الشمس نحتت جفنيه وهو يخلقهما فى مشوة جذب الانفاس ثم
قدم لى بقية السيارة وقد ميل رأسه على كفيه تاركا سحب
الدخان تهنر على صدره، ورفع رأسه فسللا من خلال أنف
م'دحة بالحاط

«الامر بإحتصار أن الورطة التى وقع فيها محمد بك أبو
شناف كانت معقدة لا أنت ولا تحريك لو كان جث مصورا يستطيع
أن يفهمها» محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاة مع
قطعة الحشيش على واحد من الأنديين اللذين كانا يتولين السقي
الحل حضوريا الأندى الذى كان ممسكا بالجرورة! إنه ضابط
محابرات ويقال إنه ذو مصعب مهم لى نظهم لم يسمح به من قبل
اسمه التنظيم الطليعى من داخل الاتحاد الاشتراكى كتب أفهمى
الحاج الحمى! يكرهه محمد بك أبو شناف لاعتقاده أنه مدسوس
طبه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إى أمكن! ومحمد بك أبو
شناف يقر به منه ليمس سمومه ويتمكن فى نفس الوقت من قطع
رقبته! تشاء الصدفة أمى حين برزت بعدد من غرفة البرج
الطوى اصطدمت فى رجام الحلل بهذين الأنديين جالسين بين
جمع من العنيت الملهبة يسكرون ويدمنون السجائر مخلوقة
والديا رثيث وكل واحد فى حالة الأنديان كانا بضمعكان معق

وشد السيارة من شفتيه وقدمها لى وقد احمرت عينه وانورد
وجهه، وبدأ أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمعه فشرده وبشرته
فى كل مكان فصار يلقي ببقع من الضوء المشع فى مناطق متعددة
من الامور والنواحي، ولما شطفت النفيسات المتبقية فى السيارة
حتى الذبابة وتمشش الدخان فى جهيتى تذكرت أن أمر محمد بك
أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسويسة قد سرح من وبشر
مضى أنا الآخر فى مكان ألقى عليه لمة ضوء هذا ولد ساحر يا
بوى، هذا سرهسى هريق كان يجب أن أعرف سويسته قبل أن
يطلقها يا بوى لكنى كنت مبسوطا ومشحشا إلى حد بهيج يا
خال! حتى فكرت فى التندرل عن قطعة حشيش أخرى تشعل بها
هذه الحالة التى صرناها لولا أننى نظرت فالتقيت التعميرة فائمة
ما تزال على الترابية بين بقايا ورق البافرة وبثارات الدخان مثل
بنية كبيرة مرسلطة لامعة كالمدمومة بالريث لاناس المكروت
سيجارة ملفوفة، سميت هذه أنفاس ملاحقة كتعت بمخابها فى
مضغري تاركا الطليل منه يتمسك كائناتى لأجلو مصى من الداخل
بالليفة العسمة وقلت وأنا أرد له السيارة متوجهة:

- «فتحت لى موال محمد بك أبو شناف فلم تنمه» أنت حين
شرعت تتكلم أوهمتني أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف
يعد عن مداركى ومفهوميتي! ثم سميت موضوع محمد بك أبو
شناف وحكيت بى قصة حياته! أعرف أن التعميرة حيدة تسرح
بالدماغ لكننى متعلق ما أراها!

ويشعرا! توقفت خلفهما لعلى أستلقط من حديثهما بعض الأحبار عن النبات اللأش يجلسن معهما خاصة أن شكلهن من يقص بأعمال الصالحات 'وكنتم أرسمن على أنفسهن هيئة من يلف زهر الإشارة لآداء الخدمات باعتباري من أهل العمل' عينا بي أنهم موضوع حديثهم وسهرتهم! حكى الأفندي الذي كان ممسكا بالجرورة أنه ضبط محمد بك أبو شفاف يسرب يده في الحذاء ويسقط في حبيه الولاة وقطعة العشي! فأحس بالدمع والزعشة خاصة أنه كان علم من طرف حمي أن شيئا يدبر له في الحذاء! أيقن أن البولييس والفب يترصده على عتبة الباب لكنه مع ذلك لم يهرؤ على صنع فضيحة مزعجة في الحفل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فسوف يرغم محمد أبو شفاف بكل ساطعة أنه لا يعرف شيئا عن الموضوع! ما صدق صاحبنا أن حبياه عن الجرورة حتى جلس متريفا على التلثة وبصمعة لطافة أخرج الحصيد! بي رصار يحركها بيده جلسة حتى حشرها بين السند وال... فب غير محمد بك أبو شفاف مباشرة!"

تعلف التميز يا حال! أمي شعرت كل تركيبة الدنيا كلها قد تفككت ولم يعد فيها صلح يسكن بالآخر، والهواء يصفر بين الشروح صفيرا مرعدا مرلرلا، أفي الحياة نحن يا بوى أم في جهنم حمراء، اللون كالدّم؟ لابد يا حال أن محمد بك أبو شفاف هو أحد الرباينة، أو لعله، ببس نفسه، ويبدو أن منظرى كان متجمدا على الدهور كأنى! «سحبت حجرا بلامح مقفولة» هذا هو ذا

الولد بسبوسة يفرق في صحك ماجر لبرهة طويلة فيما يشوح لصور بيده في غمر انعقد دماعى لبرهة أطول مشعرت كأنه يستجمع كل إدارته وجدونه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يمدى فيها كل بذلوه في عبء الكارثة الكربية المسعاة بمحمد بك أبو شفاف إنه آفة من آفات الزمن وأسمم من الدج السمي بطوفين، وماهى يا حال صار مردهما بالحق وبالأخذ والرد والغاعة والضجيج، ولحظة أن كوشك كيس دماعى يتفرك ويضيع كل م فيه صدى، طقت الفكرة في رأسى فوجدتنى أصبح فى بسبوسة وأهضا سائلا على ساق! «لكن من الذى أهبرك يا حنو أن محمد بك أبو شفاف كتم الحاج السمي في التليفون ليخبره بأمر الولاة؟»، نظر إلى الولد فى استهانة شديدة وشوح بهود رأسه علامة على ضحاح حمى، وقال: «تقولوا طور يقول احلبوها» ثم انفجر ضحكا ورام بمسح دموعه

على كل حال الحاج السمي قلبه عليه الدنيا! وأنت من يوم الفصل لم تره وجهك رغم أنه أومصاك بأنجم! هو على فكرة «فلنح ببراهنك ومقتنع أيضا أن الولاة في حبيبه لأنه واثق أنك من نستطيع لتصرف فيها بأي شكل!»

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لى لالفتح أشغالها قائلا فى جدية كبيرة: «شرب هذه السيجارة وتكل على أنه إلى عمك الحاج قلت فيما أحذب الانعاس مقصص العيين. «وماله»، ثم سلمته السيجارة علقها بين أصبعيه حتى تسترد أنفاسها قائلا

ولا تسأل تجيء بالولاعة معك؟ ولم استرح للهيئة في قول هذه الكلمة يا بوي. شيء فيها محسنى كالدبابيس الدقيقة وقال حوت في دعاي إياك أن تنهب معي الآن يا حصن هانت لو ذهبت معي الآن على هذه الصورة فسيفظهر للحاج الصبي أن بسبوسة هو الذي قبض عليك وجاء بك، ولربما تجبج بسبوسة وغمر للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك، وجددتمى أرد على هذا الصوت باه! أهمل أم يا بوي؟ ولاد المذينة القجباء يستفعلون الصعايدة؟ كيف يا بوي؟ ثم قلت لبسبوسة بلهجة حشنة واسمع يا بسبوسة يا صاجبي! أنا أثبت بيقي وأمانتي والأمانة في الحفظ والصون ولكن إذا تصورت أنني يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كمشيم أبيليس في الجنة، أنا كنت ساذج إلى الحاج تلقاء نفسي يا بو العم لست منتظرا أن يأخذني أحد من يدي ليسمى إلى الحد؟ أم أنك تريد أن تصغرني أمام الناس يا بسبوسة يا هوي؟ شاف يا بو العم! إذا ما كان الحاج قد استفيى فوالله ثلاثة ما قضيت أهرش! أذهب أنت وساكون في عقبك بعد نصف ساعة!.

رايت الزعل الحليفي ظاهرا في عييه، فصعب على والده يا خال عطيت حاضره بأن أريته الولاعة طارت عينه كالسر وانقضت على الولاعة بركت فوقها جاحظة مبهرة مندفة. يا ابن الكا ل با جوهرة ثميه لا تقدر بشيء وقضى عليها في الحال بيديه فاصسط قنسى صار مقبها بتمعن يرسل اللع

والاستحسان لندائق طويلة كانت على شكل عليّة مستطية مبطه لحيية تصوطها اللآلئ من جميع الأحاء على أرض من الذهب تهدلى الأحمر اللع وكنت قد عالجب منها برفق حتى عرفت كيك يقدح رنداء، ولتة لحيية من العجائب يا حال هكل ما عليك أن ترفع عطاءها، ولكن عليك الأول أن تعرف أين عطؤها، إذ أنه طمض فيها سائح عليها وليس من خط حاصل يشير إلى العطاء. فالعسر مع الشد والجذب من كل أضلاعها إذا بالتقاء شريحة رائلة في تحن قطعة الشكلاطة، لا يس في من نولاعة باوصال خفية، ما إن تجدي إلى أعلى حتى نرى الشعلة واقعة مبهرة كأنها كانت قاعدة تحت العطاء صاجبة فاد يجذب عنها العناء ذهب والفة كجس الحاتم التسعري قائم، بيوت ونقد ظلت ليتدناك بطولها يا خال أفرج عن الشعلة ثم أعطها حتى أهرقت حروشة سواثر، فلما كشت سر اللعبة لبسبوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير لولن كانه اكتشف سلوى جديدة رائحة صحت فيه. ماخذر أن لنفسها يا بو العم أو ينفذ ما لايد في جوفها من غار وصجارة؟ فظهر لنا أن سلمها سلوية من كل عيب يا بسبوسة يا هوي فوشفت ذلك، مصممة لطافة، بأن دخلت يدي فقصمت على الولاعة وتاويتها في جيبي، ثم ما ليثت حتى فمت إلى حجرة النوم فواربته في مكانها الحلي وعدت إلى بسبوسة، لاراه شاردا سابها في ملكوت الله يحال.

جلست فيبالته واضعا يدي على ركنتي كإنسى استعته على ال. هوي الظانقي لكنه أشعل سيجارة وقال

- هذه بالفعل هدية ثمينة! نعتها يدينا جميعا من الفقر شرط أن تباع خارج البلاد! على فكرة، أنا أعرف عددا كبيرا من تجار الآثار والعاديات بعضهم ذوو أسماء كبيرة في شغل الصحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد جيرانهم عمرنة بالورق الثقيل! هم رجال بمعنى الكلمة، وجراء يعرفون كيف يتصرفون في مثل هذه الهدايا الأثرية الثمينة! ولا يجيء من ورائهم لبط! إن أهم يعرفون طرق الأشياء! يعرفون من الذي تنقصه هذه الهدية أو تلك فيذهبون بها إليه في حطة مدروسة يبترون بها ما يشاءون من قواه المادية والأشياء تنسحب إلى من تليق بهم ويليقون بها! بصرف النظر عن مصدرها! فمن يسالك أحد من أين جئت بها! ولا يعنيه هذا! كل ما في الأمر أن شخصية البائع هي التي تحدد قيمة الشيء ومستواه! غلو ذهبت أنت مثلا إليها المصعدي الففل لبيعها فربما طلبوا لك البوليس! عيرك ربما أعطوه فيها بضعة جنيهات وهرسوها! وهناك من ينجح بها! من يبيعها مهما كان مفتحا! وهناك من يستطيع بيعها في غيبتها بالسعر الذي يشاء! المهم الشخصية! والشخصية تكشف الشخصية! بمعنى لا أنت ولا أنا نستطيع الادعاء بأنا شخصيات مهمة! فالحوادث التي سمطح فيها ستطعك من صراخنا بعد أول نظرة!،

طلب ما قولك يا حال أن ولد الفرطوس قد أثر على! تحلف اليمين! إنه إنيس ورجح في الدحول في مصاشيشي! لكنني استعصت فحاة ثم صعب! أعزود ماله من الشيطان! أرحم!

فطعك ولد الفرطوس، وأخرج من جنبه قطعة خشيش! انصحب لي في الحال! أنه كان قد حصرها حلقة من خشيشتي وسرنا إلى حبيب، ثم شرع يتركها على دحار السجارة قائلا: «دع! شمسعة! الآن بحق الدي!» صحت فيه مارح! «تريد وضعت في تأييده يا بسبوسة!»! وشوح قائلا: «على فكرة أنا أستطيع تحييصك كخروج للشجرة من الحجب! أنت أصلا في السديم! ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شعاف وتعرضها عليه!»! «إس! فقد أصبح معروفها للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!»! ثم أستطرد: «مسالك الحاج السبي! أين الولاة التي عذرت عليها في غرفة الهرج يا حسن! تقول له بكل بساطة دور! أي ضوف أضدها صاحبها يا حاج! صاحبها! صاحب من ي! ولد! هكذا سيقول لك! فتقول له: بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شيء! ظهر لي! فقلت! فقال أنها ولاعة! فأعطيها له! سيجيبونك بالأندية! تعرضهم عليك! وأنت تستهين! نرغم أن الألفدي ليس بيهم! فحرفوا! أنك وقعت ضحية نصاب! وأب الذي سأتولى توزيع الأمانة في السر ولا من شاف ولا من نرى! فماد! قلت!»!

ولد الفرطوس لم يكن يدرج يا حال! تحلف اليمين! أسى سمعت عني في عيبيه جحا! من ظل المزاح لم أجده! وجدت يا حال أن ما يخفى علي في أنوم فأعزبه حتى يتحرشم ولا يعود! فالحسن في مثل هذا الأمر شامة! تكمن! اكتفيت بأن قلت له! كلها! «أنا! طينة يا بسبوسة يا حوى!»! «صمصم! الهرة! قتلا في! دحاف! ورواية!

«خذ!! إن ثمنها كما قلت لك يعيدنا من الفقر في خبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثمن الأكلة البقية الموجودة في داخلها كل ذلك له ثمن أي نعم! ولكن لا تنس أنها متسبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبير! إننا يمكن أن نخطب فيها فوق العشرين ألفاً! والتاجر يمكن أن يخطب فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعرف رجلاً من زبائن الحاج يدفع لنا فيها مثل هذا البليغ وأضمن أنه لا يأتي بسيرتنا في أي حديث! إنه دائماً يوجهني إن وقعت في يدى مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!»

قلت وقد بدأت أرتعش خوف الوقوع في المواقف: «ربنا يفتنيها بالحلال باولاد الفرطوس! هل عنى يا شيطان المدينة يا غليظ القلب! ما كنت أظنك وأعرا هكذا!!» فقال بحماس شديد: «يا صعيدي يا وجه النعس! إن رجال الثورة الذين ثوروا في كل مكان نهبوا البلاد وباعوا ما فبروا على نهيه! الآثار يبيعونها! مجوهرات العائلات المالكة يتصرفون فيها على راحتهم وكل يوم تظهر قطعة منها في مكان ما من العالم! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى! ومحمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أي شيء! والبوليس إن تابعك فسيمعرف أنك لا شأن لك إذ كنا المسئول فما خوفك!!»

سلطت عليه نظرة ثابتة ذات معنى وقلت له: «يسبوسة! أنتكلم الجد أم تمزح!! أم لعلك تريد الإيقاع بي في شر أعمالي!!»

قال يسبوسة: «أنتكم الجد طبعاً! ولابد أن تطاوعنى الآن! فمن يدريك أن الحاج السنى أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة!! وقد أخرج من هنا غيظ طيفك البوليس من هنا لياخذك بها صلباً!!» ألتفتي هذه الفقرة يا برى! شعرت أنه يلوح مهدداً بشيء كالذى قاله! فتضايقت منه يا خال! وأسرعت قائلاً: «قيل مجيء البوليس تكون هذه الأمانة في جيب صاحبها! وأحسن شيء تقطعه الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائى مشواراً مهما سافطه قبل ذهابى إلى الحاج. ونهضت، فنهض على مضض شديد، ومضيت أمامه نحو الباب، فمضى في ثقائل يكاد اللفيط يغريه: «مع السلامة يا يسبوسة! أشوكت عند الحاج بعد ساعة واحدة» ومرت يدى أسلم عليه، فمد يداً باردة متراخية: ظل ينظر لى برهة طويلة، ثم لوى شفثيه مشتملاً وانصرف، أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين المسحوبة لرايته يطرق باب الجهران فانتظرت حتى انفتح الباب وذبّق هو إلى الداخل، انضجرت متسللاً على أطراف أصابعى كي أسيبقه إلى دار الحاج السنى! فإذا بى اصطدم بسنيرة تبارك الخلاق فيما خلق، تفوح منها العطور الفاخرة وينكسب الجمال على كعبيهما ورففهما وخصرها وعنتها ووجهها وجدائل شعرها الأسود الفاخم، الحسبية العظيمة أنها قالت لى: «أنتصيح بالخير يا حسن!»، فكان الدنيا بذاتها نطقت باسمى على نغم القيثارة، وإذا أنا كخفل غريب أندفع صائماً: «يا صبيح النور! أهلاً ثم نزلت السلم أكاد أتمثر في خجلي ومرونى لهما هي تلوح لى بيدها مودعة.

يا مثبت الحقل في الدماغ يا رب! فالحاج السنن قد زرع كل أبراج عقلى يا بوى - أقصد يا رب - وقد طيرها برجا وراء الآخر. إنه متخصص في سرقة كل من كل أبراجى أنا الآخر. أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولت على أبراجه الشامخة التى تجذب حمام البلاد كلها فإذا هى تولف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذى يبيعه للغافلين إليه ثانية، الحمام ليس عبيطاً يا بوى! كيف يكون عبيطاً وهو يرجع إلى مسكنه الأصلي في وطنه مهما حالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتفيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة. أما الحمام فلا يفترب أبداً، لا يد أن يعود إلى بنائيه في المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره. تخيل يا بوى أن هذا الحمام يفهم مثلاً في أمور الحياة، فمثلاً يكره الفكر يهفو إلى العز والنفقة والعش اللين الطرى، طبعاً يا خال، كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتخذ في صنعه ولا أجدع مهندس، إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء يترك أمر عشه لمن يقع في هواه لمن يفواه، متقزح آخر قنزعة على قدر الهوى تكون الغية، والغية في خيال الحمام قصير بلا حدود، وطيرك الذى يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف إنه يموت في الجماعة يا خال، كلما تزايد في تجمع صهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والاتحام به في فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة في اختراق وشموخ وثقة إلى

هدف لاشك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة بهلاء بالهديل والفزل حتى يتكاثر ويتكاثر يصير نقوشاً ملائكية في روعة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى الفلح وهزه في التكاثر والتكاثر دينه ودينه؟! لا يد أن الحاج السنن فيه شيء لله لس به أبراجه العائلية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!!

القائدنى خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح المسمون مضروباً في عشرين ضعفاً، قل يا بوى إنه مجمع أضرحة فضيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئاً فشيئاً حتى تصير كالمسلة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائري، والأبراج والأضرحة ملتصقة كلها ببعضها وإن استقل، كل واحد منها مجسداً بكل أعضائه، فلما صرت في قلب هذا الحوش خيل لي أنني في قلب برج هائل خرافى وإذا رقصت رأسي إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لي أنني غاطس في قلب الأرض إلى أعصال بعيدة. عدلت نفسي متطوفاً أتساند على الهواء فأرىنى وحدي وقد اختلفي الخادم شعرت بخوف مفاجئ يا خال، نامنى ضمور كالذى يعترى من يجد نفسه فجأة في قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتصقة ببعضها في دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفاً من السماء على قدمها، تلقى على فراغ الحوش الألف من المسمون المنجولة في صلبوف دائرية من الأرض إلى السقف لا لأهل، ورمادية، تاحل بيئها وبين بعضها شرائح من

الجدران البيضاء كأنها الجفون التي توشك أن تتسدل. ما إن يسود الهدوء الساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقة فرخ من إحدى العيون كرصاصة مدفع. في الحال يتيم فرخ آخر، سرعان ما تستجيب لندائهما أفراخ أخرى كثيرة تندفع من العيون الساقطة. ليلتشم شمل الجماعة على ناصية الهواء المتناخم. ولقد يؤدي رقصة سريعة خاطفة. تتقارب الرءوس تتشاور لتسلك في رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهاجاً.

« أنت يا.. هو! ماذا تفعل عندك؟ ما وفوك كاللوح؟! » كان الخادم واقفاً في باب صغير لم يفتح. صمكت فيه:

« أين أنت يا جدج؟ لقد اختفيت من أمامي! »

أشار خلفه إلى عمق الباب:

« قلت إنك تريد لقاء الحاج! ها هو ذا الحاج ينتظرك فادخل. » عرولت نحوه. فإذا بالباب الذي كان يبدو من بعيد كباب الخن قد أستطال، وإذا هو باب أحمد الأبراج. وإذا هو من الداخل دائرة كبيرة تطل على حوش مثل الذي كنت واقفاً فيه؛ وإذا جدران دائرية كلها عيون لا حصر لها من الأرض صعدت إلى عتائر السماء. وقضبان حديدية تنظم بعضها البعض في صفوف متجاورة متعاقبة متعاكسة مما تتصل بقضبان عمودية غاطسة في الأرض تنفرد منها دوائر حديدية يشبهان نحو الطور الشاهق بحيث يستطيع أي إنسان أن يصعد بكل راحة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول في العين للحصيد. حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذي

هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمنون به أراضي البطيخ. هذه مملكة أخرى يا بوي ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السني..

كان متدمجاً بنفسه في تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجىء إليه ناثراً أمامه بعض حبوب الذنينة. إذ هو يعرف أن الحمام يتكلم بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسمى إليه زرافات زوافات ولو في أقاصى الأرض البعيدة قال حين رأى تسمرت في مكانى كالأبله متهملاً بإمبراطورية الحمام هذه:

« أين كنت يا ولد يا عكرت؟! لم نرك من زمن! »

« مضائل والله يا حاج! »

« لأمرا أي خدمة؟! »

« لأمرا أنت يا حاج! لست تسال عنى! »

« أسأل عتك في كل وقت! ولكن ما الذي فكرك بى الآن؟! »

« فرحت من انشغالي فجئت! »

قال كأنه يطردنى بصنعة لطافة:

« شرفت وانست! لكنى الآن مشغول كما ترى! على كل حال

سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد في مدخل الليل! فحاول أن تجمىء! لك الآن أن تشرب الشاي في استراحة البوابة الكبيرة أو تتفدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء في سبيل أن تعذرني على انشغالي عتك الآن! »

وثالثنا الورق

« تشكرا تشكرا لا شأى ولا غيره! كنت أحب أن أكله
كلمتين! ». كوم زيل الحمام بسيف كفه:

« لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غدا ».

ثم نفخ كفيه فى بعضهما ومد يمانه ليسلم على إم. أهلا
وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا الميظ كما قد بدا أنه يدعيه
على لكنى قلجى لم يطاوعنى، فارتدت إليه مقدما له الولاة
الأثرية، فإنا هر ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا
عكروت! » نفختنى رعدة ياردة: « هذه هى الولاة التى ضاعت
من محمد بك أبو شناف! قال الشعلب: « وما شأنى أنا بها! قلت:
لكى تعطيلها له لأنه يبحث عنها! » نظر فى عيني: أين وجدتها! »
قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج! » قال: « إذن فظلمها معك
حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حطلمها عندي لأنها مسئولية!
أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له بدا بيدي! » أغرقتنى الحيرة:
« لكنك بحثت فى طلبها يا حاج! » قال الشعلب: « إنما طلبت رؤيتك
فحسب! ولم تجئ سيرة الولاة أبدا! الولد بسيوسة لعب بعقلك!
عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه! ».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى ليلة

تمتالى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الامالى

(وثالثنا الورق)